







دخائر العرب

١٨

# مذكرات الإمير عبداله

أخراجه بنو زييرى بنقراطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسماه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق

من النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليشى بروقنسال

أستاذ الحضارة العربية بالسربون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بصر



## مقدمة

إنَّ المصنّف الذي سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تاريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التاريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمّ قطعتين واسعة كلّما اكتُشف شيءٌ منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللّغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزاءه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسّف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يتّلع بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذناً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تاريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مُذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنفٌ واحدٌ يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس اللوحية ، وقد وقفتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلَّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنَّه لتوفيق آخر ليس أقلَّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلُّ أهميَّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلَّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنتُ نرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أن الأمير عبد الله كان قد دوَّن تاريخاً عن السولة التي أسستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرتُ في ١٩٣٤ أول طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبتُ انتباهي الفقرة الآتية ( ص ٢٩٩ ) : « وقفتُ على ديوان بخطِّ عبد الله بن بلقين ألته بعد خلمه بمدينة آغمات وقرَّر فيه أحواله والحادثة عليه مما يستظرف من مثله ، أتخفى به خطيبُ المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أن ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ ( ١٣٩٠ ) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلَّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صحَّ ، أصلٌ » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدقة من صدف المطالعة العنوان التامّ لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « الرقبة العليا » ( ص ٩٧ ) ، وهو مصنّف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلّفه المشهور ابن الحسن النُبَهي ( وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨ ) ، يتبيّن أنّ كتاب عبد الله كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيّري في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالمؤلّف الذي عُزل ونُفي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

• • •

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأية قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟ فلا كتّف هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية ( الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥ ) :

كان عبد الله بن مُبلّقين بن باديس بن حبّوس بن زيّري الملك الثالث والأخير لملكّة غرناطة التي أسّسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني زيّري البربريّة الصّنهاجيّة ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة . وُلِد في سنة ٤٤٧ ( ١٠٥٦ ) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه مُبلّقين سيف اللولة في عام ٤٥٦ ( ١٠٦٤ ) كوليّ عهد لجده الأمير باديس بن حبّوس ؛ ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ ( ١٠٧٧ ) ، بينما أصبح أخوه



تميم المعز أميراً مستقلاً في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط عند تدخل المرابطين في إسبانيا . لكن اتفقاته مع الملك النصراني أدت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ ( ١٠٩٠ ) ؛ فاضطر إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات . وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تاريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرر موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته ، فإن كتاب « التبيان » يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الجوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ ( ١٠٨٥ ) وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أن مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التي ألقت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّة الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكَّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان . وإنَّ هذه الفترة التي سأصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

\* \* \*

إنَّ مخطوط مذكَّرات عبد الله يحتوي في مجموعه على ٨٠ ورقة من القراطس السحيك ومن القطع الكبير ( ٢٣ × ٣١ سنتمتر ) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً . وقد أرفقتنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِدَارِي المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيَّتين هامَّتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

أودُّ في الختام أن أنبِّه قرَّائي الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثرت إلى حدِّ ما باللَّغة العاميَّة الأندلسيَّة ، وأتة يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لغوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أنبّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مرّ في النصّ الأصليّ .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥

Handwritten Arabic text, likely a manuscript page, showing dense script in a cursive style. The text is arranged in approximately 20 horizontal lines, filling most of the page. The ink is dark, and the paper appears aged and slightly textured. The script is highly legible but dense, characteristic of classical Arabic calligraphy.

« مذكرات » الأمير عبد الله : صفحة من الأصل المخطوط



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### فِصْلُ الْأَوَّلِ

#### نظرات عامة للمؤلف

#### ١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

- .....<sup>(١)</sup> واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)
- يولد خشونة اللفظ ، الذي تمجّه الأتباع .
- والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام  
٥ رَعِشَ ، ولا متكلم هائب ؛ فإن المهيبة فرع [ من ] المخافة ، والمخافة فرع  
[ من ] الحذر ؛ ومن حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا  
تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكي بها الجنان ؛ فالنفس ،  
إذا منعت ما تشتهي ، تُرعى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الخليل مختبئة .  
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله ؛ فكل  
١٠ مفتون ملقن حجته ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل  
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،  
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أملة وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لعدوّه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهدرٌ .

وليس يُحمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظمِ خبرٍ أكثرُ من جودة التأليف فقط ، لأنّه إنّما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق ممّا عنده .  
 ٥ وإنّ الأوّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ ، ولا يتبرّع في [شيء] . ولكنّ الأوّل أن يؤخذ بما نصّه الله عليه في قوله (١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكْرُ خبرٍ بوصفٍ ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدّي إلى تأدّب وانتفاع . فلعلك — أيها التأمّل كتابنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتعجز واضعّه : فليس إلّا كما قدّمناه . اللهمّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدّي إلى القيام بحجّة صاحبه\* والاعتذار عنه من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذراً ، وساعد عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُجرِ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حدّثاً ومعرفةً تذكّر عنه وتُنشر بعده : فإنّ ذلك من آكد ما يجب له السعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسّه في تلخيصه ،  
 ٢٠ إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء اللقال ، ونشاطٌ على

ترفيح الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة القريحة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،  
واللسان عبي عنه .

ولا نبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من  
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمرٌ ، نزل ضدهُ : كالحياة ، إذا ارتفعت ،  
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،  
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمرٍ : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدَّ له من قصان  
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسنجع  
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تخليق عليه ،  
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، قص بعض اللفظ ؛ كما قيل :  
« إذا تمَّ العقل ، قص الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسنُ خراطاً وأفضلُ  
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريدُ إيرادَه كالحديث « [ فالحديث ] ذو  
شجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتفق إرادُه دفعةً واحدةً ،  
ونضه على أكمل ما يمكن .

## ٢ - حقيقة الإسلام والرُّدُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسه ،  
فهو لآخرته أجهل ، [ آخرته ] التي لا تُعرف إلا بالفسك والاعتبار ، بعد



ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى<sup>(١)</sup> :  
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما \* يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل<sup>(٢)</sup> ( )  
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [ يقينه ] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا  
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينتفع به لدنياه التي يشاهدُها معاينةً .  
 والرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ عَمِلَ قَعِيلٌ : فذاك الذي يُدعى في الملكوت ؛  
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضاعف له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ  
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت مِيتَةً جاهليّةً ، ولا تصحُّ له معرفة  
 دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن  
 الصنف المُلحد ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فأتبع على يقينٍ وجودةً نظرياً ،  
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكُّ . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلحِدة ، غير أهل الكِتَابين<sup>(٣)</sup> من المُشركين  
 ومن سيّوَاهم ، فالضلالُ منهم بيّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما  
 ما يزعم أهل الكتاب من أنهم على الحقّ ، ولم الدين القويم<sup>(٤)</sup> ، وأنّ قولهم  
 أحلٌّ [ بنيره ] ، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون  
 أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاّ بأن  
 تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ  
 وكتبٌ مُنزلةٌ وأنبياءٌ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،  
 لم يجب لكم أنتمُ شيءٌ ! »

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مهملين ، وهو قوله تعالى<sup>(٥)</sup> :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبّدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرء ودينه ، ولا يهمل من يعبد سواه حتى بعث محمّداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحقّ بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥  
 قد ضلّ أهلُ الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [ على بعض بما لا ]  
 يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كه \* ..... (١) ٢ (ب)  
 الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا - عليه السلام - ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كافّة ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! »  
 وقال الله تعالى (٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّةُ ١٠  
 عليهم ظاهرة على ما بيناه فيما يعطى العقل والقياس . وأما تبيان نبوته - عليه السلام - في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف .  
 وإذا قتلت أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فن ينتحل منهم فتها في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل  
 تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على ١٥  
 نفسه التصديق في كلِّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول (٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال - عليه السلام - :  
 « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار  
 جلةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) حرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله<sup>(١)</sup> : ﴿ وَتَنبَأ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم التظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأذره العقاب ، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .

١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن . . . . .<sup>(٢)</sup> \* الذين أبانوا عنها ؛ والظن أ كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [ رأيه ] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو

١٥ واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحدٌ منها على حقيقة ؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهريّة . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول - عليه السلام - ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم  
على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .  
وترى من الملحدين كثيراً [من] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إنما أعلم<sup>(٢)</sup>  
ما تُدرِّكه حواسي من حارٍ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقلي بما  
كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإنما أنا أن الآن » . فالردُّ عليه أن يقال  
له : « أتدرى بِمَ عرفتَ هذا كله ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس  
بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إذا عرفتَ بالعقل  
ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتَ  
لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذي  
خلقك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يبيدك ولا يجعلك هماً ، ولم  
يخلقك عبثاً ؛ ولو أنك تعلم - أيها الشقيءُ - أن العقل ، إذا وجدتَ  
به آيات ربِّك ، كلُّ عليك وحتلُّ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى<sup>(٣)</sup> :  
﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا  
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال<sup>(٤)</sup> : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .  
وقد أنت الرسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في  
العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثر البشر . وقد أمر الله تعالى  
بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله في قدرته على  
ما يشاء \* جاحدٌ كافرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إنها هي تُدبِّرُ كلَّ شيءٍ ، وإنما أعلم [من] كلُّ

(٢) أصل : « نعلم » .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

علم وأحكم [ من ] كلٌّ حكيم ؛ فنجع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه  
 الأطبَّاءُ بجتهادها . وقال غيرهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى  
 ما هو . » فالحُجَّةُ عليهم : أهيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،  
 سيقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،  
 ٥ وَغَيْرُهَا مُناقِضٌ لها . وهي كانت حُجَّةُ إبراهيم على قومه وردَّه على من قال  
 إنَّ الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى  
 الظلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فأثبت الوجدانيةَ  
 بالحُجَّةِ القاطمة الواضحة .

وقد ذُكر عن سُقراط ، وكان في زمن جاهليَّة ، أنه قال ، بما أوتي من  
 ١٠ الحكمة ، مخاطباً الباريَّ عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ا ويا أوَّل الأوائل ا  
 ويا قديماً ا لم يزل مِنِّي ناركٌ لعلِّي أن هذه المخلوقات من آتارك ؟ »  
 ولم تكن معه فئةٌ يتبعونه على قوله ، ولا يمتثلون ما قال ، حتى أمروا  
 بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكرَه أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس  
 ١٥ دون الرسالة ، على أنه لا يشكُّ ذو عقل أن المخلوقات قد جعلها الله عِللاً بعضها  
 لبعض ، ولم يخلقها عبثاً ؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهي ذلك إلى الباريَّ عزَّ  
 وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء . وهو قول إفلاطون لموسى — عليه السلام —  
 إذ قال له : « يا أخى ؟ رسولٌ منَّ أنتَ ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :  
 « أنا رسول العِلَّة » . فقال له إفلاطون : « ما العِلَّةُ ؟ » قال : « لا أدري ا  
 ٢٠ ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّةُ ! إنما أنا متَّبِعُ ا » فقال له إفلاطون :  
 « اذهب وبلِّغ ما شئتُ ا فالآن صحَّ عندى أنك رسولٌ حقَّ ا »

وكذلك الجزء لا يُحيط بالكل ، والكل مُحيطٌ بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى<sup>(١)</sup> : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

وكذلك \* أهل الهندسة والعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقة مصرفة<sup>٤</sup> ، (١) لما ... العباد ؛ والمائل منهم يقرُّ بذلك ، غير أنه نُهي عن النظر فيها ٥ والاجتهاد فيما نُهي عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة ؛ والقسادُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَعُ مَا يُرِيبك إِلَى مَا لَا يُرِيبك » .

وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا فِيهَا سَعُودًا وَمُحُوسًا ، إِنَّمَا فِي الْفَلَكَ سَعْدَانٌ وَمُحْسَانٌ ، يعنون بها المشتري والزهرة وزحل والمريخ ، ونيران ، وهما الشمس والقمر ؛ ولا يصحُّ لعالمٍ أن يتكلمَ عليها إلا بمزجٍ بضعها ببعض ، فكيف يكون لها الحكم ؛ وهي أضدادٌ ، والحاكمُ لا يضادُّ ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله ؛ وهو مصرفُ الدهور بما يشاء لا إله إلا هو ، العزيز الحكيم ١٠

وليس في العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا ، وكذلك الدول والميل : كلُّ يأتى في أوانه ، ولا يتعدى وقته ؛ والدينُ صلاحُ العالم ، ولا عدلٌ إلا به ، والملكُ يعضده ويحميه ، وهو قوامُ العالم على ما رتب الباري عز وجل . ١٥

## ٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأعلم أن العقل محتاجٌ إلى التعلُّم ، ولا يستحكم تعلُّمٌ إلا بتجربة ، ولا تتحكم تجربةٌ إلا ما كان فيها بعض التكد والإشغاف ؛ فالإنسانُ على ما ضرى عليه وعلى أن السعيد من أعظَّ بغيره ؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و « لعل » و « عسى » ؛ فإذا أُحتججَ في ذاته ، أعقبه ذلك بقطةً وحنكةً . وكذلك من أُحوجَّ إلى نفسه كأنما لا يتشكل على غيره . فينبى العاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك ، والتمرن فيه ، إن لم يحوجه الدهر ؛ وإلا : فليتمب ذهنه ، ويشغل باله بالفكرة فيه ، خوفاً أن يضطرَّ إليه ، وإنَّ اللعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وجدَّها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فضلَ ما هو فيه ، وكانت لذته به أشدَّ تمكناً : فإنه لا يعرف ؛ قدرَ الخير من لا يعرف الشر . وإعمال الفكرة في هذه المعاني كالتجرب بها : فإنَّ الاهتمام بما لم يكن بلاء في النفس كائن ، وذلك البلاء مؤدَّب ، وإعظُّ ، نافعٌ ، مضحلٌ ، خيرٌ من بلاء موجه حال .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنما هو نورٌ بصَّته الله في القلوب . ولا عذر للإنسان في أن يجهل علماً يليق به ، لقول الله تعالى (١) : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وليس كلُّ ما حضَّ عليه ونهى عنه على العموم ، بل لذلك كله حُكمٌ يحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جهده .

(١) سورة النحل : ٤٣ .

## ٥ - التكوين السياسي للمؤلف

وقد كُنَّا - مَعشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكَةِ - نَرَى مِنْ آكْثَرِ مَا تَأْدِبُ بِهِ إِعْمَالَ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّعْيَ لَهَا بِكُلِّ الْوَجْهِ ، وَإِحْضَارَ الْأَذْهَانَ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَقْبَهُ النَّاسِ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلِحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَاقُصُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاضَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ آبَاؤُنَا ، وَبَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تعلُّمُها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معاش الناس ، ولا بدَّ لهم من إتيانها . ولعمري إنَّ الوالي أكثرَ علمًا وأحسنَ عقلًا : فإنَّ جميعَ عقولِ الناسِ تعرضُ لدينه ، ويجرَّبُ في موضعه ما لا يجرَّبُ غيره في قلبه في البلاد ، وإليه تهدي الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وترفع الحاجات ، وتقع العناية ؛ فيرى ويسمع كلَّ يومٍ جديدًا لم يره أمس . وقال عمر بن العزيز - رضي الله عنه - :  
١٥ « لَسْتُ كَخَبِيرٍ ، وَلَا الْخَبْرُ يَخْدَعُنِي ! » وقيل : « فُلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ » .  
قال : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

\* ولما كان المظفر جدُّنا - رضي الله عنه - قد أُوتِيَ مِنَ الدِّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ ٥ (١)



أخذ بنيهِ للولاية بعده ، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتعيينه وإعماله في جميع خدمته ، كئى يتدرَّب ولا يخفى عليه من أمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه ، كُنْتُ مَمَّنْ وَقَّهَ اللهُ لِبِرِّهِ وَالانصياعِ لوصيَّته . فأمر بإخراجى من المكتب إلى التصرف بين يديه ، وقال لى - نصرًا اللهُ وجهه - : « معك من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك ! وهذا أولى ما تتعلم ! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون منى وما ينتضى في دولتى أيامَ هذه الفتن ؛ فإنَّ الزمانَ أشْرُ ، والأَيَّامُ أَقْصَرُ من أن تُدرِكَ تَعْلَمَ كلَّ شىءٍ يعنى به الملكُ لأبنائهم ! »

فامتثلتُ حدَّه ، وأخذتُ نفسى أولاً بالتواضع له واختصارِ كلِّ شىءٍ يقع منه فى نفسه أنى أشْرُهْ به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة ؛ بل كنتُ أتأبى له عن ذلك ، ولا أحكمُ بين اثنتين إلا عن مشورته ومشاركة أهل السنِّ والعمل من وزرائه ، وأنزل نفسى لهم بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقفاً ارتضونى به للخلافة من بعده . واتفق فى ذلك رأيهم مع رأى الجدِّ - رحمه الله .

ولم يكن منها نهارٌ إلا وأستفيدُ فيه فائدةً من تجرِبَةٍ وحُسنِكَ . وما كنتُ أجهلُه من الأشياء ، أجدُّ له أعواناً من الوزراء ، يعلمونى بالصواب فيه لقلةِ خِلافى عليهم وبرِّى بهم .

كلُّ ذلك [ من ] الأسباب التى أذن اللهُ من أجلها ولايتى من بعده . وقد كان من أهل بيت المملِكة مَنْ يصلح لها قبلى ، ومعى من آخر كبير وعمِّ وقرايةٍ أتوقَّعُ استهدافهم إلىَّ وتغلبهم علىَّ ، مالو أنفقْتُ مِلاً

الأرض على كفايةِ شرِّه ، ما استطعتُ له . فكفانى اللهُ تعالى ما كنتُ \* ه ( ب )

أَتَوَقَّعُ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهه . فنحنُ  
جُدْرَاهُ بِتَعْدَادِ رِيعِ اللَّهِ وَالْإِنصَافِ فِي شُكْرِهِ ، كما حضَّ الله عليه في  
قوله<sup>(١)</sup> لِنَبِيِّهِ — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .  
وقد كان أبونا سَيِّفُ الدَّوْلَةِ — رحمه الله — مَرَشَّحًا لِلْمَلِكَةِ ، كثيرًا  
حُبُّ أَبِيهِ لَهُ ، وَجَمْعُهُ الْأَمْوَالَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَتَدْرِيبُهُ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ .  
وَكَانَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مِنَ الْعَقْلِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْحِلْمِ مَا شَهَرَ بِهِ  
فِي الْبِلَادِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَحَبَّةُ الْعِبَادِ . وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُظَلَّفِ جَدًّا غَيْرُهُ ؛ فَتَوَقَّيْ  
— رحمه الله — ابْنَ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا . وَسَنَذَكُرُ مِنْ أَحْوَالِهِ مَعَ سَائِرِ  
أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَرِدُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

## ٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ ذِكْرُ دُخُولِنَا الْأَنْدَلُسَ ، وَكَيْفِيَّةِ وِلَايَتِنَا إِيَّاهَا ،  
إِلَى هَلْمِ جَرًّا .  
فَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى خَيْرِ يَطِيبِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، لِلْمُعْتَرِضِ  
أَنْ يَقُولَ : « هَذَا أَحْسَنُ لَوْ كَانَ عَلَى أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وَعَنْ وِلَايَةِ تَرْتَضَى ! »  
فَيَنْطِقُ هَذَرًا دُونَ اخْتِبَارِ وَلَا إِنصَافِ ، عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ لَا يَقَعُ عَلَى الدَّوْلَةِ  
إِلَّا فِي مُدَّتِّهَا وَأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ ظَالِمَةً ؛ فَلَا يَقَعُ فِيهَا الدَّمُ إِلَّا بَعْدَ  
تَوَلِّيِّهَا ، وَلَوْ كَانَتْ عَادِلَةً . وَالنَّاسُ مَعَ مَنْ سَبَقَ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بَيْنَ الْعَدْلِ ،  
لَا بَيْنَ الْمَوِي ؛ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولتري أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلق بالسعادة إلا كل مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إداراً إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمّه : فإن رضى العامة أمر لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتقضى عليه انقلب سخطاً ، والتقضى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد\* ٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوى بين [ أمور خلقه ، وجديراً ، وإن ] كَيْفَت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات . ١٠

## ٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

### مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجده كائناً بأرق سبب : فمن بين جاهل مسعودٍ أو حاذقٍ مُمخَرَقٍ . وإذا بَعَثَت على ما هو فيه أعين استحقاقٍ تصير إليه ، لم تختبر من فضاله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف على رأى من تزدر به عينك ، ولأن الجهل في العامة أخلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تقس عليه بمقولها ؛ والله

ما بطن ، وللناس ما ظهر . ولهذا ترى صاحب التاموس أرفعَ ذِكْرًا وأطيبَ نناءً ، وإن كان يُرأى .

وقد كان المنصورُ بن أبي عامر ، على دقَّة شأنه قَبْلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقُّها عن الآباء ، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا ، قد حصل على عظام بدعائه ونخرتته على العامة ، مع ماهيات السعادة له ( وكان أقوى الأسباب في سلطانه ) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [ في جميع ] ما يأتي ويذَر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الحَكَمِيَّة<sup>(١)</sup> ، وتقصيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو<sup>(٢)</sup> به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمَل ، وبلغ من ذلك كلُّه الناية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [ لكان قُتِلَ ] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [ بعده ، فسار المنصور ] \* بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد ٦ (ب) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [ مثله ] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكية » .

(٢) أصل : « أن به تصفو دولته » .

## الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري  
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري  
وحبوس بن ماكسن

٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .  
قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [ المنصور ] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غابها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلّ بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الأثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا يخفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الوغاء . وكان من أذهام رأياً وأبندهم همة زَاوِي بن زَيْرِي عُمْنَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبي عامر الرُّتَب ، وأظهر هيئة الخلافة ، وقع الشرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيَّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلَاقاة وشغلهم بالفَرَوات عن عمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . قاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويمطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها \* عليهم<sup>(١)</sup> [ وفرض ] بينهم ما لا [ يرتزق ] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [ أن عمت الأندلس ] عدَّة الثَّوَار و [ اتبعوا ] هم على تلك الآثار . [ ودأبه ] في ذلك إتما كان على ما وصَّناه .

وكان الناس موثمين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والمواسي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلا ما يقيم به الجيش والدولة التي هي قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعيَّة ، وعزُّ دُولهم ، وذبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأول الخير . ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً [ عامرة ] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد

(١) وقع هنا وفيما يلي خرم وبعض نحو في الأصل . وأكلناه بما يتفق والمنى .

وَدَفَعَهُ لِآخِرٍ ، لِيُنْخَلَّ بِذَلِكَ عَسْكَرُهُ وَيُتَخَيَّرَ أَفْضَلَهُ . . . . . فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ كِفَايَةٌ وَعُدَّةٌ ، إِذْ كَانَتِ الْأَمْوَالُ الَّتِي يَعْطُونَهَا مِنْ غَيْرِ أُصُولِهِمْ ، وَلَا اكْتِسَابِهِمْ ؛ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ . وَأَمَّا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ مِظْلَمَةٍ أَوْ قِضِيَّةٍ وَكُلِّ حُكْمٍ يَرْجِعُ لِلسُّنَّةِ ، فَإِنَّمَا كَانَ لِقَاضِي الْبَلَدَةِ .

٥ فلما تمت الدولة العَامِرِيَّةُ ، وَبَقِيَ النَّاسُ لَا إِمَامَ لَهُمْ ، ثَارَ كُلُّ قَائِدٍ بِمَدِينَتِهِ ، وَتَحَصَّنَ فِي حِصْنِهِ بَعْدَ تَقَدُّمَةِ النَّظَرِ لِنَفْسِهِ ، وَاتَّخَذَهُ الْمَسَاكِرَ ، وَادَّخَرَهُ الْأَمْوَالُ ؛ فَتَنَاقَسُوا عَلَى الدُّنْيَا ، وَطَمَعُ كُلُّ وَاحِدٍ فِي الْآخِرِ . وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ أَمْرٌ بَيْنَ نَفْسَيْنِ ؛ فَكَيْفَ سُلَاطِينَ كَثِيرَةٍ وَأَهْوَاءَ مُخْتَلِفَةٍ ؟ . . . . . إِلَّا اللَّهُ . . . . . مَنْ كَانَ ظَالِمًا مِنْهُمْ يَتَعَدَّى . . . . .

١٠ للقدر\* الذي شاء ربنا لا شريك له .

٧

### ٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناءً على طلب أهلها

فلما رأى سُلَاطِينَ صِنَهَاجَةَ وَبَنُو زَيْرِيٍّ اقْتِطَاعَ كُلِّ أَمِيرٍ فِي بَلَدٍ لِنَفْسِهِ ، وَذَهَابَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِزٍّ وَأَثَرٍ ، عَزَمُوا بِالرَّحِيلِ عَنِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَوَازِ إِلَى الْعِدْوَةِ ، لِيَرْجِعُوا إِلَى مُسْتَقَرِّهِمْ . فَانْعَقَدُوا عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ أُمُورٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا ، وَظَهَرَ فِسَادٌ كَثِيرٌ أَضْرَبْنَا عَنْ إِيرَادِهِ كُلِّهِ ، إِذْ كَانَ مَقْصَدُنَا ١٥ وَصَفَ دَوْلَتَنَا خَاصَّةً . وَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ لَمَعٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْاِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَهْلُ الْبِيرَةِ فِي بَسِيطٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَكَانَ بِهِمْ مِنَ الْغَشِّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لِيَتَّخِذَ بِإِزَاءِ دَارِهِ مَسْجِدًا وَحَمَامًا فَرَارًا مِنْ جَارِهِ ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى طَاعَةِ وَلَا حُكْمٍ وَالِ . وَكَانُوا مَعَ هَذَا مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذباب ،  
إلا بمن يحميهم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،  
وأنها أضرت نارا ، وتوقعوا أن يتخطفهم الناس ، وجهوا إلى زاوى المذكور ،  
شاكين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا  
الجهاد آكد عليكم : أنفس تهيونها ، وديار تهمونها ، وعزة تأرون إليها !  
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم منا الأموال والسكنى ، ولنا  
منكم الحماية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوتهم . واغبتوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة  
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون  
فتنة [ تهميم ] ، ولا جماعة يتوقع غضبتها . فآتوهم محتشدين منالفين ،  
قد انقطع إليهم كل من اتقى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،  
وحيوهم بالتحف والأموال ، وتشاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم  
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقل كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،  
وحصن آشر\* من الغرب .

(١)٨

١٥ فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت  
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدهم مما يصير إلى أخيه . فرجعت  
إلييرة فى قرعة زاوى ، وحصن آشر مع جيان فى قرعة حبوس ابن أخيه  
جدنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو  
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .



## ١٠ - ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري

## اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقوهم ويحصنوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدتهم ورأيهم .  
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان وبنفسهم لجنسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سموه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلوا بمخلافته عامة الناس ، ويرجع أمرهم إليه .  
 ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قيل ذلك ، لما بلنهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة  
 ١٠ للذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئتان متبلة لطلبنا : فإن استوتقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلونا : نمض عنكم على أجل وجه . فلن ندم الخير بسوفنا ا » فأجابهم القوم :  
 « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ا فنحن رعييتكم الطائفة  
 ١٥ وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوي بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها متقلاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا \* . . . . . والحرب ا (ب) ٨  
 سيجال . . . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ا وقد أمر

(١) غرم في الأصل .

النبي<sup>٤</sup> — عليه السلام — عند احتشاد المُشْرِكِينَ على المدينة أن يُخْتَدَقَ

حَوَالِيهَا ، وَسَنَ الْحَزْمَ ، مع مَدِّ الْوَحْيِ لَهُ ؛ فَكَيْفَ نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ<sup>(١)</sup> من الأموال ما نَسَرَعْتُمْ بِهِ ،

إِلَّا أَنْ تَنْفَقُوهَا فِيمَا يَخْصُكُمْ مِنْ تَقْوِيَةِ مَدِينَتِكُمْ بِمَشُودِ رَجَالَةٍ مِنْكُمْ ، تَنْفَقُونَ

٥ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا بِهَا لَكُمْ أَعْوَانًا : تَصَرَّفُونَهُمْ حَرَسًا وَجَوَابِسَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ،

وَيَحْمِلُونَ مِنْ تَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ عَلَى الْجُنْدِيَّةِ ، أَوْ تَبْنُونَ لِأَنْفُسِكُمْ سَوْرًا

يَتَوَقَّعُ بَرَكَةَ ثَلَاثَةِ تَدْخُلُ بِهَا الدَاخِلَةُ عَلَيْكُمْ . وَأَمَّا سِوَى ذَلِكَ فَمَا يَخْصُنَا

نَحْنُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ نَأْتِ الْأَنْدُلُسَ إِلَّا وَأَجْلَبْنَا مَعَ أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَمْوَالِ

مَا لَا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى أَحَدٍ ، بَانِينَ عَلَى الْإِقَامَةِ إِنْ اضْطَرَّرْنَا إِلَيْهَا ؛ وَلَمْ

١٠ نَأْتِيهَا مِنْ فَاقَةٍ وَلَا سَعَايَةٍ ؛ إِنَّمَا جُئْنَاهَا رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ ، وَأَنْ تَكُونَ

كِفَايَتِنَا الَّتِي شَهَرْنَا بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ دُونَ سَائِرِهِمْ ، وَأَنْ تَقْنَى بَاقِيَ أَعْمَارِنَا فِي

طَاعَةِ اللَّهِ ، إِلَى أَنْ دَفَعْتَنَا الْأَقْدَارُ إِلَى مَا تَرَوْنَ . وَنَحْنُ لَمْ نَطْلُبْ أَحَدًا ،

وَلَا تَمْدِينَا عَلَى بَشَرٍ ، وَهُوَ لَإِلَّا بَاغُونَ مَتَطَاوِلُونَ . وَمَنْ ﴿ يُغَيِّبْ عَلَيْهِ

لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup> ﴾ ؛ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَأَهْلِهِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ ! »

١٥ فَرَضَى الْقَوْمُ مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِيهِمْ رَغْبَةً . وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ أَنْ

يَخْرُجُوا لِأَنْفُسِهِمْ جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقَلًا شَاخِحًا ، يَبْنُونَ فِيهِ دِيَارَهُمْ ، وَيَرْحَلُونَ إِلَيْهِ

بَقَلَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَيَجْعَلُونَهُ الْقَاعِدَةَ ، وَيَخْرُبُونَ لَهُ الْبِيرَةَ الْمَذْكُورَةَ . . . . .

٩ (١) . . . . . \*<sup>(٣)</sup> فَوَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَى بَسِيطٍ جَمِيلٍ ، قَدْ جَمَعَ الْأَنْهَارَ وَالْأَشْجَارَ ؛

وَجَمِيعَ مَا يَلِيهِ مِنَ الْبَلَدِ كُلِّهِ يَنْسِقِي مِنْ وَادِي<sup>(٤)</sup> شَلِيلِي لِلْمُنْحَدِرِ مِنْ جَبَلِ

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) خرم نحو

سطين في الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شَلَيْر . وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْناطةِ موسَّطة للبلدِ كُلِّه :  
 الفحصَ أمانه ، وجِهَتِي الزاويةَ والسَّطحَ بِجَنبَتِيه ، ونظَرَ الجبلِ وراءه .  
 فأفتنهم المكان ، وعملوا عليه كلَّ حساب ، ورأوا أَنه في وَسَطِ النَّعمِ وجمهور  
 الرعايا ، وأنَّ العدوَّ ، متى نازَلَهُ ، لم يطق له إحصاراً ، ولا منعه داخلاً  
 ٥ ولا خارجاً البتة ، في كلِّ ما يحتاج إليه الناسُ من اللرافق . فشرعوا في  
 بُنيانه . وتولَّى كلُّ امرئٍ منهم إقامةَ داره من أُنْدَلُسِ وبرَبْرٍ . وخربت  
 عند ذلك البيرة .

### ١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته

فلم يكن إلا مُدَّةُ يسيرةٍ قبل أن يستكمل البنيان ، فإذا بالطوائف  
 ١٠ الباغية قد أقبلت طامعةً متألِّفةً ، يظنون أَنهم ، عند وصولهم ، لا ترتد  
 لهم ساعة . وقدّموا كتاباً إلى زاوي المذكور ، يأمرونهم - بزعمهم -  
 بالخروج أمانهم على الأمان ، وأن لا سبيل إلى البقاء ، ولا يتركونهم بذلك  
 الموضع : يُتبلون بذلك العذر عندهم ، إذا ظفروا بعد هذا ، أن لا يقيوا  
 لهم عثرةً .

١٥ فلما قرئ على زاوي كتابُ المرتضى المُقام لهذا الناموس ، جمع  
 رجاله ، وخاطبَ ابنَ أخيه حَبُوساً ، يأمره بالقدوم عليه ؛ فأتى في جميع  
 عسكريه ، ودخل المدينة على أعينهم ، غير مُجانب لهم ، ولا مُتكامن منهم .  
 واجتمع بقرناطة من صنهاجة دون الألف من خيرة الخيرة ؛ وكانت الطوائف  
 الباغية في نحو من أربعة ألف فارس .

٢٠ فأمر زاوي المذكور [ بكتيب الجواب من ] إملائه ، وقال للكاتب :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أَمَّلِي عَلَيْكَ ! \* اَكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَائِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِعِنِّ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّئِ ! » فزحفوا إليه .

وهشَّ القومُ إلى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوِي بِالثَّبُوتِ وَتَرْكِ الطَّيِّشِ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أُيْقِنَا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرَ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتَ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قَتْلِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُوا ، وَأَحْصَرُونَا مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِنَّمَا هُلِكٌ وَإِنَّمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعَذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَغْلِبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فخرجوا إليهم بأنفسٍ جريئةٍ وعلى الموتِ مُوطَّئَةً ، وَقُلُوبٍ حَقِيقَةً وَالْمَوْتَ طَالِبَةً . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَاتَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةً ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدِي الْبَرَبْرِ ، يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفْرِ ثَبِتُوا بِهِ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِقَرْنَاطَةَ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهْزُومِينَ .

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإن زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألب أهل الأندلس عليهم وبغضهم لهم ، عمل بذلك ففكرته وقال : « قد علمت وأيقنت أن هذا يكون \* دأبهم أبداً ، وإن كنا قد منحننا الظفر في أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين ! وهم ، إن قُتل منهم واحد ، خلفه ألف ، مع ميل جنسيهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والتقصان منا ! ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزهد فيه ، مع ما علمه من وفاة باديس بن المنصور ، واليد المميز ، ملك القيروان ، وأن ابنه ولي طفلاً صغيراً ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقدر الذي قدره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بنون ، يعدل كل واحد منهم بيده مائة فارس في نجدته وقوة بأسه ورأيه : منهم بلقين بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بنيت لغيرك ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضرًا لغائب ! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف من نفسك على الملاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاتة الموثوق بهم في المهمات من يشقها ، وينوب منابى فيها ، حتى أبشِرَ بنفسى حال القيروان وكيفية دولتها . فإما أن يتهمياً غرضنا ، وإلا انصرفنا إلى مرزقنا . »

٢٠ فتمياً للمسير على سبيل المشاركة للمميز ، وأن يكون له بالأندلس عدة

وعبدًا ، وما أشبه ذلك مما يُستعمل في المُشَارَكَاتِ واتِّصَالَ الأيدي على  
المُهَيَّاتِ . واستَحَلَفَ من استَحَلَفَهُ من الشيوخ أَلَا يَدْخُلُوا<sup>(١)</sup> عليه دَاخِلَةً  
وَلَا يُسَلِّمُوا<sup>(٢)</sup> من أحواله شيئاً لابن أخيه ولأَخَدِ من خَلَقَ اللهُ ، \* يُرِيهِمُ ١٠ (ب)  
في مسيره<sup>(٣)</sup> النظر لهم والسعيَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك .

٥ ثمَّ خرج عن البلدة كأنه يُقَادُ قوداً ؛ فلم يخرج منها بمرحلة إلاَّ وكتبُ  
مُسْتَحَلَفِيهِ سَائِرَةً إلى حَبُوسِ بنِ مَآكِسِنَ ، يسفّهون رأى زاوى ويقولون  
له أن يُعَجِّلَ بالقدوم إلى البلد ، وأنه أحقُّ بولايته من غيره ، قبل أن  
يطمع فيه من لا يرضونه ، أو يشره إليه من فخرَ فاهُ إليه بزوال زاوى  
عنه . فلم يتأخر عنه إقبالُ حَبُوسِ . وتلقته<sup>(٤)</sup> صنهاجة بالطاعة والاهياد  
١٠ لملكه . وسمع بخبره زاوى ، وهو في طريقه على مقربة من غرناطة ؛  
وندم على ما كان منه . ولامه ولده على ذلك .

ويذكر أنه ، لما وصل إلى القيروان ، وأحسَّ بذهبه بعضُ وزراء المميزِ  
نكروه وخافوا دواخلة عليهم ، وأن يكدر ما صفا . ورأوا أن ولاية المميزِ  
على طفوليته ، وعيشهم معه ، وتحكمهم عليه ، أخفُّ عليهم من تولية داهية  
١٥ مثل زاوى ، لا يملكون معه من قَطِيرِ . فدسَّ إليه من سقاء السمِّ . ومات  
بتلك البلاد .

### ١٣ - إمارة حَبُوسِ بنِ مَآكِسِنَ

وصفاً الأمرُ لحَبُوسِ بنِ مَآكِسِنَ ، وسار بأجمل سيرة وأعدل طريقة .  
وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفّف عن كلِّ شيء ؛ وجمّدت

(١) أصل : « يدخلون » . (٢) أصل : « يسلمون » . (٣) أصل : « سيرهم » .

(٤) أصل : « وتلقوه » .

يَدُهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحَبَّهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ  
الْفِسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقْرَبِيهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .  
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيْقُ بِهِ  
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا فَائِدَةٌ  
تَقِيدُونِي بِهَا تُتَفَقَّعُ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَمْحِفَةٌ غَيْرِ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى  
دَعَوْتُ \* أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصَّرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجْوَدَ خَبْرَةً ، (١١) (١)  
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَاللَّحْظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى اللَّحِقَةِ ، وَزَادَ  
الْجَيْشُ فِي أَيَّامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ  
الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشَّجْعَانِ .

وكان بنو عمِّه كلُّ إنسانٍ منهم سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ  
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،  
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِذَا لِيَجْتَمِعُوا مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ  
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْصَانًا مِنْهُ ، كَتَى لَا يَحْصِلُ عَلَيْهِمْ  
مَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذَلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا  
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صِنَّاهُجَةٌ عِنْدِي مِثْلَ  
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ  
لَهُ بِهِمُ الصَّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطِطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى  
تَرَكَهَ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ  
مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ مُجَدِّثَهُ نَفْسَهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

## ١٤ - المؤامرات التي دُبِّرت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُبَّاسة .

## موت حُبَّوس

وكان لِحُبَّوس بن ماكْسَن - رحمه الله - ابنُ أخٍ يُعرَفُ يَدَيَّر  
 ٥ ابن حُبَّاسة . وكان عنده آثَر من وِلْدِه ، لِذِي كان يَرى من نِباَهتِه ،  
 وإِقْبالِه على قِراءة الكُتُب ومُجالِسة الفُقهاء ؛ وهو الذى كان يلقى به  
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمَّات . وكان بارًّا بِحُبَّوس وبجميع أهل المملِكة .  
 وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حُبَّوس المعروف بأبى العباس ، لِيَا يَرى  
 من تواضِعِه وحُسْنِ مُشارِكته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ  
 ١٠ كَبيرٌ عند\* صِنهاجِه حتى آثَرُوهُ على غيرِه .

(ب) ١١

وكان بِادِيس بن حُبَّوس جَدُّنا - رحمه الله - كَبير النفس ، عالى الهِمَّة ،  
 حادًّا لِلزِجاج ، لا يَسْتَطيع أَحَدٌ [ أن ] يَمخُرق عليه فى أمرٍ من الأمور ، ولا يَنكسر  
 لِأَحَدٍ من بنى عَمِّه ، رِقَّةً منه بِسعادته ؛ وإنَّ الانخِضاع والتَمريض فى القول  
 لا يَعتِنِيه ذلك ولا يَزِيد فى أَيامِه . وكان ذلك كُلُّه منه فى حِزمٍ ورَوِيَّةٍ ،  
 ١٥ لا يفسد جانبًا حتى يَصلح آخَرَ ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أَنفُسُ  
 البعض منه ، وأُشْرِبوا هَيْبته ومخافته ، وتوقَّعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن  
 يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أيه . فأضمر أكَثَرُهم لهُ الغوائل ، وآثَرُوا  
 عليه يَدَيَّر المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كلُّ ذلك لِشَقائِهِم وتَمام أَيامِ سعادتهم !  
 وَتَمَيَّعتُ الْمُظفَّرَ بِادِيس - رحمه الله - يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه



ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنهاجة من قال له : « إنَّ من آكِدٍ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرك مَنْ يَخلفك مَعن تَرْجِي بَرَكَتَهُ للمسلمين ولبنى عَمَّك ! فَإِنَّ الموت يندو ويروح ! » قال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إِلَّا يَدَّير ، لطهارته ، وعفافه ، ومحبَّته في الناس ! » وكان في الجُمَّلة من شيوخهم صديقٌ لى اسمه فِرْقَان ، قد اصطنَعْتُهُ واستمَلْتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلم بهذا كيف يُقدِّم للأمر غيرُ ابنه ، وهو مستطعٌ بجميع الأمور ؛ وقولك أنتَ وقولُ غيرك باطلٌ أكثَرُ ، والله ، أرى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيرَ سيتحاطقُ على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني \* كلامه ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثمَّ إِنَّه اطَّبع من وجوه صِنهاجة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهده على حلِّ تلك الصَّفقة ، إلى أن كلَّموا أباه في تَوَلَّيته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . وزجر يَدَّير في ملائ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخاطبه بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّير عداوةٌ مجدَّدة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِه وإجماع الجماعات عليه ، وشئت أقواماً من صِنهاجة ، حتى صاروا معه . ووَالَى بُلَغَيْن شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أنه لم يكن له معرفةٌ بسياسة الملوك . ولما رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلغَيْن وسعَّيه له في ظاهر الأمر ، لامه على

ذلك ، وقال له : « إن كنت لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى<sup>(١)</sup> ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذي هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعيُّ بلقين إشاراً مني له على نفسي ، غيرَ أنه صحيحُ النية ، غيرُ حاذقٍ بمكايدِ الملكة ؛ وهو شقيقُ الذي أُطلبُ ، ولن أُجدَ لطلبه أقدراً على ضرره من أخيه ! فإنما أنا أصيدُ به ! فلو اتسقت لي الأمور ، وتهياً قتلُ باديس على يدي أخيه ، كان أمرُ بلقين من بعده هيناً ، وخطئه مكنياً ! »

فكان أبداً يحضه على قتل أخيه ، ويريه السعى له . وكان الأخُ في ذلك متشبباً في أمره مشفقاً على أخيه ، إلى أن توفي حَبُوس بن ماكنس - رحمه الله .

(١) أصل : « نروا » .

## الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

( ١ ) من أوليتها إلى موت ابن نغالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس  
وتعاضم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول  
أموراً كباراً ، وشقي\* مع كل أمة : صحتها يطلبون مكانه مع يدبير ، ١٢ (بنا)  
وسلاطين الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو في ذلك كله حسن السياسة ، صبور  
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدي أبي العباس كاتب حبوس .  
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك بينين ، أقام حبوس — رحمه الله —  
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان في الابن صبوة لا يرتبط  
معا إلى خدمة الرياسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،  
وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛  
فيقول ، محتدراً في الظاهر ومطالباً له في لحن القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِّرُ الراحة ؛ وأنتَ جديرٌ بالإغضاءِ عليه وإقامةِ  
عنده . وأنا عبْدُه ، أنوبُ منابه ؛ فمررتُ بما شئتُ : يهيباً ذلك ! «  
فلم يزل على هذا أبداً حتى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعيه في  
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السَّعيَ  
له والتخدُّمَ لإرادته ما دَامَ أمكنته ذلك ، في وقت المناوِين له والقائمين  
عليه ، للذي قدَّر من أيتامه معه .

١٠ فلما اتَّفَقَ أعداؤه مع يدبِّرِ عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،  
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يدبِّرِ ، وعَدَمَ على الاجتماع  
عنده . وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال

له : « ليس الخبر كالبيان ! اسمع بأذنك وعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع  
على البيت الذي يرومون فيه عملهم ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كله يقول عند  
محاورتهم كالمخاطب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك

١٥ باديس جدنا الذي يَرَاهم ولا يَرَوْنَه . فشكر ذلك باديس\* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)  
وأيقن بثقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوره في أكثر  
رأيه مع بني عمه .

٢٠ وكان في اليهوديِّ من الكيس والمداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي  
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيعاشاً من غيره ، ولما  
كان يَرَى من طلبِ بني عمه له ، ولأنَّ هذا يهوديٌّ ذمِّيٌّ ، لا تشره  
نفسه إلى ولاية ، ولا هو أندلسيٌّ ، فيتَّقِي منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه  
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطبِّي بها بني عمه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك  
 معها الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ في حَقِّ ولا باطِلٍ ، ولأنَّ  
 الرعايا أَكْثَرُهُمْ بتلك البلدة ، والأعمال إِنَّمَا كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبي منهم  
 الأموال ويعطيه ؛ فيلقى ظلماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [ يملأُ به ]  
 بيت للال ؛ وإقامة أود الملكة أَوْلَى به منهم .

### ١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدَيْرُ بن حُبَّاسة

ضدَّ باديس

فلما ولي باديس ، كَثُرَ عليه الخِلافُ والهِرَجُ ، واتفق رأيهم على  
 ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدَيْرٍ . وأعطى على ذلك أقواماً المتأقيل والصكوك  
 ١٠ بالإنزالات القوية .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرملة ، ويلبثها مُنِيَّةً  
 كان يحكم بها حُبُوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [ فاتفقوا ] على أن يقيموا  
 المَلْعَبَ ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنِيَّةِ ، وهم قد تسلحوا بالدرع  
 من تحت الثياب ، عازمين على الشرِّ .

١٥ وكان ممن ارتشى على ذلك شيخٌ من صِنهاجة يُعرَفُ بِفِرْقَانِ ،  
 أُعْطِيَ خمسمائة متقال وصكاً بقريةٍ قُولَجَرٍ من عَمَلِ السُّطْحِ . فقال في  
 نفسه : « لم أجدُ فُرْصَةً نحظى بها عند باديس أَمَكَنَ\* من هذه ا » ٣  
 فجعل أنَّ القَرَسَ زادَ به في جَرِيدِهِ ، كأنه جمع ، حتى دخل المُنِيَّةَ ،  
 وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختلساً : « انجُ بنفسك  
 ٢٠ وأخرج من الباب الآخر ا فإنَّ المَلَأَ يَأْترون بك ليقتلوك ا » وأراه الدنانيرَ

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يجث في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُم على ذلك ، إِذَا بَعْلِيَّ بْنَ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَرَاءِ بَادِيسِ وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ قَالُوا لَمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبْرٌ مُقْلِقٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعْنَدُوهُ فِي تَخْلُفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكَلُّوا مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبْرٌ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَدْيِيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمُهْجِهِمْ .

ثُمَّ انْتَضَحَتِ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبَادِيسٍ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَوَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ كَثِيرٌ مِمَّنْ بَغَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْتَيْنُ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوَ عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَرُومُ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنَّ يَدْيِيرَ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ انْتَدَبَ إِلَى فِتْنَةٍ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَعْنَاقِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُرِيهِمُ الْعَمَادِيعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِبَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَّرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكِ بِلَادِهِ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرَأُ بِهِ قَرَارًا .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ بِيَدِ السُّلْطَانِ بَادِيسٍ — رَحِمَهُ اللَّهُ — كُتِبَ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةَ إِلَى يَدْيِيرَ ، تَضَمَّنَتْ أَرْزِيدَ مِنْ

٢٠ مَائِي رَجُلٍ\* مِنَ الْأَكْبَارِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهَمَّ بِقَتْلِهِمْ . وَشَاوَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ (١) فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنارٍ تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأسُ العقل مُداراةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [ أن ] تُعاقب ، وهمُ أجنادك وأجنحتك ! فاحتلّ للأمر بغير هذا الوجه ! « فقبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابنَ بأبيه والأخَ بأخيه .

فكان دأبُ يدبّر هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافه . وذُكر أنه مات مقروعا حنفاً أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجؤ .

### ١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المريّة

١٠ وأولُ فتحِ أفاء الله عليه هزيمته زهيرَ الخصيِّ والي المريّة . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولد عبّاس ، من أشدّ الناس حماقةً واستخفافاً ، مثيراً للشرِّ ، مؤرّشاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشيءٍ لعباوته وجهله . وكان قد جمع كلَّ خصيِّ بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لياً بلغه من موت حبّوس بن ماكسن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالفونت ، محتقراً لمن وليّ غرناطة ، يزعم أنهم أصاغرُ وأمرهم مختلٌّ بعد حبّوس ، لياً أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيّيه الحصيان .

٢٠ وكان جدُّنا باديس - رحمه الله - قد رأى عند ذلك رؤياً أن الحوَرَّ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهالهُ ذلك ، وخشى أن تكون الواقعة عليه ؛ فأرسل في المُعبّر وقصَّ عليه . فقال له المُعبّر : « أبشّرْ بهنّه

الرُّؤْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، النَّيِّ \* لَا طَمَمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكُ ١٤ (ب)  
عليه ؛ وَهُمْ بِهِنَا الْمَرْتَبَةُ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبِوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ ! «  
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ  
٥ باديس ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَّهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى  
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاصِ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَلِكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ لِلرُّذُولِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ  
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،  
وَنَحَى زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجِدْ حَيًّا وَلَا مَيْتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ  
سَعَادَةِ بَادِيسَ ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَسَحَ  
١٠ الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرْيَةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرٍ ،  
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَأَوَّلًا لِإِنَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَتَمَّ عَلَيْهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ  
أَقْوَابِلِ خَشْنَةِ وَمُعَامَلَاتِ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ بَادِيسَ جِدًّا نَا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ  
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ .

١٥ ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى مَاتَ  
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سَنُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِدَاثَةِ ، وَهُوَ أَبُو نَا .  
وَتَرَكَ عَمَّهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يِنَاوُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ  
مِنَ الْمُطَالِبَاتِ بِتِلْكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبِلَادِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَ أَبِيهِ ،  
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .



## ١٨ - شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدنا غير بُلقين أينا - رحمهم الله - . وكان رفيقاً به ، مشفقاً عليه ، حذراً من أعدائه وبنى عمه أن يبلغوه من بعده بما بُولغ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخله ولا نفاقاً إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إجمالٍ أو نفيٍ أو أخذٍ مالٍ ، لئلا يبقى لابنه من يناوئه ويُدِّله .

وكان سيف الدولة حليماً\* رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنه لم يجربْ ١٥ من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجليل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقةَ أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذي يعنى بأمره ، وينشفح فيه عند الأب ، حتى يتخلصه . ١٠ فأجمع الناس على محبته خاصةً وعمامةً للذي يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وبسطِ يده على الأموال .

## ١٩ - نشاط يوسف بن نغالة اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وزيران ابنا القروي : أحدهما علي ، والآخر ١٥ عبد الله ، ممن نشأ معه ؛ وكانا حضيريه في المكتب ؛ وكانا قائدي العسكر ؛ واليهما كان يرجع الرأي في أمور الفتن<sup>(١)</sup> . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤذناً لهما ، مستعيناً بهما .

(١) أصل : « الفتن » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنة وزير جدنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاه بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حثف كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستشارهم بالجبايات. فجل الخنزير نفسه لذلك. وكان المظفر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةً لمسلم، ولا عرضه لذلك، غير أنه كان يتلطف بالأموال، ويعطى لثقاته وعبيده ما يجعلهم في المطالبة على هواه، وهو ساكت، لا يتكلم بشيء مثل أن يدس في طلب أحدٍ على يدي موق الخصى صاحب المدينة من ثقات باديس؛ وكان متصباً لهذه المشايخ؛ فيأتي موق المذكور بنصيحة إلى السلطان ممن يزعم أنه من أهل الشر؛ فيُرسل في اليهودي ويُقال له: «بلغني أمرٌ كذا وكذا.» فيريه اليهودي التبرؤ<sup>(١)</sup> من ذلك بأن يقول له: «كل ما نُقل إليك كذب؛ فثبت<sup>(١)</sup> ا» فيقول له الرئيس: ١٥ (ب) «أخبرني من لا شك عندي في نصيحته ا» فكان آخر ما يقول له: «ما قطع الشر إلا سياسة ا» وكان لمباهاته ومخترته، يرى الناس أنه يقدر؛ ولم يكن ذلك منه، إلا عن تحيل ومكر.
- ١٥ فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنة في سن الصبا، كره توليته جدنا، وقال لعل المذكور: «الزيم خدمة الملكة؛ فأنت أحق بها ا» فأبى ذلك على. واطبأه ولد أبي إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أَرغبُ إلا أن أكون عبدك وتربيتك؛ ولك الأمر؛ وأنا كاتب بين يديك، وأقوم بنفقتك كلها، ولو كان أهلك عدد الخصى ا» فطمع على في قوله، وكلم السلطان في ذلك، وقال له: ٢٠ «إن أبقيت على ولد

(١) أصل: «التبرؤ».

أبي إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لوأدى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقدمه على العَمَّال والجبايات . وكان يعطى لعلِّي صدراً من دولته إلى أن كَبِرَتْ سنُّهُ .

وأظهر [ ولد أبي إبراهيم ] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حَظِيَ بها عنده ؛ وَتَبَرَّتْكَ على عليّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَلْ به عن عليّ ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إنَّ الذي يأخذ عليّ أَنْتَ أوَّلَى به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والصفف ، ويذهب مالك إن لم تُحْمِنِي وتمضني . وهو متى تملأ ، طَمِعَ في مُلْكِكَ ! وأنا رجلٌ ذَمِيٌّ لا هَمَّةَ لي إلاَّ خِدْمَتِكَ وجمَع الدرام لبيت مالك ! » فوثق الرئيس بقوله ، وقاس عليه بقله ، ومنع منه علياً وجميع الناس . ولما رأى عليٌّ تأخُّرَهُ وتقدُّم اليهوديِّ ، ندم على ما كان منه أوَّلًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغاظه ذلك وأكْرَبَهُ .

- وكانت مَدِينَةُ وادِي آش\* بِيَدِهِ ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١٦) (١) يأكلها طعمَةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِمٍ ، وهي تُساوِي أزيد من مائة ألف دينار تُلْثِيَّة . فدخل عليه اليهوديُّ بهذه المطالبة وقال للسلطان : « اقبض وادي آش من عنده ، ولك منِّي فيها أزيد من مائة ألف ا » فقال له : « لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاسدةً ، وهم متصرفون في خِدْمَتِهَا . فوجد اليهوديُّ السبيلَ إلى حيلة في نزعها باسم سيف الدولة أينا ، وقال : « لآخُذَنَّ البلية من يد عدوِّ ، فأضعُها في يد سلطان يشكرني عليها ، ويرى لي ذلك عن تخدُّم ونصيحة ! » فقال لأبي : « إنه يلزمني طاعتك ونصيحتك لأكون لك كالذي أنا لأبيك ؛

وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّةِ ، تَلْزَمُكَ نَفَقَاتُ وَتَجْمَلُ الرِّيَاسَةَ ؛ وَمِنَ النَّهْنِ أَنْ يَكُونَ  
 وَزْرَاهُ وَالِدِكَ أَغْنَى مِنْكَ ! وَهَذِهِ وَادِي آشَ ، بِنْتُ غِرْنَاطَةَ ، لَا تَجْمَلُ إِلَّا لَكَ ،  
 وَأَنَا أُنَمِّرُهَا وَأَجْعَلُكَ تَأْخُذُ فِيهَا مِائَةَ أَلْفٍ ! « فَفَرِحَ لِقَوْلِهِ وَالِدِي — رَحِمَهُ  
 اللَّهُ — ، وَشَكَرَ لَهُ رَأْيَهُ ، وَوَعَدَهُ بِالزِّيَادَةِ فِي مَرْتَبَتِهِ إِنْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ .  
 ٥ نَمَّ مَضَى إِلَى الْوَالِدِ ؛ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ أَمْرَ ابْنِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ  
 الْمُظَفَّرُ : « الْآنَ وَجِبَ أَخْذُهَا مِنْ أَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ . » فَأَرْسَلَ عَلَى الْقَامِ فِي  
 عَلِيٍّ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ ابْنِي مَحْتَجٌّ إِلَى الْمَالِ ، وَطَلِبُ مَنِيَّ وَادِي آشَ . وَلَوْ كُنْتُ  
 آخِذًا مِنْكَ وَمُعْطِيًا لِقَرْنِكَ ، لَعَزَّ عَلَيْكَ ! وَلَكِنْ يَجِبُ لَكَ أَنْ تَتَسَرَّعَ  
 بِهَا لِابْنِي . » فَلَمْ يَكُنْ جَوَابَ عَلِيٍّ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُ : « مَا صَلُحَ لِلْمَوْتَى عَلَى  
 الْعَبْدِ حَرَامٌ ! » فَضَمَّهَا الْيَهُودِيُّ خَادِمًا لِأَبِي فِيهَا ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ  
 ١٠ رَسْمَهَا فِي أَنْجُمِ الْعَامِ ؛ وَاتَّفَقَا عَلَى ذَلِكَ \* . وَصَارَتْ الْمَوَدَّةُ مَتَمَكِّنَةً بَيْنَ الْإِبْنِ ١٦ (ب)  
 وَالْوَزِيرِ مُدَّةً طَوِيلَةً .

## ٢٠ — مَوْتُ الْأَمِيرِ بُلُقَيْنٍ مَسْمُومًا

فَلَمَّا رَأَى وَزْرَاءُ الدَّوْلَةِ وَعَلِيٌّ وَأَخُوهُ تَمَكَّنَ الْيَهُودِيُّ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَعِنْدَ  
 ١٥ الْإِبْنِ ، أَغْظَاهُمْ ذَلِكَ وَأَقْلَقَهُمْ ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ كُلٌّ مَبْلَغًا . وَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى  
 الدَّخُولِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَيْبِنَا . وَكَانَ أَوْلَادُ عَلِيٍّ وَعَبْدُ اللَّهِ وَزَرَءُ لَسَيْفِ الدَّوْلَةِ  
 وَتُدْمَاءُ ، لَا يُفَارِقُونَهُ . فَصَلُّوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَعَ بَنِيهِمْ ،  
 وَقَالُوا لَسَيْفِ الدَّوْلَةِ : « إِنْ الْأَمْوَالُ الَّتِي يَنْفَعُ الْيَهُودِيَّ وَيَسْتَأْثِرُ بِهَا ، أَنْتَ  
 أَحَقُّ بِهَا وَأَوْلَى . وَقَدْ أَخْلَكَ وَأَخْلَ الدَّوْلَةَ أَجْمَعُ ! وَلَوْ أَنَّكَ قَتَلْتَهُ ، لَمْ يَقُلْ  
 ٢٠ لَكَ أَبُوكَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ! وَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعُ بِابْنِهِ ؟ » أَرَادُوا — الْفَسَقَةَ —

- قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَى ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ،  
عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مِلَامَةِ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ  
يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْضُونَ<sup>(١)</sup> إِلَى  
الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أَبُوْنَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ  
الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تِجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمَكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛  
وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَنْشَى سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِعِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَعِزُّمُ  
عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ  
رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عِيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُوْنَا ، لَمَّا هَمَّ  
بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَيْدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .
- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ مَا كَسَنَ ، عُثِمَا الشَّهِيدُ فِي وَقِيعَةِ  
بَطْلَيْوَسَ . فَعَمِلَ الْخَنَزِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، \* وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١١٧  
الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَاهُمُ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ  
الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انظُرْ لِنَفْسِكَ فِيمَنْ تُقِيمُ إِنْ مَاتَ  
رَبِّيسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيِيلٌ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنَ أَخُوهُ  
١٥ مَخْمُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا ! »  
فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَعْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ  
الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ  
يُخْرَجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ  
الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ —  
٢٠ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

(١) أصل : « ويمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ فِي سَيْفِ  
الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وَقُلْ لهنَّ<sup>(١)</sup> إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ  
اليهوديِّ . » يقول الخَصِيُّ : « قَتَلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَمْضِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةَ !  
فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ  
تُسَمِّيَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلِمْتُ أَنَّ حَالَهُ تَوَوَّلُ إِلَى  
مثل ذلك . »

ومما أظن على الفساد قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا كَانَ مَعَ أُمَّهَاتِهِ ، اللَّائِي  
رَبَّيْنَهُ وَوَلَدَهُ الْمِعْرَةَ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ الْمَالَ عَلَى ابْنِهِ  
طِفْلاً صَغِيراً وَمَنْعِهِ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتِاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالِ . وَكَانَ أُمَّهَاتُهُ  
يُطَالِبْنَهُ وَيَمْنَعْنَهُ عَنِ حَبَّةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى  
مُطَالِبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجْرِيْمِهِنَّ بِسَرَقَةِ الْمَالِ وَإِرسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا  
وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدِ وَقَعَتِ الْمَفَاسِدَةُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنَيْهِنَّ ، صَارَ  
مَكُومًا\* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحْيِيلُ النِّسَاءِ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ<sup>(٢)</sup> أَنْفُسَهُنَّ مِمَّا قَدْ فَنَ ١٧ (ب)  
بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَّصَلَ مَعَ النِّسَاءِ لِرُجُوعِ أَبِيهِ  
مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً  
وَنُفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِتَمَامِ الْمُدَّةِ .

وكان في أوَّلِ المفاصلة قد احتبس له بكثيرٍ من جباية وادي آش ؛  
وشكا به سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحْيِيلُ الْخَنْزِيرِ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَانَا إِلَى مَنْزَلِهِ  
لشْرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِمُخْرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحَزَنِ . فَهَالَ  
ذَلِكَ أَبَانَا لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَاثِمِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « لم » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدٌ ؟ » فقال له : « مات عندي مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمَطْلٍ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فأنسَ أهلِي بكتّابِ براءةٍ تبرّئني بها إلى أن يردك مالك ؛ فإنهم قد وجست نفوسهم وفرغوا . فأتممت إحسانك بكتّابِ البراءة ! » فافترحه فيها ، وكتبها ؛ ثم ذهب بها إلى أبيه وقال له : « إنّما ينفق ماله على الوزراء والشراب المذمّن ! وهذا إيراؤه لي : فأين شكواه ؟ » فرجع ملوماً من الأب زانداً ، وصار في خسارة مع الوزير والنساء ، لِمَا أراد اللهُ من تمام المدة . والله يتفعه بحمّيل نبيته وصفاه مذهبه للخاصّة والعامة !

### ٢١ - ما بلغ ابن نعرّالة من المكان الأرفع

- ١٠ فلما توفّي أبونا ، وكانت من أكبر الرزايا للناس ، لِمَا كانوا يرجونه من العدل على يديه ، هاج الناسُ بأمره ، وهموا بقتل اليهودي . وكانت تلك مقدماتٌ لهلاكه ، غير أنهم كانوا يتوقعون معاقبة الرئيس . وزاد في طلبه لأولاد القروي ، وصور عند المظفر أن بنيه زينوا لابنه الإيمان على الخمر حتى هلك . وأدركت لذلك أولاد القروي منحةً عظيمةً من نفيهم عن أوطانهم ، وأخذ أموالهم ، وقتل بعض الوزراء\* الذين كانوا (١٨) حوّالاً أينا لِمَا اتهموا به ؛ وجاني القضية لا يوبه له . وتبرّمك اليهودي بعد سيف الدولة ، وسعى في إقامة ما كسّن عنّا .
- وكبرت عند ذلك سنٌ جدنا ، وأخلد إلى الراحة ، وزهد في طلب البلاد لكبر سنّه وموت ابنه ، وألقى بمقاليدِهِ إلى اليهودي في الخدمة عنه ؛
- ٢٠ فمكّن بما شاء من الأمر والنهي .

## ٢٢ - امتيلاء باديس على مالقة

وإنما كان طلبُ جدِّنا أكثره وسعَّيه على أخذ مالقة ؛ فإنه ، متى كان يأخذ شيئاً من معاقل الأندلس ، يبلغه من المعزِّ بن باديس أنه يقول : « يخاطبني صاحبُ غرناطة بأخذ الكور والقري ! أما أنه لو أخذ مثل قرطبة ومالقة وما أشبههما من القواعد ، كُنَّا نبايع له في ذلك ! » فجعله كلامه يحدُّ في خبر مالقة ، ولذی كان يرى من اندبار سلاطينها ، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدة من يدخل عليه اللخطة منها . فلم يزل يماودها سنين<sup>(١)</sup> بلا سامة ولا فترة ، حتى حصل عليها .

وَبني قصبتها بنياناً لم يقدر على مثله أحدٌ في زمانه ، وأعدَّها عُدَّةً للمهمات ، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذي يتوقَّع من كلب سلاطين الأندلس واتفاقهم عليه لذلك أن يتحصَّن فيها ما استطاع ، وإلا ، فيجوز منها إلى حدوة بني عمه بأهله وذخائره ومُدَّ أخذها ، حلَّ عن نفسه .

ونازعه عليها ابنُ عبَّاد ، وأطاعه أهلها دون القصبية ؛ فوجه إليها عساكره ، وهزمه عايبها . ورجعت إليه بعد اليأس منها . ولم يُلاقِ سلطانُ على مدينة مالقة هو على مالقة من طول الفتن ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الغاية من آماله ، حلَّ على نفسه ، وتمتَّع بملكه . ومن ذلك دخلت عليه الدواخلُ باستنابته إلى الوزراء وولاية البلاد ، على حسب ما تقصَّه بعد هذا .

(١) أصل : « سنيناً » .



ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دَوْلَتَنَا خَاصَّةً ، لَدَكَرْنَا لَمَعًا مِنْ دَوْلِ بَنِي  
 كَثُودٍ فِي مَالِقَةَ ، وَاخْتِلَالِ أَمْرِهِ\* وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى تَصِيرَ الْأَمْرُ إِلَى جَدِّنَا ١٨ (ب)  
 — رَحِمَهُ اللَّهُ — ؛ لَكِنْ تَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَى إِرَادِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .  
 قَهْدَنْتُ الْحَالِ ، وَتَأْتَتِ السَّعَادَاتُ ، وَامْتَلَأَتْ بِيُوتُ الْأَمْوَالِ سِنِينَ<sup>(١)</sup>  
 ٥ لَا يُسْمَعُ فِيهَا يَفْتِنَةٌ ، وَلَا يُرَى مَعَهَا تَشْيِيبٌ ، إِلَى أَنْ اخْتَلَّتِ الْأَحْوَالُ  
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ نِفَاقِ الْيَهُودِيِّ — لَعْنَهُ اللَّهُ — ، وَتَضْيِيرِ وَادِي آشٍ  
 وَجَمِيعِ أَنْظَارِهَا لِابْنِ صُمَادِحِ ، وَاسْتِنْسَادِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْبِلَادِ ، حَتَّى إِتَمَّ  
 لَمْ يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غَرْنَاطَةَ وَالْمَنْكَبِ وَبَاغُهُ وَقَبْرَةُ . وَلَا شَاعَ عِنْدَ  
 الرِّعَايَا خَبَرَ مَوْتِ الرَّيْسِ الْأَجَلِ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ الْمَعَاقِلُ  
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وَافْتَرَضَتْهَا الرِّعَايَا بِأَسْبَابٍ تَحْنُ نَذْرُهَا<sup>(٢)</sup> إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا .

### ٢٣ — عِلَاقَاتُ بَادِيسِ بِنِي صُمَادِحِ أَصْحَابِ الْمَرْيَةِ

وَالْأَوَّلَى أَنْ تَقَدَّمَ وَصَفَ وَلايَةَ ابْنِ صُمَادِحِ لِلْمَرْيَةِ ، وَعَضَدَ جَدِّنَا —  
 رَحِمَهُ اللَّهُ — لِرِيَاسَتِهِ ، وَإِثْبَاتِهِ لَهُ فِي مُلْكِهِ عِنْدَ قِيَامِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ،  
 طَالِبًا لَهُ خِلَافَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ مِنَ الْمُظْفَرِّ قَبْلَهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ  
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنَسِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَكَافَأَتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ افْتَرَصَ بِلَادَهُ  
 وَقَبِيلَ دَوَاخِلِ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، يَعِدُّهُمْ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا  
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتِ الْكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِالرُّجُوعِ  
 عَنْ لُرُقَةِ يُرِيدُ الْمَرْيَةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَيَّنَ لِلنَّصُورِ قَعُودَهُ عَنْهُ  
 وَخِذْلَانَتَهُ إِتْيَانَهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ وَلِأَعْلَامِ قَوْمِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرْمَا » .

(١) أصل : « سِنِينَا » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّ ، ولا جرّبتُم حروبهم ، فأنا ،  
 والله ، علمٌ بها أفياً كم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ ستعلمون ]  
 أنّ فتنة عشرين سنة خيرٌ من مِلافة ساعة واحدة ؛ فإنّ فيها تلف  
 الدّول ، وينقل الملك ، ويستأصل الجمع . فعليكم بالتأني ! » قال له ابن  
 أبي عامر : « جُبنت ! ارجع إلى دانية ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع  
 على اللقاع مفضباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مجاهدٍ عنهم ؛ وأدرك\* الإفرنج الطمع ، وطلبوا ١٩ (١)  
 منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترون هزيمة هذا التسكر  
 ١٠ من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، متشرّ الملوك ، لم  
 تُعطوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجَلّ  
 وأنفس من عقول الناس ؛ وبذلك فضلتُم من دونكم ! » ورجع المظفرُ  
 غالباً منصوراً . وصار أبو الأحوص [ بن صمّادح ] طاعة له ؛ لا يروم شيئاً  
 من كلِّ ما بالمرية إلا وصر إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلا وكان ملكاً  
 ١٥ يديته . وبقى الأمرُ على ذلك سنين .

وكانت قرطبة في ذلك الزمان بمنزلة المرية ، إذ كان فيها ابنُ السّقاء ،  
 لا يمتنع على المظفر من رغباته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأحوص ،  
 وترك ابنه هذا التوفّي بالمرية — رحمه الله — عند ظهور المرابطين عليها ،  
 وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في  
 ٢٠ العُضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسن طاعة وأشدّ اهتداءً  
 من أيّيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدّه بالذّب عنه على أتمّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .  
وجدد معه عهداً . وثبتت رياسته ، وقرّر حاله قراره ، وداناً على ذلك  
دَهراً طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشييباً .

- وكان في ذلك [ الوقت ] خدامٌ دَوَلتَا مُتَّفِقِينَ مع اليهوديِّ ، إذ  
 ٥ كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرّه : فمنهم صنيعةٌ له قد استغنى معه ،  
 ومنهم عدوٌّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهر استدفاعاً لشرّه . فَاسْتَقَتِ الأمور بذلك ،  
 وأعان بعضهم بمضاً على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى تقته بهم وعَضِدِ  
 بعضهم لبعض . ولما تهيأت له الأمور ، وتوطدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا  
 من تلك العَيْنِ (١) وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المسابدة والياس\* ١٩ .  
 ١٠ منها ، حلّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،  
 وفوض أمره إلى الوزير والخدّمة .

## ٢٤ - وصول النّاية إلى غرناطة .

### حظوته ومناقسته لليهوديِّ

- وفي أمكن ما كانت الدولة وأبهجها ، قصده النّاية ، عبدٌ كان للمعتضد  
 ١٥ ابن عبّاد - رحمه الله - ؛ وكان من جملة من اتفق على غلده مع ابنه  
 المشهور خبره ؛ فأبى القدر الذي لم يكن عنه محيصٌ . واعتنى به جماعةٌ  
 من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العطايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تقمناً  
 لسروم<sup>(٢)</sup> ، كجى يزيدوا في خدمته ونصيحتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصَدَكَ هذا  
 الإنسان عن مفاسدةٍ لغيرك وتمويلٍ عليك ؛ وقد أملاك ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العيون » . (٢) أصل : « لسارم » .

إِنَّمَا تُسَدِّدُهُ إِلَيْنَا . « ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وأشغبه على الدولة .  
وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَة بأجل سيرة وتواضع لهم ، حتى حددوا  
طريقته ، ونعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله في بعض خِدْمَتِهِ وصرَّفه في  
ولاية بعض عسكره . وكان لطلبه النار من بني عَبَّاد ، قد اكتفى في فِئْتِه  
مَالِقَة واستمال أقواماً من الجند ؛ وكان فيها مُتَصَرِّفاً بين يدي مُقَاتِلِ بْنِ  
يحيى قائدها . ولم يزل مُقَاتِلُ المذكور ، متى خَرَجَتْ مُعِيرَةٌ إلى بَلَدِ ابْنِ  
عَبَّاد ، يُعَلِّمُ المُظَفَّرَ بكفاية الناية للذکور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسن  
كله ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركاً بينهما ، وصار قائداً معه في  
البلدة . وزاد جِدُّه ، ونما خَبْرُهُ ، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّرِ إليه . وكان ،  
١٠ متى ما أتى مَالِقَة ، نزل السلطان في داره ، وشرب معه ، مع تنويبه به  
والتزيُّد له من ذلك مع الأيام .

وكان ، مع تقرب السلطان له متى انفرَدَ به أو افتَرَصَه على الخمر ،  
يُجْرَحُ عنده اليهودي ، ويقول له : « قد أَكَلَ مالِك ، وتملك بأعظم  
من مالِك ، وبَنَى خَيْراً من قَصْرِكَ ا فَاثَهُ اللهُ في إِزَاحَتِهِ والتَّجُوبِ إلى  
١٥ المسلمين بِقَدْرِهِ ! » والمُظَفَّرُ في هذا كَلِمَةٌ يَعْنِيهِ ويقول له : « لا بُدَّ لي

من ذلك ؛ وَأَوْكَلْتُكَ \* على قَتْلِهِ ! » فَرُبَّمَا لَفِظَ بِذَلِكَ بِمَسْمَعٍ من لا يُؤَبِّهَ (٢٠) (١)  
له من عبيده والمُتَصَرِّفِينَ بين يديه ؛ فينتقلون ذلك على المقام إلى اليهودي  
ليصلهم عليها . فلا تزداد نفسُ الخنزير إلا حَمَاقَةً ومُنَافَرَةً ، ويكاد أن  
يموت هماً وحنقاً ، مع حسده له على اللزلة التي حُصِّصَ بها دونه ؛ ورام  
٢٠ مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أن منزلته  
لا تزداد إلا ترفيعاً ، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهِ وَقَالَ : « إِنَّمَا اسْتَهْزَأُواَنَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ  
السلطان ! وَأَمِنَّاكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِجَمَاعَتِهِ وَعِنَايَتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ  
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمُنُهُ <sup>(١)</sup> ، وَقَرِينُ سُوءِ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةُ تَرِيدُ  
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

### ٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [ اليهوديُّ ] قد أتى يَدَهُ فِي عَمْنَا مَاكْسِنَ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ  
يُسَدِّدَهُ وَيَأْمُرَهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا  
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَاكْسِنُ مَعَ هَذَا كُفَّةً  
سَيِّئَةِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَبْدُو النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى  
كْرَهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .  
وَكَانَتْ أُمَّهُ تَتْرُكُ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَتَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :  
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرَّيِّحِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَائِمًا بِالْوَجِيئَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ  
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلْفِ . فَخَارَ الْوَزِيرُ لِذَلِكَ ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ  
وَطَلَبِ أُمَّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ  
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَوْلَةِ ، فَمَنْ نَعَمُوا عَلَى مَاكْسِنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا  
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَهُ الْأَنْفَةَ مِنْ مَكْرُوهِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ  
بِقَتْلِ أُمَّهِ وَدَائِيَتِهِ وَبَعْضِ مَنْ انْتَمَى . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا\* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)  
عَلَى الشَّرَابِ بِخِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمُنُهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لثلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتل كل يوم يهوديا ، فيغرم عليه مالا .
- ثم أمر بعد ذلك بنفى ولده . وكان من آكد الأسباب في نفيه أن خرج السلطان يوما لعرض الأجناد ، وقت الفتنه مع ابن صراح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تقدم علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أرسله معنا ، وتبعه في كل ميلة ! » يعني ما كسن . فعز ذلك على أبيه ، مع سخطه عليه لما كان يرى منه وقيل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فلأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجزع اليهودي لذلك جزعا شديدا وقال : « ما حسبت نفسي في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعلم السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفيه عن البلد ، ووجهه معه من عبيده من يخرج به عن نظره كله . ووصى اليهودي — لعنه الله — ذلك<sup>(١)</sup> العبد أن يصل معه إلى موضع سماه بحيث ينجى أمره ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المعز قد رباه جدّه ، ونال معه الكرام ، وأحبوه في حرمة أبيه . واتفق رأى الجميع مع اليهودي على قتل ما كسن وتولية المعز ، حذرا على أنفسهم من ما كسن أن يثور عليهم ويماقبهم بمحبتهم في [ ابن ] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أملوه .
- وخرج عمنا على أسوأ حال ، مذمورا ، خائفا ، بعضهم يشير بقتله ، وبعضهم يأتي إلا إزاحته عن النظر كله ، حتى صار يبيع الطريق .
- وانحل عن عمومته بهلاك اليهودي ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

## الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

(٢) من موت ابن نغالة إلى نهايتها

٢٦ - مؤامرة الوزير اليهودي ابن نغالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإن الخنزير - لعنه الله - لما رأى طغيان النساء ، وكل فرقة منهن  
تريد ولاية من تربيته من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولاة\* عليه وإيمان ١٢١  
الناية في مطالبته والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهزباً ، ولا  
وجد إلى التخلص سبيلاً ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوى الرأي ؛ فقال  
بعضهم : « انتج بنفسك ، وقدم جل مالك إلى أى البلاد أحببت ،  
تستوطنها غنياً أميناً » فقال : « ذلك ممكنٌ لولا أن الرئيس الأجل ، إن  
أرسل فى إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إنا أن  
تصرفه على ، وإنا أن أفاتنك ! » أتري أنه يبيع الرئيس عني ؟ هذا  
١٠ ما لا يجوز إلا أن أصير إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، وأنا من  
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلامى . وأنا قد وضعت فى

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فاتفق رأيهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأولى لجبرته وقربه من كل أمرٍ يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسولُ ابن صمادح ابن أرقم ، وكان قد تَخَيَّرَوه للرسالة (١) حينئذ ، قال : حضرتُ يوماً مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متزهاته والنائيةُ معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير ، يهوديًّا ؛ فأمر ياهاته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقَّح في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهوديِّ ؛ فاستعظم اليهوديُّ ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بدَّ من الترامي على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جديرٌ بالثبوت في هذا الأمر ! وأى ضرورة دفعتك إلينا وببيدك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئاً أكثر من هزات هذا المطالب ! فاحتلَّ بأن تُصايرَ الأمور إلى أن يموت الشيخ ، لاسيَّما أنه قد أسنَّ ؛ وتلقَى يدك في حفيده المعزِّ ، وتبقى حالكٌ معه حسب ما كانت مع جدِّه ؛ وهو أقربُ إلى السلامة ! » فقال له اليهوديُّ : « كنتُ أفضلُ ذلك لولا أن المعزِّ صغيرُ

١٥ السنُّ \* ، وله أمهات وطبقات جمَّةٌ من النساء والحاشية . فكيف نرجو منهم (ب) ٢١

الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون على أشدِّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحَّ عندي أن الصبيَّ يحقد على ما قاله الناس من سقَى أبيه . وقد أدَّرتُ هذه الوجوه ؛ فلم يتَّجه لي منها أمثلٌ من الترامي على المعتصم ! » فقال ابن أرقم : « دخلتُ على المظفر ، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزًا ، وقلتُ له : « أيدك الله ! تَبَقَّظْ ! فإنك لم تَطْمَن في السنُّ ، ولا بلغت فيه مبلغاً يولد عليك النغلة

٢٠



عن دَوْلَتِكَ ! » رَجَاءٌ مِنِّي أَنْ يَسْتَفْهِمَنِي عَنِ الْكَلَامِ وَأَقْصَى عَلَيْهِ بَعْضَهُ .  
 فَمَا يَهُودِيٌّ وَقَالَ لَهُ : « انْهَضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمٍ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيُّ وَجْهِ  
 قَالَ لِي الْآنَ : تَبَقَّظْ ! » وَاسْتَفْهِمَهُ عَنْ ذَلِكَ ! » فَجَاءَنِي الْيَهُودِيُّ وَأَخْبَرَنِي  
 بِالْفِضِيَّةِ . فَدَهَشْتُ لَهَا وَمِتُّ ، وَلَمْ أَجِدْ جَوَابًا . فَاتَّهَمَنِي الْخِنْزِيرُ ، وَخَاطَبَ  
 ٥ بِأَمْرِي الْمُعْتَصِمَ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُقِمِدَنِي عَنِ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَثْقُهُ ؛ فَسَفَرُ  
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمْرَهُ بِنَسْجِ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي تَصْيُرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،  
 وَغِرْنَاظَةَ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنْهَاجَةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ  
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَاللُّعْتَمِيمَ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَفْتَضِحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْفَرِ ،  
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِتْنَةِ ! وَتَخْزِي مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبِيًّا إِلَى  
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْفَسَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِنْزِيرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ  
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَمُتُّونَ مَعَهُمْ ،  
 أَقْوَامًا ، وَأَشَارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَعَاوِلِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَصَكَّكَ لَهُمْ بِهَا ،  
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أُخْصِلْتُمْ مَعِي ، وَرَأَيْتُمُونِي !  
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ لِانْكَارِهِ بِأَنْ يَقْدُمَ عَلَيْكُمْ مِنْ  
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَا يَبْتَهُ عَارًا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛  
 وَقَدْ\* نَصَحْتُ السُّلْطَانَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنِّي ، وَلَا يُقَدِّرُ عَلَيَّ مُضَادَّتَهُ ؛ ( ٢٢ )  
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَعَاوِلِ الْفَارِهَةِ أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قِبَلِ النَّايَةِ  
 مَنْ يَشْقِي بِهِ الْجَمِيعُ ، وَلَا تَقْدِرُ مَعَهُمْ عَلَى إِسْكَانِ النَّوَلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمْ الصَّوْلَةَ  
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أَمْسَكْنَا مَعَاوِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ  
 بِالْحَضْرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنقيهِ على يديه ، لَجَأُ  
إلى مَعْقِلِ صاحِبِهِ .»

قبل القومُ قَوْلَهُ ، مع شَرَهُمِ إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك .  
فأخرج يحيى بن يفران إلى مدينة المنكب ، ومُسَكَّنَ بن حَبُوس المَغْرَالِيَّ  
إلى جَبَّان ، وَمَنْ سِوَاهُمْ إلى غيرها من القواعد . وزَيْنَ للسلطان أن ذلك من  
وجه النظر له ، وأنه لا يحيى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للمزولين قد  
صَحَّ عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه  
المشابهة ، لثقتَه به .

وكتب [ اليهوديُّ ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القومِ الغوغاء من  
المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدهم سَيْفُهُ إذا دَخَلَهَا ،  
وأنه مَسَّيَ لَفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وضمَّ النظرَ في سائر  
الحصون غير القواعد ، وأهمل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه  
الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظفَر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .  
فلما خَلَّتْ العقائل ، وصحَّ عند أهلها ، يَاهلهم واحتجابِ السلطان عنهم ،  
أنه قد مات لا بحالة ، تصايحت بعضها لبعض ، وخَلَّتْ بأقطارها ؛  
وافترَصَها رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْنُ  
قَبْرِيْرَةَ ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على اللقَام لابن صُمَادِح ، يُلحُّ\* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

المدينة ، وأن لا مانعَ يمنعُه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من  
الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسع اتَّحْرَقُ وتمادى النفاق ؛ وصار

اليهوديُّ مُتَنَقِّلاً من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العَامَّةِ ، حتى يَتَمَّ ما أَمَلَ ؛  
فَأَنكَرَ ذلكَ النَّاسُ ، مع بُدْيَانِهِ لِحِصْنِ الحِمْزَاءِ عَلَى أَنَّهُ ، إِذَا دَخَلَ ابْنُ  
صُحَايْحِ البَلَدِ ، صَارَ هُوَ بِأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إِلَى أَنْ تَتَوَطَّدَ الحَالُ . فَأَنفَتِ العَامَّةُ  
وَالخَاصَّةُ لِمَكْرِ اليَهُودِ وما اشْتَهَرُوا بِهِ مِنْ تَغْيِيرِ الأَحْوَالِ ، وَرَأَوْا مِنَ الرُّتَبِ  
٥ خِلَافَ مَا عَهَدُوا .

وَالَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنٍ مِنْ صَتَرِ  
[ مِنْ سَنَةِ ٤٥٩ ] ، اسْتَعْمَلَ اليَهُودِيُّ الشَّرَابَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ أَقْوَامٍ مِنْ  
عَبِيدِ المُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّقَوْا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛  
فَأَغْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُحَايْحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوُوعٌ لِهِمْ مِنَ القُرَى فُلَانَةٌ  
١٠ وَقُلَانَةٌ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةَ ؛ فَاتَّذَبَّ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغَضِّهِ ،  
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيْكَ هَذِهِ الإِنزَالَاتِ ،  
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيْثُ أَوْ مَيَّتْ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ اليَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى  
قَوْلِهِ ؛ فَأَنفَ ذَلِكَ العَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِ [ وَهُوَ ] سَكْرَانٍ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ  
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَ اليَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُحَايْحِ  
١٥ دَاخِلٌ فِي البَلَدِ ! » فَتَسَامَعُ لِنَاسٍ أَجْمَعٍ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا  
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ اليَهُودِيِّ . فَتَحَيَّلَ عَلَى المُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :  
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيْثُ أ ! » وَرَامَ الرِّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ اتَّخَرِقُ  
عَلَى الرَّايِقِ . وَهَرَبَ اليَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ القَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ العَامَّةُ حَتَّى  
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالبَلَدِ ، وَحَصَلُوا عَلَى  
٢٠ عِظَامٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وَاسْتَأْسَدَتْ إِذْ ذَاكَ صِنْتِهَاجَةٌ ، وَطَفَنُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرِّئِيسِ ، مَعَ الفِتْنَةِ

- المُطَفَّرُ\* عليه من كلِّ قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي (١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
- والمُطَفَّرُ من هذا كَلْبُهُ تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه  
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيءٍ من دواخِلِهِ ، ولا صدقَ قَوْلِهِمْ عليه ،  
وسائرُ أمرِهِ معهم بالمداراة والصبر ، إلى أن تفتَّحت له البلاد ، ورجعت  
طاعته إليه بما تَحَنُّ نذِكْرُهُ (٢) بعد هذا إن شاء الله .
- ٥ ولما مضى مُسَكِّنٌ إلى جَيَّان ، على ما قَدَّمنا ذِكْرَهُ ، أَلْقَى في طريقه  
عَمَّنًا ما كَسَنَ ، يحمله الصَّعْلِيُّ ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :  
« لا فائدةَ أكبرَ من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُهُ  
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناسُ ، ونحصل على عظامهم ا »  
١٠ كالذي كان . فَوَلَّى جَيَّانَ بِاسْمِهِ ، وصار حاكِمَها مع بني عمِّه . وحصل  
إذذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقي ثائرًا على أفضلِ حال .

## ٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لاتزاع وادي آس

### من أيدي ابن صُمَاح

- وإنَّ المُطَفَّرَ ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ الدَّوِّ وطَمَعِ الناس فيه ،  
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهِ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ  
١٥ وادي آس ، وتصيِّرُها إلى ابن صُمَاح ، واستحواذِهِ على أنظارنا ؟ »  
فأجابهُ قَوادِمُهُ وجملةُ رجاله أن : « لا دواءَ لهذا ، إلَّا أن تبذلَ الأموال ،  
وتتركَ الدَّعة ، وتباشِرَ الأمرَ بنفسك ! » فقال لهم : « مثلي ومثلُ ابن  
صُمَاحِ كمثلِ القُبعة التي كان يلبسُها عشُ إوزةٍ ؛ فأعجبها بيضُها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ا » فلما رامت ذلك ، هجرت وقصرت جناحها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وجدتها قد فسدت . وكذلك ابن صمّاح : تمدى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديماً بيده ا « قويت نفوس الناس ، وادّرع الحزم والمزم ؛ وتأهب للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [ وفرق ] فيهم العطايا . ونازل وادى آش حتى حاصرهما .

وكان في أوّل الفتنة ، للذى\* رأى من قيام رعيته وخشى خلاف ٢٣ ( ر الجميع ، قد وجه لابن ذى النون ، صاحب طليطلة ، يمله بما دمه من الأمر ، ويسأله صلالة يده به ، وأنه ما انصرف إليه من البلاد أعطاه منها ما أحب واختار ؛ فسارع ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصرهما وقرب مرامها ؛ واجتمع معه إلى أجل هيئة وأتم رتبة . وفي قصبة وادى آش ذلك الوقت وزراء صاحب الترية وأكابر رجاله . فاشتد عليها الحرب ، وكثر الإنفاق ، حتى إنه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخط يد جدى — رحمه الله — ستة بيوت من اللال دراهم ثلثية ، البيت منها ألف ألف دينار ثلثية . وصار ذلك مثلاً في الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى من بالقصبة من أكابر أهل الترية ما دهمهم ، وأنه لا ملجأ لهم إلا الهرب أو السيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تحيّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون ، وهم على الملكة ، يملونه بما هم فيه وقطع رجالهم عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسط أمرهم مع المظفر ، ويأخذ لهم التقوى ، ويخرجون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يصيروا

العربية مُلكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غايةٍ لم يَنْتَهِ إليها مَلِكٌ ؛ فطَمَع في قولهم ذلك ، وترامى على جدِّنا ، ورغب إليه ؛ فَأَسْعَفَهُ ، حتى خرجوا وأخلَّوا له القَصَبَةَ . وثَقَّفَهَا بحياة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وَعَدَهُ ، وقال : « إنَّ الذى أريد من هذه البلاد بَسْطَةَ . » فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعَدِهِ ، وأمر بإخلائها له .  
وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أُرِبت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صُمدِرح بعد ذلك ، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه ، وأَنَّهُ لا يتعرَّض من ذلك شيءٌ لولا اليهودىُّ ، وخوفاً ، إنَّ \* أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وترامى على جدِّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويجدد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويُحْكِي أَنَّهُ ، عند اجتماعه به ، كان أولُ ما خاطبه به : ﴿ يَا أَبَانَا ! اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ! إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ا ﴾ (١) فأجابه المظفَّر على البديه : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ! يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ (٢) .

٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبَّاد

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذِهِ لوادى آش قد أخذَ مالقة ، وقدمها قبيلَ شغله كُلِّهِ ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرةَ يحيى بن يفران ؛ وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَاتَةَ

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنَة . ولما استأسدَ صِنهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على آتِه ، إذا انصرف من فتح مآلقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . قضى اللهُ تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الوقيعة . فقال عند ذلك المظفرُّ : « أتدنا في يوم واحد فرحتان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فتحُ مآلقة ! » ثمَّ نهض على المقام إلى وادي آش ؛ ففعل عليها ما وصَّفناه . وكان ابن عباد قد دخل مدينة مآلقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القصبَة لِمَا كان فيها من كفاة المغاربة ، وقائدُها ذلك الوقتُ مخلوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِه ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبراً منهم ، وكثرةً بَقِيًّا ، وأنفةً من كشفِ حرمة الذين كانوا بالقصبَة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عباد ؛ فنبَّحوا عليهم الظفر ، ودخلوها عنوةً .

١٥ وكان حصول ابن عباد عليها لداخلة\* أهلها ومثيلهم إليه ، اختياراً له (٢٤) د علينا ، على إحسان المظفرِّ - رحمه الله - إليهم ، وأنه وجدَّهم على أسوأ حالَةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحل قضاهاها ومقرئتها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قبلُ في حال قلةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وبعد ظفروه بهم ، عفا عن ذلك كلِّه ، وزاد في مراتبهم . ولقد اختطَبَ لابن عباد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحكى أنه قيل في الخطبة : « اليومَ أكملتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ «  
فلم تعطِ السياسة مُعَاقِبَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً ، وَلَا يَصْحُحُ إِسْكَافُ  
بِلَدَةٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْجَبَايَا .

### ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها

ولما انصرف من فتيانة<sup>(١)</sup> ، غزوته تلك الوادي آشيية<sup>(٢)</sup> ، دعا بقائديه [ الناية  
وعبد الله بن القروى\* ] ، وكانا على العسكر مُدَّةَ فِتْنَةٍ وادي آش ؛ وامتنح  
على أموالهم أين أنشقت : أكانت في واجب أم زيفت ، لِمَا استعظم من  
النفقة ؛ وجمع القائدين والكتبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف .  
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ،  
وأخرج منه نفسه : فمضى وردت أموال من غرناطة للعطاء ، يتحرى عنها ،  
ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذي يأتي بها : « احملها إلى خباء الشيخ  
عبد الله بن القروى\* ؛ فهو أعلم بما يصنع ، وهو أسن وأدرب ا » فاحتجج  
الناية بهذا الفعل عند المظفر ، وأتى على ذلك بالبرهان ، وتبرأ منها .  
وغضب الحاجب على عبد الله ساعتئذ ، وأمر بنقيه .

وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفناه ، ويؤثر عبد الله لترابيته<sup>(٣)</sup>  
معهم ؛ فشق ذلك عليهم ، وأدركهم من الأتفة أن خرجوا كلهم حُرْمَةً  
في عبد الله ، وأخلوا\* عليه المَحَلَّةَ . وزال عنهم أكبر صنهاجة أجمع ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فتيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشية » .

(٣) أصل : « لترتيبه » .



فلم يصبح الحاجب بِفَتْيَانَةَ منهم معه أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ  
إِلَيْهِمْ ، وَيَفْزَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّايَةَ يَرْعُدُ فَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .  
قَالَ الْمُظَفَّرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ  
طَغْيَانًا ، وَتَجْرُؤَهُمُ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَنُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ .  
٥ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْأَلِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمُ الْغَنِيمَةَ وَالرَّاحَةَ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ  
وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا فَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَيَّانَ يَرِيدُ  
مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ  
إِلَى غِرْنَاطَةَ عَلَى خَفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَمَلَةِ .  
وَأَقْلَعَ الْمُظَفَّرُ عَنْ فِتْيَانَةَ وَأَتَى غِرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،  
١٠ وَلَا عَدِمَ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّايَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكِينِ دَهْرًا طَوِيلًا .

### ٣٠ — اسْتِيْلَاءُ بَادِيْسٍ عَلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَيَّانَ ، وَثَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَقَ  
ذَلِكَ جَدَّنًا ؛ وَخَافَ النَّايَةَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزِعَ مِنْ أَنْ يَتَّفِقَ مَنْ هُنَاكَ  
مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغِرْنَاطَةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ  
١٥ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَرَ الْمُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لُفْغَانَتَهُ وَجَهًا ، وَإِنَّ مُسَايَرَتَهُ  
وَمُدَارَاتِهِ أَوْلَى ، وَإِنَّ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ  
الْمُظَفَّرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنَّ أَعْيَاهُ أَمْرٌ عَجِزٌ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ،  
وَرَأَى أَنَّ السُّنَى عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوْلَى . وَالنَّسَايَةُ ، فِي ذَلِكَ كَلَّةٌ ، يَجِدُّ  
وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْدُلُ الْأَمْوَالَ لِلتَّعَارُبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى  
٢٠ قَصَبَةِ جَيَّانَ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يُدَاخِلُهُمْ .

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَ عَمَّنَا مَا كُنَّ ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال  
 دونه ؛ وصار له ما كُنَّ بمنزلة\* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، وما كُنَّ لا يقدر ٢٥(ب)  
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِئَة غيرهم ، وقع بتلك الحال لاستنقاذه له  
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمَةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى  
 ذلك . فلم يَزَلْ أبداً يُدَاخِلُ عليه بالأموال ، حتى استمال جميع مَغَارِبَةَ  
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةً كونه بجيَّان ، يُخَاطِبُهُ أقوامٌ من صِنهاجة في حُبَّتِه ،  
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرّاً وجهراً ، ويروون ولايته خيراً من  
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سموا من ذلك ، وأشربوا  
 المُظَفَّرَ من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السعادة والمُدَّة  
 لم يقطع عليها فاطِعٌ ! والرئيس من هذا كَلَّ تحت أمرٍ عظيم ، والناية ١٠  
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحاً ، تكثُرُ عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن  
 نجت تلك المُدَاخِلَةُ : فقام المَغَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على ما كُنَّ ، وخرج منها  
 فاراً بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،  
 يطلبون النجاة بمشاشة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث  
 أتوا لما سمعوا النداء بالليل : « لاطاعةَ إلاَّ للمُظَفَّرِ ! » وعجَّلَ الحاجبُ ١٥  
 يتعاف جِيَّان ، واستراح من تلك الفِئَةِ .

ولقد حُكِيَ عن المُظَفَّرِ — رحمه الله — أنه لما تَهَيَّأت له هذه  
 السعادة ، رأى النايةَ مهموماً . فسأله<sup>(١)</sup> في ذلك ؛ فقال : « اهتَمَمْتُ  
 لخلاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولسنا نأمن شرهم في البلاد ! » ومن  
 ٢٠ تَوَرَّ حَيٌّ لا يُلبَسُ هَرَاكيساً ! « واسمٌ وَلَدِكِ كبيرٌ ! » فأجابهُ المُظَفَّرُ أن

(١) أصل : « فقال له في ذلك . »

قال : « الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل ، نلَّاهم<sup>(١)</sup> عن أوطانهم وكشفهم  
فى اتقالمهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُنزِلُهُمْ . وللموتُ  
دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كَسَنَ إلى طَلَيْطَلَةَ ، وصار بها عند ابن ذى النون \* مُكْرَمًا ،  
٥ على حال الجُنْدِيَّةِ . وتعلَّبَ مُسَكِّنٌ فى البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّةِ . وصاروا أباديدَ .

### ٣١ - استيلاء الناية على بياسة

وزاد جاهُ الناية بمرناطة ، وأخَّلَ صِنْهاجَةَ ، وأظهر لهم البغض لثقافتهم  
كان بزعمه على اليهودى وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستنصَّ بنى بززال  
وأحسن إليهم ، وقربهم من نفسه ، وهم كانوا أولياءه<sup>(٢)</sup> وأنصاره ، وبثَّ  
١٠ فيهم السطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنَّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يوثق  
عنه ، فى غزو البلاد ومداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة بياسة ،  
وقال للمتظفر : « إنَّ مَدْخَلَها بعض أهلها عندى ا » وكانت إذ ذاك لولده  
مجاهد . فقال له الحاجب : « لا تتعرض إليها ، ونحن فى دَعَةِ ! وكأنى  
١٥ والله أرى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحصِّل على فائدٍ ا »  
فألحَّ عليه وزين له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالسير ، وهباً  
معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فرآم من بياسة أمراً عظيماً : كلُّ ذلك  
يتعذر من أمرها ما لا يُرجى به أخذها ، حتى سُمَّ السلطان النفقة ومنع  
منه للمال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « نلَّاهم » .

- وكان في المجلس ممن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتِبٌ للمظفر يُعرف بابن  
أضحى ، ويقول للحاجب : « لم تقيم بياسة وعشرة أمثالها ببعض هذه  
النفقات التي كُنتَ عنها في غنى ا » وكلُّ ذلك يتصل بالنية ؛ فيُخرج  
الغايِرَ ، ويغني الأغانمَ ، ويوجهُ بها إلى مولاة ليَجْبِرَ منها بعض نفقاته ؛  
فكان ابن أضحى يبيعه بيخس من الثمن ، ويحضر المال بين يديه ، ويقول  
له : « أين هذا مما أنفقت ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها  
النية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جيان . وكان بانياً على أنه ، إن لم  
يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فارقاً ، لا ينصرف إلى غرناطة ،  
إلى أن استفتحا بكثرة المواظبة والملازمة ، وكانت عليه الصولة على مطالبه  
بذلك . ودخل \* المدينة في عزّة ورفعة وإكرام من السلطان جسيم ، مهّداً ٢٦ (ب)  
لن طالبه ، ومستطيلاً بذلك مُعلناً .  
وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخل البلد حتى تأمر بنفى ابن أضحى  
أو أنصرف من مكاني هذا ا » فرأى الحاجب أن نفي ابن أضحى  
أولى من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تفريمه وإهانتته . وخرج من  
ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتى أظفرنا  
الله به ، على ما يأتي ذكره بعد هذا .

## ٣٢ - مؤامرة ضدّ النية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لما بصروا بما فعل النية ، والزيادة  
في أمره وجاهه ، وأنه هو الحاكم دون السلطان ، حتى قالوا إنه طامعٌ  
بالرياسة والقيام مع بني يرزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفة ٢٠

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أفني ولاية البلاد : منهم ولدٌ القاضى ، صاحبٌ بأغته وابنُ يعيش ، صاحبٌ قبرة ، وواصلٌ ، صاحبٌ وادى آش ، والقاضى ابنُ الحسن الثباهى بمالقه ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قتلَ فيها ، وأرسلَ فى ما كُننَ - وقُدِّمَ - أراد واللَّه أم لم يُرِدْ .

١٠ ثم إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا فى العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلٌ العليجُ بوادى آش ؛ [ فيكون ذلك ] أستر لقتله وأبعد للظنِّ بهم : فإن عاقبَ ، عاقبَ غلامه وتبرأوا من ذلك . فوعد واصلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توظيفهم للأمر عند السلطان ، حتى تهيأ ذلك فى دماغ العليج ، واستعدَّ لقتله ، إلى أن حدث بوادى آش أمرٌ لم يكن مُبدئاً للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فهض فى أنحس وقتٍ وأشرف قدر . وكان واصلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وممن أطبأه بإحسانه ، وشرفه عند السلطان ، ورفضه من الحضيض . ففشا الأمرُ عند الناس قبل ذلك أن واصلًا عازمٌ على قتل الناية .

١٥ وحكى لى إنسانٌ من البرير ، قال : « نصحتُه بذلك وحذرتُه أن لا ينهض إليه ، وأنَّ مثله لا ينزل فى داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الرِّيبَ من أنفسكم وتردوها على أصدق الناس إلى ؟ » فلما توجهَ إلى وادى آش ، ونزل فى منزل واصل ، أظهر له إكراماً وتبجلاً لم يكن عليه قبلاً ، حتى اطمأنَّ ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل فى جنَّه ، أتاه واصلٌ برمحه ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أنفده بها ، حتى أثرت الضربة فى الحائط ؛ وقطع رأسه وطوَّفه صبيحة الليلة [ بأزقة مدية وادى آش

- ومُنَادٍ ينادى [ : « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »  
فورد الخبيرُ فجأةً بفرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يدْرِ أحدٌ من حيث  
أَتَى ، ففهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك الملح أن  
يتعدى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق  
٥ عايه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لدته . وأظهر للناس  
تجلاًداً ، وهدده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ،  
ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرىء كيفية الحال ، وينظر  
لها على مهل . فزاد بذلك العليجُ حاقةً ، وقال مُعَلِّناً : « لم أدخِل يدي في  
هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »  
١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكلمَ وَلَدُ القاضي المظفر في أمره وقال له : « إن هذا  
العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإيما فعل حُباً منه فيك ورغبةً في  
قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذلك إذ هو تربيتك ! » وجعل [ أهل ] الدولة يعتنون به  
ويسألون الغو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النصبية  
لم تكن إلا عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإتته ، ساعة  
١٥ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كُتِنَ إلى طُلَيْطَلَة ، ووُجِّهَ \* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب)  
كَيَّ يتحقَّقَ قتله ، وقيل له : « ليس بفرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! »  
إلا أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تووُلَ الأحوالُ . فكظم الحاجب هذا  
في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوبَ فعلَ واصلٍ ، وقال :  
« هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذني منها إلا إطفائها والنظر لها على سعةٍ ! »  
٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كسن ورجوعه إلى الحضرة

واتفق رأي الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخَلَ عليه  
ابنته ، ويُخلَع من أجله على كلِّ حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ،  
وأحسن بهذه المصائب ، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الربيع  
النصراني ، وكان فيما مضى كاتبَ حشم ، قد عرف خدمة اليهودي وتصرّف  
معه ؛ فأرسل عنه سرًّا ؛ وأتت كُتُبُه قبل ذلك ، فراجعَ عنها بخطِّ يده .  
فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخيالِ الدولة . فلما أحسن بهذا ولَدَ القاضي  
صاحبُ باغُه ، شافَهَ المظفرَ في الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على  
أبي الربيع ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا ياتوى أحدٌ حوائيك ! » فأجابهُ :  
« ألا أتقى اللهُ منكم أحدًا ! » وضيّع الحزم في هذا ، لا سيَّما أنه قد عَلِمَ  
أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا ؛ فعمِلت في نفس صاحب باغُه وأهل  
الدولة ، وتغيّرت الأفسس ، وكثر الإرجاف . واتفق مع صاحب قَبْرَة ،  
وكان صديقه قديمًا ، إلى أن ورد أبو الربيع .

فاستراح إليه المظفر على المقام ، وأعلمه بما حلَّ به . وأتاه المذكورُ من  
دانية ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودي . فقال له أبو الربيع : « قد أيقنتُ  
أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العائنة  
والخاصة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجّه في ابنك ، وتكتبَ  
إليه بخطِّ يدك بالغو عنه وإيثارك له على كلِّ والٍ لم يصالح لك ، وأنتك  
مقدمه\* لولايتك ومورثه مُلكك . فإنك ، إن فعلت ، هدّنت قلوبَ هذا العالم ( ٢٨ )  
وتقمّنت مسرّهم (١) . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ،

( ١ ) أصل : « سارم » .

وتخذمت قصته على سعة : فمكابدته ، وهو معك ، خيرٌ من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قصباً كبيراً من قهائه يؤمنه ويوطئه ، ويبشّره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يُرجى لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسرّ بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفّف العالم في محبة ما كُنن ، ورجوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحس طالع وأنكد جدٍ .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدّة والفظاعة ، وبنّض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيتُ أنا بهم بعد حبوس ! فصلّ عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلا بني أخيك : فهم أطفال صغار ! » وكان ما كُنن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخفّ على أحد . فزاد على ذلك أضعافاً مضاعفةً . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه ؛ فتحكم الشرّ فيه ، ولم يقدم شيئاً على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوسُ العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع \* الكلُّ على ألا خير فيه يُرتجى .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أمّ الملوّ طامعةً بزواجه ؛ وكانت مُطاعةً في قومها : قد استمالت أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتداً بهجبتها وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسنى بكلِّ وجهٍ عليه . وكانت كريمة



المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، جذراً منها أن يجعل منها حاشيةً وتمنع حرمته .  
وانتفى من ذلك واصل وامرأته ؛ فقالا<sup>(١)</sup> لها : « أي فائدة لك في زواج أم العلو؟ لكن الأولى بك أن تعطيه صبيةً من تربيتك ، تكونين<sup>(٢)</sup> من أجلها حاكمةً على داره ا » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصورت عند السلطان أنها توفيت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسم أخرى ماتت عندها .  
وشقَّ على بنت عمه ذلك كله ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردتِ الافراد بما كَسَنَ ، فما حمل امرأة العليج على السكنى معه ؟ » فمِنَعَتِ الدخول إلى داره ؛ فأنت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يؤثر عليها صبيةً كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الفيرة والأنفة لما طردت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني :  
وقالت له : « أنا أمة المُظَفَّرِ : فليَنظُرْ من نفسه ! فإن الاتِّفاقَ عليه على وجه كذا وكذا ا » وبيَّنت جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظرُ كيف تبتدى سعادتك في تشتيت هؤلاء القوم ! أخبرني امرأة واصل بكذا وكذا ا ألم أقل لك<sup>(٣)</sup> ..... ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

## الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ - رفض مطالب الفونش السادس واشتراكه

مع ابن عمار

[..... وأما] \* الفونش ، لما تبين هذه الفتن ، علم أن ذلك (١) ٢٩

من أكبر سعادته وأعظم فرجه في طلب الأموال . فأرسل إلينا رسوله :

أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ؛ فأتى باطرس شولس يطلب منا ضريته .

فأبينا عليه ، واجتمع رأينا على أن لا نعمل ، وأن ضرر الفونش لا يخشى

وغيرنا أماننا ، نعى بذلك ابن ذى الثون . ولم نقس أن أحدا يعاقده

على مسلم . فانصرف عنا دون عمل .

وإن ابن عمار اتهم هذه الفرصة ؛ وكان منتظراً له بياغه ، مرتقباً

ليأ يصنع معنا . فلما رأى أنه لم يتم له عمل ، ألقى يده فيه على المقام

وقال له : « إن كنتم (١) منتم عشرين ألف دينار (وهي التي سألت عن

ضريته) ، فنحن نعطيك خمسين ألفاً ، على أن تعاقبكم على غرناطة :

(١) اصل : « إن كان منتم » .

تمطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من الأموال ا « فمأقوده على ذلك . واتفق رأيهم على أن ينوا على غرناطة مَعْقِلًا يَضِيقُ عليها حتى تلتقي يدها . وكان ابن أضحى ، للذكور قبل هذا — هو المخرج على يدي الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوْرَاتِ البلدة ، ويُرِيهم أشدَّ ما يكون عليها من المواضع إن بُني ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حصن يلبش .

وأكرى ابن عمار من عسكر ألقوش ما قوى به على البنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويعدهم ويخادعهم ، حتى تم البنيان . وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبداً على مقربة من غرناطة مدة كونه ، طمعا في أن يقوم معه أهل البلدة . فلما تم بنيانه ، قواه بانديب ، واتخذ فيه جميع الأقوات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحال شديدة ، ونسي به أمر القلعة .

وعند انصراف المعتمد عنه وعساكر الروم ، عبتنا عسكراً كثيراً ، ونهضنا إليه ؛ فلم تقلد فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الروم . وندمنا على التضييق أولاً في معاقبته حسب ما سأل . وكان من أحسن شيء على السلاطين أخذ مَعْقِلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فإنه ، متى اعترض ، لم يستطع على دخوله لمنعه وما عده فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوة تأتيه ، فيقلع عنه إلا من كان أقوى . ولم نكن نحن إلا متكافئين في ذلك : متى ما أعطى أحدنا لعسكر مالا ، ٢٠ وأراد الآخر نقضه ، أربى عليه وأراحه منه .

فكانت يلبش قد أفسدت ، وضيق على فحص غرناطة ؛ ولم يكف

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القوش أن نقرم ما فاتته منا ، تباعةً  
وتدنيياً لرفضنا إياه ، واستدفاعاً لما يُتقى من تماديده على الطلب . وابنُ  
ذى النون في هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى في تصيير المال إليه ، يرضيه  
بذلك وينتظرُ فسادَ مملكتنا ، فيفتريها هو أو يأخذَ منها حصته .  
٥ فكان — على ما قدمنا ذكره — عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر .  
وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قَرْطُبَةَ ، وَيَسْعَى جَهْدَهُ فِيهَا ، إِلَى أَنْ قَدَّرَ  
اللَّهُ ، وافتَرَصَهَا غُدْرًا بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا مَنْ لَا خَطَرَ لَهُ . وَاسْتَشْهِدَ  
فِيهَا ابْنَهُ عَبَّادَ [ بن المُعْتَمِدِ ] وَقَائِدَهُ ابْنَ مَرْتِينَ .

فلما انقضت بقَرْطُبَةَ هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بِلَيْشٍ ، أَخْلَوْهَا  
١٠ عَلَى الْقَامِ ؛ وَدَخَلَهَا رِجَالُنَا ، وَصَارَتْ فِي مِلْكِنَا مُشِيدَةً مَبْنِيَّةً . فَنَظَرْنَا مِنْهَا  
بِالذِي نَصَنَعَ بِقَصَبَةِ غِرْنَاطَةَ . وَتَرَوَّحَ مُخَنَّفُهَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يُحْتَسَبِ .

### ٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِحِ صَاحِبِ العَرِيَّةِ

وكان قائدَ مدينةِ بَسْطَةَ ابْنُ مَلْحَانَ ، رَجُلٌ مُعْجَبٌ ، قَدْ شَرِهَتْ  
نَفْسُهُ إِلَى رَتَبِ المُلُوكِ . وَكَانَ المُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللهُ — قَدْ فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ  
١٥ البَلَدَةِ عِيَوْضًا مِنْ أَبِيهِ . فَلَمَّا صَارَتْ لَنَا الدَّوْلَةُ ، وَكَثُرَ فِيهَا آرَاءُ الوَزَرَاءِ ،  
جَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَطْلُبُهُ بِمَالٍ ، وَيَسْأَلُهُ مُتَاحِفَاتٍ : فَمَنْ لَمْ يَعْطِهِ ،  
طَالَبَهُ وَأَذَاهُ ، مَعَ صَغَرِ سُنَّتِنَا ؛ فَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا إِلَى الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ،  
وَلَا شَكْوَى لِمَنْ يَذُبُّ عَنْهُ وَيُجِيبُهُ . فَتَرَامَى عَلَى ابْنِ صُمَادِحِ وَقَبْلَهُ ؛  
وَصَارَتْ البَلَدَةُ إِلَيْهِ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُفَانَنَّ طَوْلَ مَدَّةِ العِثَّةِ مَعَ ابْنِ عَبَّادِ .

٢٠ ثُمَّ إِنَّهُ غَدَرَ\* حِصْنَ شَيْلِشٍ ؛ وَنَحْنُ ، فِي ذَلِكَ كَلَّةً ، لَا نَفْتَرُ عَنْ مُخَازَنَاتِهِ ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقعت  
المعاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى  
ما نصنع مع ابن عبّاد .

### ٣٦ — مهاجمة الفونش السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

ويبقى ابن عمّار مرتين كما جعل على نفسه للنصراني من كراء بيليش  
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، ويَعِدُّه بها . وأدخَلَ سلطانه  
من ذلك في تشييب ، لأنّه كان لا يُريد أن يجعله يخلد إلى راحةٍ لكنّ  
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقرُّ عن إدخال ضررٍ على المسلمين . ومتى  
١٠ ما كان المَعْتَمِدُ يسعى في تهديد الأمر ، ونومٍ معه الصلح ، أو تنشأ  
مهادنة ، لا ينام في نَقْضِها وإشعال نار الفتنة .

فباد ثانية إلى النصراني الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصوّرنا  
عنده في صورةٍ من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسنّ الصبا ،  
وأنّه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأشرها ، على أن يُعاقده ،  
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما آتت من أموالنا . وألّقي  
يدّه في الفونش ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً  
جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على  
ما يجيد ، لمساعدته على السير .

فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست  
٢٠ أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأى فائدة لي في إعطاء

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إلا تقويته على نفسه ؟ وكأما أكثر الثوار ، ووقع  
 بينهم التنافس ، كان لي أفئدة ا « فأني على نيّة أخذ مال الفريقيّن ،  
 يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضاً في أمّله أن يأخذ البلاد  
 لنفسه ؛ فإنه عمل في ذلك حساباً أن قال : « إنا من غير العلة ؛ وكل  
 الناس يشنّائي ؛ فبأي وجه أطعم في أخذها ؟ إن كان من باب الطاعة ،  
 فأمّرت لا يمكن ؛ وإن كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالى \* وتذهب ٣٠ (ب)  
 أموالى ، وتكون الخسارة على أكثر ممّا نرجوه إن صارت إلى .  
 ولو صارت ، لم تتمسك إلا بأهلها ؛ ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن  
 أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملّتى ! ولكنّ الرأى ، كلّ الرأى ،  
 تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً ، حتى ترق وتضعف ؛ ثم  
 هي تلقى بيدها إذا ضعفت ، وتأتى عفواً ، كالذى جرى بطليلة إنما  
 كان من قعر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إلى بلا  
 مشقة ا «

وكنا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر به وزراؤه . ولقد  
 قال ذلك ششّلاًند في حال هذه السفرة ، وشافهنا بذلك ، وقال : « إنما  
 كانت الأندلس للرّوم في أوّل الأمر ، حتى غلبهم العرب ، والحقّوم  
 بأنحس البقاع ؛ جليّة ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ا  
 فلا يصحّ ذلك إلا بضعف الحال والمطاوله ، حتى إذا لم يبق مال  
 ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف ا «

فكان الجميع يسائر الأمور ، ويدافع الأيام ، ويقول : « من هنا  
 إلى أن تتمّ الأموال وتهلك الرعايا برّحيمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين ا «

فورد علينا من إقبال الفوثس مع ابن عمّار هَوَلٌ عظيمٌ ، وصحَّ  
 عندنا أنه لم يأتِ إلّا طالباً لملكنا : قد استوثق من الفوثس على ماقدّمنا  
 ذِكره . ثمّ أرسل إلينا يندُرُ بإقباله ، ويأمرُنا بالخروج إليه ، يُرى أنه  
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكَّ  
 أن ذلك للتبضُّع علينا وإنجاز ما عقَدَ عليهم . فاجتمع علينا أهلُ الرأى  
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عدُوٌّ قد جاء لطابك ،  
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خرَّجت أم بقيت ! فإن أنت  
 بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، وأصاب مطابك  
 سبيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشدّ من الأولى ، وقت رَفَضْنَا بَطْرَهُ سُولِس  
 ١٠ وألقى ابنُ عمّار يده\* فيه حتى ببني علينا بيليش . والآن لم يتروَّح مُخْتَفِئاً ٣١ (١)  
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمرُّ ؛ فلو رأيت الرعايا بعض خلاف من هذا  
 الجيش ، لم تُثِقْ ولا تَدْرُ لشعفة ما قد دَهَوَا به قَبْلَ ، وكان الرجاء يتقطع ،  
 ويتلف الكلُّ حتى تُؤخَذَ هنا باليدِ على غيرِ صلحٍ ، فلا يرقب فينا  
 إلّا ولا ذِمَّةً ! فالخروجُ إليه أيسرُ لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت  
 ١٥ رأيك ، وثبت ملكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن  
 أمانٍ ، وصيرت حيزاً فى العاقبة ! فاعزم على لقائهِ<sup>(١)</sup> ، وقُلْ له قولاً  
 لئنا ؛ والله أن يُنفذَ قضاءه .

فاستعددنا لتلك جهدنا ، وأجمَعنا حوَالينا من نثيقُ به من رجالنا ،  
 وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناها على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة فى  
 ٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أنه يُجَامِي

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجاي عن بلده .

- ٥ ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرَّمْل مِنَّا إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْنَا ، يُبَيِّنُ مَا عُوِّدَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ سَيَقَ سَوْقًا ، ويقول : « إِنِّي قَدْ تَشَبَّتُ فِي الْأَمْرِ ، وَلَمْ نُعْجَلْ حَتَّى نَسْمَعَ مَا عِنْدَكُمْ . فَإِنْ جَامَلْتُمُونِي وَرَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجَهًا ، انصرفتُ عَنْكُمْ عَلَى خَيْرٍ ، وَإِلَّا ، فَهَا أَنَا مَعَ مَنْ عَاقَدَنِي ! » وَطَلَبَ خَمْسِينَ أَلْفَ مِثْقَالٍ . فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ قَلَّةَ الْبِلَادِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مِنَ الْقَطْعِ لَنَا مَا يَقْتَرِصُنَا بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ ؛ فَإِنَّهُ ، لَوْ أَخَذَ غِرْنَاطَةَ ، قَوَى عُنُصْرَهُ ، « وَلَمْ يَنْطَعْ إِلَيْكَ . فَخُذْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لَا نَسْتَأْصِلُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمَا تَرَكْتَ ، تَجِدْهُ عِنْدَنَا مَتَى مَا طَلَبْتَ ! » قَبْلَ الْعُذْرَةِ بَعْدَ جُهْدٍ عَظِيمٍ ،
- ١٠ وَقَاطَعْنَا لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفِ الْعَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعَدَدْنَا لَهُ مِنَ الْفَرَشِ وَالثِيَابِ وَالْأَنْيَةِ كَثِيرًا ، اسْتِدْفَاعًا لَشْرِّهِ ؛ وَجَمَعْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِيَابٍ كَبِيرٍ ، وَدَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الثِّيَابَ اسْتَحْقَرَهَا ؛ وَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ مَعَهُ عَلَى زِيَادَةِ خَمْسَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ لِيَتَمَّ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا ؛ فَأَكَلْنَاهَا لَهُ لَيْلًا يَنْفَسِدُ الْأَكْثَرُ عَنْ \* الْأَقْلِ . فَشَكَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَطَابَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ . ١١ (ب)
- ١٥ وَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ يَقُولُ لَهُ : « كَذَبْتَ لِي فِي قَوْلِكَ إِنَّ غِرْنَاطَةَ فِي ضَعْفٍ ، وَإِنْ صَاحِبُهَا مِنْ صَغُرِ سَنَةٍ لَا يَعْقِلُ ! وَرَأَيْتُ مِنْ رَتْبِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا خَالَفَ قَوْلَكَ ! »
- ٢٠ فَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَاسْتَمَالَهُ عَلَى أَخْذِ إِسْطَبَّةٍ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَكَانَتْ مَتَقِلًّا عَظِيمًا مِمَّا يَلِي جِهَاتِ إِشْبِيلِيَّةٍ ، قَدْ كَانَ أَخَذَهُ قَائِدُنَا كِتَابًا فِي الْفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ تَمَحُّنُ خَبَرِ الْقَلَمَةِ ؛ فَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلَمَةُ أُسْطَلِيرٍ عِيَوضًا مِنْ إِسْطَبَّةٍ .



وكانت قَاشِرَتُهُ وَمَارَتُشِ التَّعَقِلَيْنِ الَّذِينَ عَلَى جَيَّانٍ . ومن أَجْلِهْمَا انقطع  
صَاحِبُهَا عَمَّنَا [ مَا كَسَنَ ] ولم تكن جَيَّانَ مَعْنَى إِلَّا بِهِمَا . فترامى ابنُ عَمَّارٍ  
في أمرهما على الْفُونَشِ ، وَوَعَدَهُ عَلَى مَارَتُشِ بِأَمْوَالِهِ كَأَنَّهُ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ .  
فَعَزَمَ عَلَيْنَا فِيهَا لِلطَّمَعِ فِي اللَّالِ ، وَوَعَدَنَا نَحْنُ عَلَى قَاشِرَتِهِ بِالْمَطْمَرِ ، وكان  
أَيْضًا حِصْنًا قَدْ اشْتَرَكْ نَظْرَهُ مَعَ نَظَرِنَا بِيَدِ ابْنِ ذِي النُّونِ ؛ فَضَمَّنَ خَبْرَهُ  
أَنَّهُ يَعْطِيهِ لَنَا عِوَضًا مِنْهَا ؛ فِدَاعَتُنَا الْأَمْرَ جُهْدَنَا : فلم تقدر على أكثرَ فَعَلِ  
الْقَوَى مَعَ الضَّعِيفِ ،

ثُمَّ إِنَّهُ عَقَدَ التَّعَدُّيَيْنِ يَدَيْهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا يَتَعَدَّى مِنَّا أَحَدٌ عَلَى  
صَاحِبِهِ ، وَذَكَرَ فِيهِ مَا نَعطَى كُلَّ عَامٍ مِنَ الضَّرِيَّةِ : فَجَعَلَ عَلَيْنَا عَشْرَةَ  
آلَافٍ مِثْقَالٍ فِي الْعَامِ ، وَطَيَّبَ لَنَا الْكَلَامَ بِأَنْ قَالَ : « طَمَعُ ابْنِ عَمَّارٍ  
أَنْ نَقْدِرَ بِكَ ؛ وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشِيْعَ فِي الدُّنْيَا أَنْ مِثْلِي كَبِيرًا فِي  
الرُّومِ يَقْصِدُكَ ، وَأَنْتَ كَبِيرٌ فِي جَنْسِكَ ، ثُمَّ نَقْدِرُ بِكَ ا فَابِقٌ عَلَى أَمَانٍ !  
لَا أَكَلِّفُكَ إِلَّا الضَّرِيَّةَ ، تُوجِّهُ إِلَيَّ بِهَا فِي كُلِّ عَامٍ دُونَ مَطْلٍ ؛ وَإِنْ  
تَأَخَّرْتَ بِهَا ، أَنْتَ رَسُولِي عَنْهَا وَتَزَلِمُكَ عَلَيْهِ نَفَقَاتٌ ؛ فَبَادِرْ بِهَا ! »  
فَقَبِلْنَا قَوْلَهُ ، وَرَأَيْنَا إِعْطَاءَ عَشْرَةِ آلَافٍ فِي الْعَامِ نَدْفَعُ بِهَا مَضْرَرَتَهُ خَيْرًا  
مِنْ هَلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَفَسَادِ الْبِلَادِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ بِنَا قُدْرَةً عَلَى مُلَاقَاتِهِ وَمُسْكَابَرَتِهِ ،  
وَلَا وَجَدْنَا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ عَوْنًا عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ يَسُوقِهِ إِلَيْنَا لِهَلَاكِنَا .  
فَبَقِيَتِ الْأُمُورُ عَلَى مُصَالِحَةٍ وَمُهَادَنَةٍ\* وَرَفَاهِيَةٍ ، لَا يُسْمَعُ فِيهَا بِفِتْنَةٍ . (١) ٣٢

٣٧ — اسْتِيْلَاءُ الْفُونَشِ السَّادِسُ عَلَى طَلِيْطَلَةَ

٢٠ وَمَا هِيَآهُ اللَّهُ أَنْ قَدَدْنَا وَسَائِطَ السُّوْهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَدِّ ابْنِ عَمَّارٍ ،  
وَشَغْلِهِ فِي مَرْسِيَّةٍ ، وَبِرْوَاقِ سِمَاجَةَ عَنَّا وَأَشْيَاعِهِ . وَتَوَفَّى قَبْلَ ذَلِكَ ابْنُ

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتججت له ، وخافه  
الروساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت .  
وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه  
وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى الفونس ؛  
فصرفه إليها على قهري وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمة ، أشدها  
ما جعل على نفسه في شراء حصن من الفونس على مقربة من طليطلة بمائة  
وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسة مئدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه  
عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازمها الفونس حتى صارت إليه .  
١٠ وعوض صاحبها ببكنسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة .  
وكان حفيد ابن ذي النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على الصدر  
بوزير جدّه [ ابن ] الحديدى لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن  
قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم  
وسلطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كلبهم عليه أشد ، وصاروا طالين للتأر  
١٥ وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكى ، وبنو ميث ،  
ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف  
الرأى عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ - استيلاء ابن هود على دانية . بمض أخبار بنى هود

٢٠ وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بغفلة صاحبها عن الرجال وحبه  
في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرثيولة ، الخارج

عنه إلى سرقسطة ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل  
للمدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال يوفرها . وكان \* ٣٢ (ب)  
عنده ولدٌ مجاهدٍ صاحبِ دَائِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هُودٍ ، لَمَّا حَصَلَ عَلَى دَائِيَّةٍ ، انْقَسَدَ طَبَعُهُ ، وَأَدْرَكَهُ الرَّغْبَةُ  
فِي الْبِلَادِ ، وَزَالَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَادِ الرُّومِ ، وَطَمِعَ فِي بَلَنْسِيَّةٍ عِنْدَ  
ذَلِكَ ، وَأَعْطَى عَلَيْهَا أَمْوَالًا جَسِيمَةً لِأَلْفُونُشٍ ؛ وَالْفُونُشُ فِي هَذَا كَلْمٌ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا  
ذَكَرَهُ ، يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ ، وَلَا يَحْتَقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُهَاوِدَهُ عَلَى أَخْذِ بِلَدَةٍ . فَتَوَفَّى  
ابْنَ هُودٍ فِي إِثْرِ أَخْذِهِ لِدَائِيَّةٍ وَبَلُوغِهِ أَمْوَالِهِ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ ابْنُ الْخَلِيَّاطِ  
الْمُنْجَمُ ذَكَرَ ذَلِكَ كَلْمًا ؛ وَلَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضَ ، حَتَّى  
رَأَيْتُهُ عِيَانًا . ١٠

وَكَانَتْ قَضِيَّتُهُ فِي دَائِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابْنِ ذِي النُّونِ بِقَرْطَبَةِ : فَإِنَّ ابْنَ  
هُودٍ اهْتَزَّتْ لَهُ الْأُنْدَلُسُ عِنْدَ حُصُولِهِ عَلَى دَائِيَّةٍ ؛ وَجَزَعُ جَمِيعِ الرُّومِ  
لِأَخْذِهِ لَهَا دُونَ قِتَالِ وَلَا زَمَانِ ، وَأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَّةَهُ مَتَأَهَّبًا لَشَرِّهِ ، إِلَى  
أَنْ أَرَاخَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَقَبِضَهُ عَلَى فِتْنَةٍ وَاقْتِبَالَ أَمَلٍ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُ الْمُؤْتَمِنِ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ . وَشَعَرَ  
الْمُؤْتَمِنُ لِابْنِ الرَّيُّوَلِيِّ وَزَيْرِ أَبِيهِ بِأَعْمَالِ فَاسِدَةٍ مَعَ الْفُونُشِ ، لِيَتَّخِذَهُمْ لَهُ خِدْمَةَ  
ابْنِ عَمَّارٍ ، فَيَرَأْسَ لِنَاكَ عِنْدَهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ خِذْلَانًا وَطَغْيَانًا ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ .  
وَتَوَفَّى الْمُؤْتَمِنُ ، وَوَرِثَهُ الْمُسْتَمِينُ حَقِيدُهُ هَذَا الْوَالِي الْآنَ .

وَكَانَ الْمُؤْتَمِنُ رَجُلًا عَالِمًا ، قَدْ طَالَعَ الْكُتُبَ ، مَعَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ  
الْآثَارِ ؛ فَرَأَى مَوْتَهُ قَرِيبًا . فَكَانَ لَا يَسِرُّ بِالْمَمْلُوكَةِ ، وَيَزْهَدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ  
الدُّنْيَا . وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ مِنْ أَعْلَامِ جُنْدِهِ أَنَّهُ كَانَ

- يُريهم ذخائره التي لم يجمعَ مثلها عند مَلِكٍ ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :  
 « ما أصنعُ بها ، والمُدَّةُ يسيرةٌ ، ولا أدخلُ منها قبري إلا بكفنٍ ا »  
 فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .
- ٥ . وكان مُنذِرٌ أخوه بدانيةً ، إلا أن أباهُ الشيخَ لم يُمكنهُ من مالٍ ،  
 حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدته وشدة بأسه . فلما توفى المُقتدرُ ،  
 اضطربت الفتنة بينهما . وكان مُنذِرٌ منهما\* يتَضَمَّعُ له ويتكافى به ، ٣٣ (١)  
 لِمَا كان من إحسانه للأجناد ومواساته لهم ، إلى أن توفى بعد أخيه ؛  
 وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده ، يدبُرُ مُلكَهُ وزيرُهُ .

### ٣٩ - ثورة ابن عمار على المُعتدِ بِمُرسِيَّة

إلى أن أخرجه منها ابنُ رَشِيْق .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكهُ الشنيع

- وصار ابن عمار في حَيِّزِ الخِلافِ على المُعتدِ ؛ وجَعَلَهُ يَطْلُبُ مُرسِيَّةً ،  
 واعتراه عليها مشقات ونفقات أموال . وجَرَى من أسرِ ابن المُعتدِ عليها  
 ما قد شهر . وطال مكثه على مُرسِيَّة ، يُحزَّبُ عليها الأحزاب وينفق  
 الأموال ، يُرى سلطانه أن السعى له ؛ وهو في الباطن يجدُّ لنفسه ،  
 لكنَّ يَتَّخِذُهَا مَعْقِلاً يَرَأْسُ فِيهِ ، كالذي صنَعَ . ولقد كان يقول أهلُ  
 العِلمِ بالآثار والتأثير : « إنَّ مُلكَ بني عباد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدمير ،  
 ومن تَمَّ يَتَمُّ هلاكهم . وكان الناسُ إذ ذاك يتوقَّعون عليه الفساد عند محاولة  
 ابن عمار لأمرها ؛ فلم يكن إلا بعدهُ مجينٌ ، عند بلوغ الكتاب أجلهُ .
- ١٥
- ٢٠ وصار ابن عمار بِمُرسِيَّة بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال

للمعاصي ، والإيمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عريضه وهجوه بما قد تزعمه الله عنه ، فقل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مرسية ابن رشيقي ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبك عليه المعاقيل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مدة غفلة ابن عمار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يريد لنفسه في رسالة النصراني ليخدم أمر الأنظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يضعها في يديه ، مثل سنت مرية ، ويستعي في إصلاح ما أفسد عليه ابن رشيقي ؛ فإنه لم يجد إليه سبيلا لكليته عليه . ولما نهض إلى الفونش ، فأول ما سعى في تضيير طليطلة إليه بمداخلة أهلها ، ليكونوا حاكين أنفسهم ، ويؤذوا الجزية للنصراني دون رئيس . وأتى طليطلة ، وابن ذى النون فيها باسم الرسالة ، ٣٣(ب) ووافق على ذلك ، ونحلة الفونش عليها ، في حين صرف حاجبها إليها بعد خلع أهلها له ، لينفي له بوعده ، ثم يعكس عليه القصة ، فيقتل . فشر لنك ، وغلب حفيد ابن ذى النون القثة القائمة عليه . ففر منهم من خلص إلى الفونش ؛ وفر ابن عمار . ١٥

ولما لم تتم له خدمة الفونش في ذلك ، نهض إلى صاحب سرقسطة ، وتخدم له خبر شقورة ( وبها ظفر به ، وووجه به إلى المعتد ) . فلما ثبت أنه استقر عند ابن هود ، غدره فيها — أعنى مرسية — ابن رشيقي ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عمار بعد ذلك رجعة إلى مرسية ، وصار خادما عند ابن هود صاحب سرقسطة . ٢٠ ولما احتل بذلك القطر ، أضرمه نارا ، وأهاج فيه فتنة ؛ وصار سفيرا

للإفرنج . وآثره ابن هود ، وقرّبه ، رجاء منه أن ينال على يديه ما نال  
المُعْتَمِد ، لَلَّذِي قام له عنده من الطارُوس بسعادة صاحبه ، لا بأعماله .  
وكانت العداوة الواقعة بينه وبين المُعْتَمِد على يدي الرّشيد ابنه ؛  
فإنّه ، بسوقه ، كان يتكبر على أولاده ، ويضيق عليهم ، ويُسئ الصنعة  
مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ والمُعْتَمِد ، في هذا كله ،  
يصبر له ، ولأنّه كان قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلة : فمضى  
مادهم أمرٌ من قبلهم ، وجهه إليهم ؛ فينبجلى من أمرهم ما يضيق الصدرُ  
به ؛ وكلُّ ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو يجمله يعتقد أن ذلك  
لا يتهياً إلا بسببه ، ويرُدُّ الحسَّ كله إلى نفسه . وكانت هذه المعاني ممّا  
أحرق عليه المُعْتَمِد ، حتى عقب عليه بما كان جديراً به ، وأمكنه اللهُ منه ،  
وجازاه بما لم يكن له منه بُدٌّ ، ولا رآه لغيره أهلاً . وكانت شقورة قد  
أخلها المُعْتَمِدُ ، وبني صاحبها — عبّد من عبّيد سراج الدولة — أن يَضَعها  
في يديه ؛ فلما صار\* ابن عمار إلى سرقسطة ، نهض إلى العبد المذكور ، ٣٤ (١)  
عَسَاة يرجع إلى طاعة ابن هود ؛ فتعقّه وأرسل به إلى المُعْتَمِد ، وعند  
ذلك قتله شرّاً قتلة . ١٥

وإن ابن رشيقي بعد ذلك سوّلت له نفسه الخلاف على المُعْتَمِد ،  
واحتج بأن قال : « لم يُقدّمني إلى مُرسيّة ! » وزعم أن أهل البلد  
اختاروه ، وأنّ مُقدّمه إنّما كان ابن عمار متى ذهب عنها . وسنذكرُ من  
أمره بقّة هذا ، عند ذكر أحوال المرابطين — أعزّم اللهُ — وقصديهم  
إلى لبيط ، ما انقضى من خبره عليها بما هو مشهور . ٢٠

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَليمٌ سرِّ الأمرِ كالذي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الخَيْرِ وإيثاره للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنا وبَيْنَهُ ؛ وحَقُّ معنا في كلِّ أمرٍ ، كالذي قَعَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا العَقْدَ على ما ارتضيناهُ من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كان قَدِيمًا بيده ، مما خرج عَنَّا في أيامِ المُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الفِتْنَةُ عليه حَقَّها ، ولم يوجد في طَلَبِ ذلك خَيْرٌ ، ولا إلى غير المصالحة سبيلٌ ،

١٠ قَرَّرَتِ الأحوالُ قَرَارَها ، وَتَهَيَّأَ كُلُّ واحدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا ما كان من سَيْفِ بَرَّائِي يَمْتَرِضُ بلادَنَا من الرُّومِ ؛ فكان الرُّزْمُ فيه واحداً والمشاركة سواءً ؛ وإن كُنَّا لا نَقْدِرُ على ذلك بالإمدادِ بَعْضُنا لِبَعْضٍ لضعفِ الحالِ ، فَكُنَّا تشارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإعمالِ الرَّأْيِ والتحذيرِ من أمرٍ عسى أن يكون خفي عن الآخر وما أشبه ذلك .

٢١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

١٥ وإذا أتينا على ذِكْرِ جَمَلٍ من أحوالِ الأندلسِ الحادِثَةِ فيها ، للشهور خَبَرُها حسبما استفاض ، وَتَرَكْنَا وَصَفَ الاختلافاتِ ، إذ يوجد الحقُّ في طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلِحَ بِالمشاهدةِ ولا بالمعاينةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا منه ما ينقاسُ في العقلِ ، وَحَدَفْنَا منه الإكثارَ والمشتبهاتِ . وإِنَّه ، متى أتينا على ذِكْرِ خَبَرٍ حادِثٍ في دَوْلَتنا بما حاولناه

أو شاهدناه\* أَطْنَبْنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسِرِّهِ ٣٤ (ب)  
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أَبْلُغُ  
 وَأَنْعَتُ مِنْ وَصْفٍ لِلشَّاهِدَةِ لغير مَا يُخَصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الشَّاهِدَةِ ، وَإِنْ  
 كَانَ لَا نَعْنِيَهُ ، أَبْلُغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفْضَى الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا  
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَجْتَرِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ  
 دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكْذَّبًا .

ولهذا ما اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيراً من الأخبار  
 عنها ، واقتصرنا على الإطناب فيما يخصنا منها ، مما حاولناه أو رأيناه عياناً .  
 والحقيقة من الخبر عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ  
 أَوْ مَثُورٍ ، كَالْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْقَالَ سَبِيلًا ، أَطْنَبَ  
 وَأَبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَمُكِّنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،  
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأُمُورِ مَصْدَقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ كِتَابَنَا لَمْ يَكُنْ  
 مَتَبَيِّغًا إِلَّا عَلَى وَصْفِ مَمْلَكَتِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُونِ » ؛ فَلَا بُدَّ  
 مِنْ ذِكْرِ جُمَلٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ بِهِ ،  
 تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . ١٥



## الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِماجة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهدَّنت لنا الأحوال وقرَّ مُلْكنا قرَّره بمُصالحة المُعتدِّ ،  
ومُعاقدة الرُّومِ على المُهادنة ، وتوطينِ النفس على ما نعطيه<sup>(١)</sup> في العام ،  
انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلادنا ، والفتش على رعيَّتنا ، والكشف  
على المُمال إن كانوا عادلين أو ظالمين . ولما شعر بذلك خدَمتنا ومن كان  
له مذهبٌ في نصيحتنا ، اتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على  
ما خفي عنَّا زمان تلك الفتنه ؛ فكنا لا نقبل من أحدهم على الآخر إلا بعد  
رويةٍ وهجومٍ على الحقيقة ، حذراً أن يكون مقال أحدهم حسداً للآخر  
أو طلباً لا يُتقى الله فيه .

وكان سِماجة ، وزيرُ دولتنا المُتقدِّم ذِكره ، قد شعر بذلك وأحسَّ  
مينا ؛ فاعتمَّ للأمر\* وعمل في نفسه ، وشكاه إلى إخوانه ؛ وكان فيما قال (١) ٣٥  
لهم : « إنما كُنَّا نطمح بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دولته مدَّة

(١) أصل : « نعطيه » .

- أَيَّامِ صَبُوتِهِ ، يَعْنِي صَفَرَ سَنَةٍ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَلَسْنَا نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى رَدِّهِ  
 عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَا يَفْتَنُهُ تَحْمِينَا ، وَلَا يَصْغُرُ سِنِّي نَجِدُ بِهِ السَّبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ عِنْدَ  
 الْعَامَّةِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِ ، لَا سِيَّامًا إِذْ كَانَ رَأْيُهُ النَّظَرَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَالْبَحْثَ عَنْهَا .  
 فَعِيلُ لَهُ : « لَسْتُ <sup>(١)</sup> نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْمُدَارَاةِ لَهُ ، وَالْإِتْيَانِ لِمَرْغُوبِهِ ،  
 وَقَلَّةِ الْخِلَافِ عَلَيْهِ لِثَلَا يَتِمَكَّنُ عَدُوُّكَ مِنْكَ ، وَيَسْتَفِي حَاسِدُكَ عَلَيْكَ . فَهُوَ ،  
 إِذَا وَجَدَ مِنْكَ الَّذِي يَرْغَبُ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُبِيلَ النَّظَرَ وَالْخِدْمَةَ وَيُفَوِّضَ  
 الْأَمْرَ إِلَيْكَ ! ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ عِنْدَ غَفْلَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى رَاحَتِهِ ! وَعَلَيْكَ  
 بِإِشْغَالِهِ بِالنِّسَاءِ ، وَعَجَّلْ لَهُ ابْتِياعَ الرِّقِيقِ ! وَلَسْنَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ يَشْتَأُكَ مِنْ  
 تَحْجِيرِكَ هَذِهِ الشَّهْوَاتِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ نَظُنُّ بِهِ مَا يُظَنُّ بِمَنْ كَانَ فِي سَنَةِ ا  
 ١٠ قَعَلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْفِتْرَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا مِنْ سَعَادَتِنَا وَتَمَكِينِنَا مِنْ  
 آمَالِنَا فِي الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ بِمُلْكِنَا ؛ فَإِنَّهُ شَبَّكَ عَلَيْنَا الْعَاقِلِ  
 بِبَنِي عَمِّهِ ، وَأَشَدُّهَا عَلَيْنَا مَدِينَةُ الْمُنْكَبِ . فَجَلَّ يَطْلُقُ لَنَا الْعِنَانُ فِي كُلِّ  
 مَا نُرِيدُهُ ، وَاشْتَرَى الرِّقِيقَ ، وَجَعَلْنَا تَخْرُجُ إِلَى النَّزَاهَةِ فِي الْبِلَادِ ، يُرَى  
 بِذَلِكَ الْإِنْصَافِ وَالنَّائِي ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ مَتَدَبِّتًا ، خَاطِفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ،  
 ١٥ مَعَ أَنَّهُ كَانَ خَاطِفًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ اسْتَعْمَلَهَا عَلَى أَلْسِنَتِنَا  
 أَقْوَامٌ مِنْ أَعْدَائِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِنَاهَا جَاءَ بِأَمْرٍ فِيهِ بَقْتَلُهُ ، وَتَمَحَّنَ بِرَأْيِ  
 مِنْهَا ؛ فَظَفَرَ بِالْكَتُبِ ، وَأَنْزَلَ بِنَا التَّهْمَةَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلِيكَ الْمُسَمِّينَ فِي  
 الْكَتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَتَاهُمْ مِنْ كِرَامِ بَادِيسَ - رَحِمَهُ اللَّهُ .  
 وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي مَقَدِّمَاتُ تَعَازِلُهُ لِعَزَلَتِهِ . فَلَمَّا كَانَتْ وَجْهَتِنَا إِلَى  
 ٢٠ وَادِي آشَ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، وَقَدْ كُنْتُ عَلْتُ مُعْتَقِدَهُ فِي ذَلِكَ كَأَنَّهُ بِالْقِيَاسِ

(١) أصل : « ليس » .

والتيّز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمر\* ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْظَتْنَا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإليّيه لا يؤمن خلافه ، والرجة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبدأً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرّة ، أكن كمن نُبّه على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرّة وعاد إلى ما كان ، ثم ترمى منه خلافاً ، لم تقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر منا جاءه فجأة لم يمتسبه ولا ظن به ؛ والفرصُ تمرُّ مرّ السحاب ! فادمنا<sup>(١)</sup> تخن بالخيار عليه ، لا تتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! »

١٠ فأراد إشاعة عزّلته بالحضرة عند إمكان السفر ؛ فلم ترَ لذلك وجهاً إلا وتحنّ خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لياأس الرعايا ، مع أنّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتته الصنّاعة ، وكم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادى آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيّة أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعة سِمَاجة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ بتقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفون عنده ألا يجعلوا بيني وبينهم واسطة ؛ وأمرته هو بالتزام ما يخصه لنفسه ، وأن لا وزير لدولتي إلا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سواها . فسرّ بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوّت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

(١) أصل : « مادام » .

- دون مَنْ هو مِثْلهم أو دونهم . واغتنب الرعايا بعزلة الظلّة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُتَّهم بخيانه ، وقدمتُ عمالاً إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لما سمعوا بذلك ، يفرّون منها ويتركونها حتى يوجّه إلى جندّها عن قائدٍ . ولم نلقَ في ذلك \* كلّه مشقّة . ولم يبقَ إلا ابن عمّه له ، صاحب المنكب ؛ (١) ٣٦
- فخرج ، إن تركه ، أن يوجد إليه السبيل بسببه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني إرسال قائدي إليه ، فعزل . وسأل زأوى زوال أخيه بلتار عن وادي آش . فكان ذلك كلّه على أمكن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أيام وزارته .
- ١٠ ثمّ أمّنته في نفسه ، وأبقيتُ عليه جميع أمواله إلا الذهب والفضّة ، وسوغتّه إنزالاً ينعاش فيه ، وأمرته بلزوم تجليسي وأنه مكرّمٌ طول حياتي . فقبل الرجلُ ذلك كلّه ، وأطلعنا في كلِّ أمر أردناه دون خلاف ولا إظهارٍ لتعصية ؛ فإنّه كان جزوعاً ، قليل الجراءة على العظام ، ولأنّه لم يجد فتنةً تعينه . ولتقتي بذلك أمّنته في نفسه ، ومضى عليه دهرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خدمة ، فلم يتركه .
- ١٥ وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقّعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يُبرون به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم ترّ معه وجهاً لإمساكه في البلدة ، احتياطاً على أنفسنا ؛ وربّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فهلك من أجلها . ولا استطعنا حينئذٍ
- ٢٠ على معاقبته لِمَا ارتكب في صدر الدولة من قتل أولئك النساءِ ومن جرى مجراهنّ ، لشركته في ذلك مع سواه من شيوخ تلك الكاتّة ؛ فيسوه ظنّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استقالةً لأنفس الناس ، وبسْطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيئاً إلى الميرية . فكان ٥ المعتصمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يئسُّ أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بجلي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ \* وإنما صار إلينا ما أعطيناها بأيدينا من الذهب والفضة أولَ ٣٦ (ب) ولايتنا ، وقتَ فتح بيتِ المال ؛ ولم تتحقّق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحسنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة الميرية .  
تعاقب أحداثه وحله

بمّ قُبنا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيامٍ وأتمّة ، وجعلنا الأمان على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دَهراً طويلاً .

١٥ وإنا ، في إثرِ مَضَى سِمَاجَةَ للذکور إلى الميرية ، بلغنا أنه حقر الدولة لابن صَاحِدٍ وطمعه فيها ، لياً كان يرى من طمع الرجل الذي قد شهر به - رحمه الله - ؛ فإنه كان كثيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المنّة . فعمل قَوْلُهُ في نفسه ، ورجاً أن ينالَ على يديه فُرْصَةً بِمُداخَلَةٍ أو إِدْلالٍ على مَوْضِعٍ فائِدَةٍ ، كالذي تهيأ له مع اليهودي .

٢٠ ووافقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائدي النظر ما بين فنيانة والمُنْتَوْرِي

مُشَاجِرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَهَيَّأ حِيَاةَ ذَلِكَ النَّظَرِ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُتَثَوِّرِي  
 الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِى إِلَى قِنْيَانَةَ ، أُرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ  
 بِرُودَى عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْقِلِ  
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرُّسُولِ :  
 ٥ « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ <sup>(١)</sup> تُنَالُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنَيَّانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلَتْ مُهِمُّ  
 ذَلِكَ الْحِصْنَ عَلَى التَّرِيَّةِ ، وَبَلَغْنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةَ ، وَتَذَكَّرْتُ  
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبْنَا ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنَيَّانِ ذَلِكَ الْمَعْقِلِ .  
 قَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ التَّرِيَّةُ  
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتِيجَ إِلَى بُنَيَّانِ مَعَاوِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،  
 ١٠ فَيَكُونَ عِوَضًا عَنِ الْمُتَثَوِّرِي . قَامَ بُنَيَّانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا  
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ التَّرِيَّةِ . فَسِيلَ بِالْأَمْرِ ،  
 وَضَاقَ بِهِ ذَرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِبُهُ \* عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هَزِيمًا ؛ وَأَسْرَنَا <sup>(٢)</sup> ٣٧ (١)  
 كِبَارَ رِجَالِهِ عَلَى طُرُقِ الْبَشِ .

١٥ وَكَانَ عِدَّةُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةَ حِصُونِ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ <sup>(٣)</sup> أَهْلَهَا  
 بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا إِلَّا يَطْرُقُ إِلَيْنَا طَالِبٌ شَرًّا . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً  
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نَصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَتَّعَ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .  
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي  
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحِ فِتْنَةً ، وَتَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ،  
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »  
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْتَاهُ شَيْءٌ . وَحَسَبْنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا يُبْقَاةَ

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأسر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأثر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لا يُرَامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إتيانه لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوةٌ ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ الْمَرِيَّةُ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا  
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاقِدَيْنِ مُتَشَارِكَيْنِ فِي الْحَلْوِ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ - توجيهه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة  
وأخى المؤلف ، ونصره إياه

١٠ ثم لم نلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى جاءنا من أخينا تميم فحمة لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورنا ، وصلحنا مع سلاطين الأندلس ، وما صنعناه بجبهات المريّة ، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأولى ، لغرارة الصبا وقت اصطكاك القيتن والشغل الشاغل . فحسب الزمان كله واحداً . ولما سكبت عنه قبلي ، لهذه العلة على ما قدمنا ذكره من بدء أمره ، تهادى على تلك الأفعال . فأرسل قطائمه إلى حرب المنكب وشاط ، وخويلةً في إثرها للضرب على النظر للصاقب لها . وأتاني أهل تلك الجهات شاكين بالأمر ؛ فقلت في نفسي :

« هذا إنسانٌ لم يبصره الدهر ، ولا حكمته التجارب : ومتى تركناه \* على ٣٧ (ب)

هذا ذاتياً ، ولم نؤدّب به عليها ، تهادى شره ، وحسب أن ذلك لميئته ؛ فازداد ، ولا تنفع فيه موعظةٌ ولا قيلٌ ! » فلم نجد بداً من تأديبه وزجره ، فإن الشيء تحقره

٢٠ وقد ينسى ! وإنما كان ذلك الإغضاه لِمَعَانِ تَوَقَّعْتِ ، وانتظاراً به لحسن العودة

وروية البصيرة . فإذا قد يئسنا من هذا وأمتنا ما يُشغلنا عنه ، فتركه على هذه الضلالة من العجز والحرق ! »

ووافق ذلك الزمان اشتغال المعتد بأمر الفونش ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبب بها ؛ وضاعت الحال من أجله . فاتفق الأمر وتهيأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة . فهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهل حصونه ، ولم تدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصر بجهة صالحه أنه صار في ملكنا وطاعتنا رعيتة ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصى لدوى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصيرنا إلى الحمّة ، نروم منها أمر ذلك النظر . فأعلمت بصخرة دؤيس (ولا معنى لزيه إلا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جل عاكر مألقة مع قواد صاحبها ؛ فلو انزعت تلك الشوكة ، كان أمر غيرها يسيراً هيناً . فاستعددنا لقاتلها ، وضار بناهم في أول النزوع عليها . فجزع من فيها من الجنود ، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالمين في مهاجمهم . فأجبتهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جنودنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصن كان صاحب مألقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودخل قسراً ، وهو حصن أشد نير . ثم نهضنا إلى مريّة بلش ؛ فألقت يدها . وأردت التمدى إلى بزليانة .

٢٠ وكان كتاب \* بن تميم صاحب أربؤونة ، قائدنا ، قد استغلك (٣٨) (١) في تلك الجملة ، وزعم أنه لا يتعزل إلينا . فلما رأى ظهورنا في هذه المعاقيل ،



خاف أن يَصُقُّوا الجُوءَ ويصرف البال إليه ، فرام أن لا نَصِلَ إلى بيزليانة وحذر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْتِ مَس ، رأيتُ أنه لا تَمَكَّنْ لنا مُنَازَلَةً مَالِقَةَ إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ لِلْيَرَّةِ إِلَى الصَّحْلَاتِ . فَانصَرَفْنَا مِنْ بيزليانة نريد مُنْتِ مَسِ المذكورة ، وأظهرنا لكِباب الأخذ برأيه ؛ فسرَّ بذلك . ٥

ولما نهضتُ إلى مُنْتِ مَس ، رأيتُ مَعْقِلًا عَظِيمًا ، قد اجتمعت به جميع الرعايا ؛ فعرَضْنَا عليهم الطاعة ؛ فأبوا ، خيفةً منهم أن نكون غَدًا نُهَالِحُ أَخَانًا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمَّانَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ، وأعرَضْنَا عليهم الحرب بأنفسنا ، وترَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ وَانصَرَفْنَا إِلَى غرناطة . وفي انصرافنا ، طاعتنا لنا غيرها من المعاقيل ، مثل أَيْرُشٍ وَصَخْرَةَ حَيِّيب . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رِيئِنَةَ بِالسَّيْفِ قَسْرًا ؛ وَطَاعَتِ لَنَا جُطْرُونَ ؛ وَهَمَّا قَصَبْنَا مَالِقَةَ . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ عَنْ يَدِهِ عَشْرُونَ مَعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْتِ مَسِ ثَانِيَةً ؛ وَيُئْسُوا مِنْ تَرَكَهُمْ ، وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَقَعْنَاهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِسْكَاهِ بِنِيرِهِ ؛ وَأَمْنَتُ الْجِيَهَةَ وَبِحَثُّ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيِّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا أَهْلَهَا خَيْرًا . ١٥

ولما رأى أخونا مادهم من الأمر ، وقيام رعيته عليه ، خاف على نفسه من أهل البلد ، مع تبريزنا نحن عن مَالِقَةَ فِي حِينِ أَخَذِ مُنْتِ مَس . واشتغل بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون موضِعنا ، وتبعهم أكثرُ عسكرنا ، فاتهز أهلُ مَالِقَةَ الفُرْصَةَ ، لما رأوه من قَلَّةِ مَنْ فِي المَوْكِبِ معنا ، وخرجوا على باب فُنْتَنَالَةَ ، وحلوا على \* العسكر حَمَلَةً اختلط فيها الفريقان . ولما رأيتُ ٣٨ (ب)

يفرار من منا واختلاطهم بجند مالقة ، أمسكنا على العلامات ، وأمرنا بضرب  
الطبل بعد توليه ، حتى اجتمع إلينا بعض الناس لما رأوا ثبوت العلامات .  
ثم كانت لنا عليهم الكربة ، بعد أن أسير بعض رجالنا ؛ فأقتدوهم ، وهزموا  
عسكر مالقة ؛ وكان بها من جند البربر نحو ثلاثمائة فارس أنجاد ، إلا أن  
الحزم داخلهم ، ونزع إلينا أكثرهم . ٥

ولما رأى بعض من معنا تلك الهزّة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوفنا من  
تقوية ابن عباد أن تدخلها ما لا يمكن ؛ فقلتُ : « إن الانصراف على  
هذه الحالة عجز ! وسيشيع في الجهة كلها أن رجوعنا لم يكن إلا عن هزيمة !  
فالأولى أن نكسر يومين نبرز فيها كل يوم في الموضع الذي التحمت فيه  
الخيل ، نريهم : إن كانت بكم قدرة ، فعاوروا ما فعلتم ! » وثقتُ العسكر  
لثلاثين يومًا منه أحد . فكان ذلك . وأقلعنا بركة حتى وصلنا نظرنا على  
أتم ما يمكن . ولو رفعتنا أول تلك الوهلة ، خلت جميع المعاقل التي طاعت  
لنا ، وكأننا ما صنعنا شيئًا .

فبعيت الحال ضيقة على مالقة . وأرسل إلينا أخونا ، يستعطف ويسأل  
العفو وإقالة العثرة . فدبرنا أمره في أنفسنا ، وعلمنا فيه رأياً سديداً ،  
وعلمنا ما هو عليه من الحرص والشه والحدّة ، وأن صرف المعاقل إليه  
تقوية لشه ، وأنه ، إن عاود بما كان عليه ، لم تقدر له على شيء ،  
ولا تطوع بعدها رعيته إن أردناهم بعد ، لئلا يروؤن من إسلامنا لم  
إليه ، وخافوا أن يعاقبهم ، مع ما كانوا يتقون عليه من سوء الطريقة  
معهم ، يعلنون بذلك ؛ وأخذوا منا ميثاقاً غليظاً ألا نسلّمهم إليه ، وعاهدناهم  
على ذلك بأيمان مغلظة . وظهر من أقاويلهم أنهم ، متى ردّوا إليه ، لم

يجيبوا\* ، وأدخلوا الداخلة ، وصبروها إلى رئيس غيرنا . فخفنا من هذه ٣٩ (١)

الوجه ما يجب أن يتوقع .

ثم لم ترَ وجهاً في الإلحاح عليه ؛ فرُبما أخرقَ ، وصبرها إلى سوانا ، كالذي صنع ما كسن عننا بجبان ؛ فتكون مُصيبةً للبلدة ، وعاراً عظيماً ، من تولى بجزعنا وشقيقنا إلى غيرنا ، وتغريبه في البلاد ، وأمه في قيد الحياة ؛ ولو لم تكنْ ، فأبقينا عليه ، وقد أدبناه<sup>(١)</sup> بما كفى ، ووسعنا عليه في النظر مما لم تبقَ فيه من الرعية ، وكان مهماً عليه ؛ وأخلى لنا له ربيدنة وجطرون ؛ فإن رعيتهانصاري ، وهم بين النظرين ، لا يقدرن على نفاق مع أحد ؛ وأعطينا قري يتسع فيها لتراقبه . وبقيت يده حُصون الغريبة ١٠ مثل قرطمة ، وميشش ، وحارش ؛ وأعطينا قامرة ، بلد الزرع ، ليتسع فيها للحرث . وحرمانه غيرها ، التي يتوقع من أهلها ومنه : إن استأسد بها ، لم يؤمن شره .

وبقيت حاله في أفضل الأحوال ، مارصيت به الوالدة وحده جميع الناس ، صلةً للرحم ، وعفواً عند المقدرة ، وتأديباً لما يخشى عاقبته . وقر ١٥ حاله قراره ، ونفسه في هذا علينا حايدة ، تبلىنا عنه أقاويل سيئة ؛ ونحن لانرجع عليها ونقول : « إضراره بالقول خير من إضراره بالفعل ، لو صرفنا إليه الماقل ! وعلمنا أنه في عافية ونعمة طائلة مما عنده من الأموال التي ترك جدّه بمالقة ، لم يحوج قط إلى نفقة درهم منها ، ولا نالتة فتنه ، ولا بلغه مكروه ؛ وكنا نحن أمامه نُقاتل عنه العرب والعجم ، ونعطي عنه الجزية ، وهو في دعة ؛ فإذا كان يده فوق ما يكفيه لقلّة تموته واحتياجه ٢٠

(١) أصل : « دينا » .

إلى نفسه في التَمُون<sup>(١)</sup> والنفقات ؛ فَإِنَّ هذا كثيرٌ ، وهو تحت نِعْمَةِ جَمَّةٍ !  
 فطابت أَنفُسُنَا على ذلك . وكَفَّ هو عن كثير مما كان يرتكب من القتل  
 والظلم ، حتى أَنه لا يَرِدُنِي من عنده رسولٌ من أهل بَلَدِهِ أو جُنْدِهِ \* ٣٩ (ب)  
 إِلَّا ويوصِي أَن نشدَّ يدي عليه ، ويقول لي : « بتأديبك له فَلَخْنَا وكَفَّ  
 عَنَّا ، وإِنَّه ، متى يَأْمَنُ منك أَمْرًا ، طغى علينا ، وشقينا به . وما في الدنيا  
 أشعْرُ منك في إِمْسَاكِ تلك المعاقِلِ عنه ؛ فَإِنَّكَ كنتَ بعد هذا لا تلجمه  
 أَبَدًا ! » فخرجت الأمور خَيْرَ خَرَجٍ ، وَأَمَّا جِهَتُهُ بَسْتَرَهُ في مكانه ، ولم  
 نَفْجِعْ فيه أُمَّه .

#### ٤٥ - ذكر ثورة كِبَابِ بن تَمِيْتِ وثورة بني تاقنوت

##### ونهايتهما

وإنَّ كِبَابَ بن تَمِيْتِ ، قائدنا بأرْجُدُونَ وأنتَقَبِيَّةَ ، لما رأى ظهورنا  
 على مَالِقةَ ، أَكْبَرَهُ ذلك وشقَّ عليه ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ منجِرٌ إليه ، إذ  
 كان قد أَضْمَرَ نفاقًا وطاعةً في مَعْصِيَةِ ، لِمَا تَأَسَّسَ له هناك في حين الفتنة  
 من ضَمِّ الأَطْعِمَةِ ، والاستحواذ على أموال الناس بقطع السُّبُلِ ، واتقطاع  
 أهل الشرِّ إليه من كلِّ قطري . وكان أمرُهُ من ذُنُوبِ مِمَّا جَاءَ عندنا ،  
 الذي سوَّغهُ البلد ، وجعله مِلْكَاً في يده ويدي بني عمِّه ، حتى شقَّ به .  
 ولما تمَّ صَلْحُنَا مع المَعْتَمِدِ بن عَبَّاد ، خَالَفْنَا فيه ، وجعل يُفْسِدُ وبنقض  
 ما أبرمناه من ذلك ، ولا يقرُّ عن الضرب . فجعلت أقدامُ إليه المرَّةَ بعد  
 المرَّةَ ، وأنذره عاقبة اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وأقولُ له : « إنَّ للمصالحَةِ وقتًا ينبغى

(١) أصل : « التَمُون » .

للمرء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فأنت من المطالبين لى ا « فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإيجابه وتجاوئه . وكانت كتب المعتد أبداً ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفه غائلة . وكانت من سعادتنا أنه لم يحمل المعاملة مع أحد القريين .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتد : « لا أستطيع على عزل كباب إلا بالمجاهدة في مفاسده ؛ فإن استوثقنا منكم أن يترام عليكم ولا تقبلوه ، فنحن ضامنون لعزله ا » فارتبط معى على أن لا تقبل له رجعة ولا تُقال له عثرة . فألحختُ على كباب في أن ينزل عن العقيلين ، ثقةً منى بما ربطته مع المعتد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عباد ، \* يرغب في تصير الحصون إليه . فأرسل إلى المعتد بكتابه ،
- ١٠ وحضنى على شد اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا مما تقدم ذكره من إنصاف المعتد لنا وقلة خلافه علينا منذ فارق ابن عمار ، كالذى أجبنا نحن مع فى أمر بياسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلت كتابهم إليه .
- وإن كباباً قبل ذلك ، لثا رأى صديقنا بمالقة ، على ما قدمناه ، نظر
- ١٥ — فى زعمه — لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ا وطاعت له الرعايا ا فكيف بمن هو عبد من عبيده ؟ » وأحسن ذلك فى نفسه ابن تافنوت ، صاحب مدينتنا ؛ وكان امرء سوء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشر ، وكان له أخٌ بحصن جريشة ، قد سوغه أيضاً سماجة إقليم نيمش كله ، وطال مكثه فى الحصن سبعة أعوام ؛ فسولت له نفسه ، مثل ما أضمر
- ٢٠ كباب من النفاق ؛ فتعاقدنا جميعاً وتحالفا أن لا ينزل أحدهما إلا بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرَ في أمر ابن تافنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المعتَمِدِ عليه آكدَ ، إذ علمتُ من حنقه على كِبَابِ أنه لا يقبل له معذرة . فعاملتُ على ذلك أيضاً بأحسنِ مُعاملة ، وتسرحُ بـ ٥ بـسكركه قُوَّةَ إن احتيجَ إليه لحرب جريشة ، وشاركته غاية المشاركة في التوسطِ بَيْننا وبَيْنه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كنتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاترك حِصنه ! وأضمنُ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنتَ لا تثقُ بهذا كلِّه ، فانزلْ إليَّ بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألاَّ أسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلاَّ إن قال : ١٠ « وما تصنمون بالحِصن ؟ » قال : « أُصيرُه إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنَّما أريد أن أجلَّ التَّعْقِلَ بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولَّى فِتْنَتَه ! »

فأتاني ابنُ\* الأصبَحيِّ رسولُ المعتَمِدِ ، التوسطُ لخبيره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزِّمُ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ » ؛ وهو متأهَّبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلاَّ الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كلِّه يقطع السُّبُلُ ، ويُخيف الناسَ ، ويقتل أهل الرِّفق ، ويُطلِّع أموالهم إلى الحِصن ، ما كان ١٥ أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخرتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستة أشهر ، لا تُبالي عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رقت حاله ؛ وأنا في هذا كلِّه أقدمُّ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أخذته على غيرِ عهدٍ ، برَّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل ٢٠

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مِنِّي شيئاً ، فوالله ! ما تَرِدُ عليه هذه  
الكتُّبُ إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحماقةً ، حتى يسَّرَ اللهُ أَخْذَهُ ، ودُخِلَ  
الحِصْنَ ، وكفى اللهُ شرَّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورتُ كبارَ البلدة وُقهاءها في خَبَرهم ؛ فخبَّروني في الذي حضَّ اللهُ  
عليه من قوله تعالى<sup>(١)</sup> : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصَّلب ، وأنه  
أدهى وأمرُّ من أن يُنْفُوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان  
للمسلمون مُرتَقِبِينَ لِمَا حلَّ بهم ، ووالله ! ما صرفتُ وجهي لأحدٍ خاصَّةً  
وعامةً من أهلِ بلادِي إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع  
الناس . ولقد كان يومُ قَتْلِهِم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم  
بالراحة من شرِّهم .

وإنَّ كَبَّابَ بنَ تَمِيمِ المذكور ، لما رأى ما صُنِعَ بيني تأقنوت ،  
زاده ذلك حماقَةً واستيحاشاً ، وخاطَبَ الْمُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذِكْرَهُ .  
فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلُّ عن المَعْقِلَيْنِ ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ  
بالَّةِ الحرب ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُلَ ، وقطع\* الطُّرُقَ وأتى بما هو (١) ٤١  
مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ اللهُ على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد  
واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسنَ من  
نفسه بالضعف ، وأنه لا ملجأ له ولا مهزَّبَ إلى أحدٍ بقلةِ إقبال السلاطين  
عليه ، تَرَامَى علينا ، وسأل العفوَّ ، خوفاً أن يحملَ به ما حلَّ بيني تأقنوت  
إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا العَفْوَ بعد الإِسَاءَةِ ، فلا يَيْئَسُ من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُغْفَةً لمن نَفَرَ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وكنّا لا نُقدِّم شيئاً ولا نوخِّره من هذه الأمور إلّا بعد رويّة وفكرة في العاقبة ، ونَدَعُ مشورة الناس ؛ فإنّا بَلَوْنَا منهم قلة التحقيق ، والنطق على الهوى : فإنما مَقْتُونٌ بأمرٍ يُزِينُهُ ويحمل عليه ، وإِثْمًا كَارِهِمُ لَخَيْرٍ أو مطالبٍ لأحدٍ ، فيجعلنا نحير عن ما لا يطابق هواه ، ﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾<sup>(١)</sup> . فلَمَّا بَلَوْنَا من الناس هذه الشئال ، وأن كلَّ أحدٍ يجبُ أن تجرى الأحكام على اختياره ، رَجَعْنَا إلى إثارة اختيارنا ، إذ كان نظرنا لأنفسنا أُرْتَدَّ من نظر غيرنا ؛ « وما حَكَ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ »<sup>(٢)</sup> .

وكنّا مع هذا نصغى إلى قول الناس بالأذن ، لا بالعقل ؛ فتقيس عليه ونختير مُرَادَهُ ، ولا نُزِيهِه الخلاف ، فنوحِشُهُ ، غيرَ أنّي أوسيع لهم صدرى ويسعُ جهلهم حلقى ، وأقضى بعد ذلك ما أريد ، إذ لم أكن على أمرٍ مجبوراً ولا مقهوراً ، إلّا ما قهرتني عليه السياسة ، وما تُحَمَّدُ له العاقبة ، كَمَنْ يتجرّع الدواء ليُرْءِءَ الداء ، ولم أكنُ أَعْتَبِنِ لأحدٍ في الحقِّ من جهالة ولا غفلة ، إلّا أن تكون مسامحةً وتناؤلاً لأمرٍ يُراد ، أو مُتَبَاعَةً للقول في حينه تَلَطُّفًا وقلة خِلافٍ على قائله ؛ ثمَّ أصرّفه تارات . \* فالجاهلُ عندنا مَنْ<sup>(ب)</sup> ٤١ إذا أشارَ برأى ، ثم رأى أنه صُنِعَ ضِدُّهُ ، أن يعاودَ القول فيه : فإن كان

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للبيداني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .



فَطِنًا ، من التَّسِيُّ التَّكْرَارُ ؛ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ ، فَالْتَذَكِيرُ بِهِ غَفْلَةٌ .  
 اسْتِنْقَاصٌ لِمُحْدِثِهِ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ الْأُولَى ، فَتَجَرَى عَنِ الْأُخْرَى  
 خِلَافَ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ الْأَمْرَ قَدْ ظَهَرَ لَهُ ، وَخَفِرَ عَنِ الْقَائِلِ ، وَلَمْ يُرِدْ  
 عَلَيْهِ ؛ فَيَكُونُ فِي رَأْيِهِ الْبِرَّكَتَةَ وَالْخَيْرَ لِلْفَرِيقَيْنِ ؛ وَهُوَ يَلُومُ عَلَى مَا لَا يَدْرِي  
 وَيَتِمَادَى جِهَالَةً ، وَيَنْطِقُ هَذَرًا ، وَتَنْحَرِفُ نَبْتُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْنَى ؛  
 ظَلَمًا لِنَفْسِهِ .

فَأَوْدَعْنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمَّنَّاهُ ، وَبَقِيَ فِي جِلَّةِ الْجُنْدِ تَحْتَ مَا  
 وَإِحْمَالٌ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْهُ بَعْدَهَا فِي مَعْقِلٍ ، وَلَا مَكْنُتُهُ مِنْ  
 إِذْ « لَا يَلْدَغُ مُؤْمِنٌ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » (١) .

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

## الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لِيَّط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وبقيت أحوالنا على أفضل ما يمكن ، وبلغنا من آمالنا غايتها ، إلى أن  
حدث أمر المرابطين — أعزهم الله — . وكنا رأينا كلب النصراني على  
الجزيرة وأخذه لطليلة ، وقلة رفقته ، بعدما كان يقنع منا بالجزيرة وصار يروم  
أخذ القواعد ، وأن أخذ لطليلة للضعف للتوالي عليها عاماً بعد عام ؛ وكذلك  
كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألا يُنازل معقلاً ، ولا  
يُفسد أجناده على مدينة ، لبعده مرامها ومن فيها من مخالفي ملته ، وإنما  
١٥ كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام ، ويعنف عليها بما شاء من أصناف  
التعدي ، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فعلت .

فوقع من ذلك في الأندلس رجّة عظيمة ، وأشرب أهلها خوفاً وقطع  
رجاء من استيطانها . وجرت بين المعتد والفونس مخالقات كثيرة ، وسأله

أن يتخلى له معاقل كان الموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،  
 ورام كسره بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدر الذي شاء الله :  
 إذا لم يكن عونٌ من الله لآفتى فأكثرُ ما ينجني عليه اجتِهادهُ  
 \* وقد كان أخونا صاحبُ مآلقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٢ (١)  
 ٥ داخلهم قبلُ استغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنَّا بهم ، وأن يُدركوهُ  
 ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وظنَّ أنه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني  
 وبينه . وكان هذا الخلافُ كلُّه من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشنُّتنا  
 أنه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِبهُ الأميرُ  
 إلى شيء ، ولا كان وقتُه ، وهو يُبلغُ عليه بقلةِ الدربة .

١٠ ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال

### المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسلُ المُعتمدِ قبل هذا قد وردت عليه ، تعلمه أن يتأهبَ  
 للجهاد ، وتمدُّه بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبتة إلا ويضعها  
 في يديه . فلما وصل متأهباً لتلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسله إلى  
 ١٥ المُعتمدِ ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأُحسن ؛ فأمنسكهم بإشبيلية مُدَّةً  
 طويلةً ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلِّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ  
 إشبيلية من يقول له : « ترَبِّصْ من سبتة مُدَّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن  
 نُخلى لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسأله خطاً يده وبالترَبُّص .  
 فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عبَّاد في هذا الالتواء إلا  
 ٢٠ لأنه يُريد أن يرسل إلى ألفونس يعلمه بقدمك ؛ ولعله يتأبى له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها . وإن كان النصراني لا يتأخى له ، أَرْسَلَ إِلَيْكَ في الجواز ! »

- ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
- ٥ جهَّز عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تصل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصَّنَاعَةِ . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتُ مَحَلَّتَهَا ، لم يُدْرَ متى أُقْبِلت ؛ ولم يُصْبِحْ لهم إلا وطائفةٌ أُخْرِجِي بعدها ، يزيدون ويتراذفون ،\* حتى انكسر (ب) ٤٢
- العسكر كله على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْهَا بِمِجْرَسُونِهَا .
- ١٠ ونادى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بِالْجَزِيرَةِ ! وَنَحْنُ نَأْتِي لِأَخْذِ بِلَدَةٍ وَلَا ضَرَرٍ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَأَمَّا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَاصْنَعِي ! »
- وخطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عبيد ، يُعلمه بما صنع ، ويقول له :
- « كَفَيْنَاكَ مَوْثِقَةَ القَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتِ ! » فأرسل
- ١٥ المُعْتَمِدُ لابنه الراضى في إخلائها لهم ، وحصل فيها داوود . وأتى الأميرُ إليها ، ودخلها ناظراً إليها ؛ ثم انصرف إلى سَبْتَةِ إلى وقت إقباله . وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إِشْبِيلِيَّةِ ؛ فاستوفت العساكر على إِشْبِيلِيَّةِ .
- وقد كان رُسُلُنَا مَضُوعاً مَعَ رُسُلِ المُعْتَمِدِ إِلَى أميرِ المسلمين ، على اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا فِيهِ بَعْضاً إِلَى حَقِيقَةِ ، وَعَاقَدْنَا أميرَ المسلمين على أَنْ تَتَّصِلَ الأَيْدِي عَلَى غَزْوِ الرُّومِ بِمَعُونَتِهِ ، وَالْأَبْرَاضَ لِأَحْدَانِنَا فِي بِلَادِهِ ، وَلَا يَقْبَلَ عَلَيْهِ رَعِيَّتَهُ مِنْ رُومِ الفَسَادِ عَلَيْهِ .
- ٢٠

(١) أصل : « لابن » .

## ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [ أمير المسلمين ] ، عند حُلُولِهِ بِإِشْدِيدِيَّةٍ ، عن جميع الرؤساء ؛ فَأَمَّا ابْنُ صُمَادِحَ ، فَأَبَى عَلَيْهِ [ وبقى ] مُتَرَبِّصًا لِيَرَى كَيْفِيَّةَ الْأَمْرِ وَتَخْرُجَةَ مَعَ الرُّومِ ؛ واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِرًا . وبأدْرُنَا نَحْنُ إِلَى الْخُرُوجِ ، وَسِرْرُنَا بِذَلِكَ ، وَأَعَدَدْنَا مَا اسْتَطَعْنَا عَلَيْهِ لِلجِهَادِ بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَقَدَّمْنَا الْهَدِيَّةَ إِلَى أمير المسلمين ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ الطَّيْلِ وَمَا يُسْتَعَدُّ بِهِ لِلْفَرَحِ ، عِنْدَ مُخَاطَبَتِهِ لَنَا بِدُخُولِ الْجَزِيرَةِ . وَظَنَّنَا أَنَّ إِقْبَالَهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لَا سِيَّمَا خَاصَّةً مِنْ أَجْلِ الْقَرَابَةِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنْ خَيْرِهِمْ ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَحُكْمِهِمْ بِالْحَقِّ ؛ فَنَعْمَلُ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا فِي الْجِهَادِ مَعَهُ كُلِّ عَامٍ : فَمِنْ عَاشَ مِنْهَا كَانَ عَزِيزًا ، تَحْتَ سِتْرِ وَحَمَايَةٍ ، وَمَنْ مَاتَ كَانَ شَهِيدًا . وَالْعَجَبُ فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ ، \* وَإِخْلَاصِ ٤٣ (١)

الضامر ، كَأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا جَمَعَتْ عَلَى ذَلِكَ .

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيْوَسَ بِجَرِيْشَةَ ، وَرَأَيْنَا مِنْ إِكْرَامِهِ لَنَا وَتَحْفِيهِ بِنَا مَا زَادَنَا ذَلِكَ فِيهِ رَغْبَةً ، لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَمْنَحَهُ لِحَوْمَتِنَا ، فَضْلًا عَلَى أَمْوَالِنَا . وَلَقَيْنَا الْمُتَوَكِّلَ ابْنَ الْأَفْطَسِ مُحْتَفِلًا بِمُسْكِرِهِ : كُلُّ ١٥

يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن على الموت نفسه .

## ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونس السادس

وَتَلَوْنَا بِبَطْلَيْوَسَ أَيَّامًا ، حَتَّى صَحَّ عِنْدَنَا إِقْبَالُ أَلْفُونْسِ فِي حَفْلَةٍ ، يَرُومُ الثَّلَاثَةَ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْجَيْشَ لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ قَبْلَ . وَسَاقَهُ الْقَدَرُ

إلى أن توغّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يإزاء المدينة ، متربّصون : إن كانت لنا ، فيها ونعمت ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومثقالاً نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدبّر هذا الأمر بحسّن رأيه ، ويلتوى ، عسى [ أن ] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن ينجح إلى التوغّل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورَجَا ٥ بأن يكون الرومي لا يخرجُ إليه أحدٌ ، فينصرفَ طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُربيه الأور وجوهها . فلا يُسمع إلا الأميرُ متربّصاً لالتياثِ طافَ به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مدوّخاً لها . والنصرانيُّ في هذا كله يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب من يُغلب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيفُ ؛ ولو لم يكن إلا يأكله الطريق ويُبعدُ المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأفضس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أقبلتُ أريدُ ملاقاتك ، وأنت تتربّص وتختبئ لأصل المدينة ! » فلم يكن بُدٌّ أن يُنتقل إليه ، ليكون الجيش على مقربةٍ منه . وتوآعدا ١٥ اللقاء في يومٍ سُمّيَهُ . ولم يكن بينَ المحلّتين إلا نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد ، \* وحلّ الناس عن أنفسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب) خيرةً أن لو ركبَت الفِئتان ، لم تفصل إلا عن قَدِّ الأكثر من عسكر المسلمين ، حسباً تُوجِبُهُ الموافقة للقتال .

فَجَآهُم عَسْكَرُ الروميِّ ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنَّما له ٢٠ ما ألقى في تلك الساعة ، وألقى سُمَّهُ في الرَّحْلِ ؛ ومات منهم خلائق ممن لم يكن يقدر على نفسه . فلم تقع الصيحة على الجيش [ إلا ] وركبوا في

طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلأق ، وتبددوا في الطريق فن بين قتييل وميت متقل ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لُقِدَ من العسكرين الأكثر ، كالذى توجه الرتبة ؛ لكن الله لطيف بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر .

٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزوته تلك، جعنا في مجلسه ، ألقى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والاتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تقترصنا إلا للذى كان من تشئتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجاب الكلى أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

واتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالقة ، وقال من غير روية :  
 ١٥ « إن أحوالى قد ضاقت بتعدى أخى على بلادى وميراث جدى ١ »  
 يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه منا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك فى هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ا » رد عليه : « ما ينبغى لنا ذلك إلا برضاه ا » ولم يمكننا فى ذلك الحين السكوت لئلا يلزم من شكر الأمير ،  
 ٢٠ و [ كانت ] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا إلا ينتسب إلينا بعد نسبة .

\*قلتُ له : « إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايته إلا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ ( ١ ) وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منَّا أحدٌ حصلَ على شيءٍ بقدرته ، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أن ما قَعَّ لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذى كانت في حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصلٍ . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تنيك عتًا ، ولما تعدَّيت المرَّة بعد المرَّة ، سمينا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التى تجبُ بانحياشك ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتبَ الشيخ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ! وإن رأى ما فعل من ذلك سدادًا وصلاحًا ، فلأى وجه نكلفه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمتُ بهذا ، وقعتُ مُساكنةً . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعدْ في ذلك بعدها مجلسًا إلا في سفرةٍ ربيط للعمونة . ١٥

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد أطلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلمتنا ما لم يرَ وجهًا لبقائنا في الجزيرة . وأنس الجميع ؛ ولم يتربص في البلاد إلا يُوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعييهم إليه ؛ فكلُّ من شكَا إليه ذلك الوقت من رعيّة ، يقول له : « لم نأت لهذا ! والسلاطينُ أعلمُ بما يصنعون في بلادهم ! » حتى ازداد بذلك محبةً إلى ما كان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامةً وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه . ٢٠



٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لبيط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خوفاً وانكاشاً . ولم تزل الحالُ سالحةً إلى سفرة لبيط .

٥ وإنَّ الْمُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادٍ ، لِمَا رَأَى من خِلافِ ابنِ رَشِيقٍ عليه ، وَأَنَّهُ أرادَ أنْ يَضَعَ ابنَه الرَّاظِيَّ بِمُرْسِيَّةٍ عِوَضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمانينة ، ويحكم معه\* ما شاء من ٤٤ (ب) عملٍ في مُرْسِيَّةٍ وغيرها . وَعَظَّمَ له شَأْنَ لَبِيطٍ ، وَأَنَّهُ في قَلْبِ البَلَدِ ، وَأَن لا راحة للمسلمين إلا بفقده ؛ وعاقدهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَتَهَيَّأَ سَلَاطِينُ الأندلسِ حَرْبه بِعُدَّتِهِمْ وأَجْماعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مَن يُقْلِعُهُمْ عنه .

١٥ وَأَتَقْنَا كُتُبَ الأَمِيرِ ، يَأْمُرُنَا عند جواره ، بالاستعداد للقتال وما شاكل ذلك . ففعلنا ، وبأدبنا ، رغبةً في الجهاد ، ومحبةً فيه ، وإيثاراً له ؛ وخرَجْنَا إليه ، ولقيناَهُ في حَيْرٍ من بَلَدِنَا ، بما يُطابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتحف . وَأَجْمَعْنَا على السير إلى لبيط .

٢٠ فنزلناه على أتم ما يمكن من الرجال والعدد ، كلُّ رَيْسٍ يقاتلُهُ على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعته وحيلته ؛ وهو قد امتلأ برعية الجبهة ، كلها من النصارى ، وأعدوا فيه ما يحتاج من كلِّ شيء ، قتلَ مَن نَظَرَ على سعة ؛ وهم في ذلك يهددون بمجيء ألفونس ، ويريمون الحيلة بالتفكير كل ليلة ؛ والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر ، مع البُنيان في المواضع

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والمرايات ، حتى لم يبق عمل يوم  
به اقراص المعاقل إلا وصنع . وأتى ابن صامح بفيل أقاته ، وخرق  
به العادة : أصابه من الحصن قبس نار ، فأخرقه . وفي كل ذلك  
لا ينجح عمل ، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة ، لما شاء الله من اختلاف  
الكلمة . ٥

## ٥٢ — محاصرة ليبيط تصور فوضى ملوك الطوائف

في ذلك الحين

وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . ورعيهم  
في ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه : فالراضي منهم  
يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ؛ وجلوا في شكوايهم قهواءهم  
١٠ وسائط ، يقصدون نجوم : منهم الفقيه ابن القليبي ، قد صار خياؤه بتلك  
المحلة منتظيها لكل صادر ووارد ، يجد بهم السيل إلى الطلب ،  
للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من  
١٥ مغارم الإقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإنفاق ، ما قلق به  
وساء الظن من أجله : \* جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم (١) ٤٥  
المرابطين كثيرة ، وتنف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت  
عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة ؛ فلا  
حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى  
٢٠ استئصال ، كالذي جرى .

ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهدداً وعصياناً أنكرناه ، لا تمُّ به مملكةٌ ، ولا يتهباً معه قضاء حاجةٍ . ولقد كان القليليُّ المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويمدُّهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفزُ مِنَّا ، يقعدون بنا ، ونحنُ أخوجُ ما كُنَّا إليه للإفناق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدتُّنا فيها الأقاتُ إلا بالشراء كلِّ يوم . فدخل علينا من ذلك ضررٌ شنيعٌ .

وظالت تلك المحلة اللعونة ؛ فكأنما مِثْلُ أَبانِ الطيبِ من الخيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزدد الرؤساء إلا تَوْحُشًا ، ولا الرعيَّة إلا تَسَلُّطًا ، ولا الداخِلون على مِثْلِ هذه النصبِ إلا طمعاً ؛ وحُقَّ لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفِرَق : فن اغتَرَّ منهم طالبٌ صاحِبَه ، وهو المطلوب ، وشغلَه ذلك ممَّا هو في سبيله ؛ ومن ميَّز ، انفراد ، لم يجد مُعينًا حتَّى تَوَغَّلَ في اللجَّة وأخذته المحلة . وكانت مقدِّمات سوء ، وزمانًا على السلاطين عسيراً ، وسعدًا للرُباطين مُقتَبِلًا .

### ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رَشِيْق

١٥ وأبى ابن رَشِيْق عند ذلك مُنْسِدًا برَّعه لِمَا عقده ابن عباد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرُباطين ، وسارعَ إلى قضاء الحاجات . واصطنعَ إلى الأمير سير - أعزّه الله - وعوَّل عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابنُ عباد يده في قرور ، مُعوَّلًا عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكثِر على كلِّ حال يغلب المُقلِّ ، وإن شَفَّ عليه باليسير .

٢٠ وأعطى ابنُ رَشِيْق الأمان ، وبُوْلِغَ له في التأنيس ، حتى غرَّه ذلك

- وانبسط له ؛ وتاه على ابن عبياد ، وأظهر متصيته والانخياش منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسنداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمُرُمِيَّة على اسم أمير المسلمين دون ابن عبياد .
- والتعميد ، \* في هذا كله ، يَرى من الأمر ما يفيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حسرات ؛ وحق له ؛ فلم يَمِّم عن القضية ؛ وأحكمتها مع الفقهاء ، واحتج عليه بأحكام السنة ؛ وكان ممن اصطنع على ذلك ابن القُتَيْبِي ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرى ابن رَشِيْق ما يَحلُّ به ! فقد شُورنا في أمره . وإن جُعلَ لنا نَجْلسٌ لغيره ، فَعَلنا به مِثْل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة ممَّا أَوْحَشْنَا وغيَّرت أنفسنا عليه ، مع تهديده تلك
- ١٠ السفرة ، وضرِّبه الأمثال ، وحِدِّقَ مَعَانِيه ، واستطالته بلسانيه ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان : فتكون له الحُجَّةُ ، ونَقَعَ نحنُ في الخزي ، لاسيَّما بما كان يَنْتَحلُّ من [أهل] العِلْمِ .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عبياد مع ابن رَشِيْق ، واختلافَ ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَه ، ودبَّره برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفاسدةُ ابن عبياد من أجل ابن رَشِيْق ، لاحتياجنا إليه فيما نحنُ بسبيله ، ونحنُ لم نأمن أمرَ الرُّومِيِّ . والأوْكَدُ علينا في هذا الوقت مُداراةُ ابن عبياد ، حتى تُرِينا الأمورَ وُجوهها ! » فتعسَّف على ابن رَشِيْق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يجبُ لك أن تُقدِّمَ بدعوتي للقيام على رئيسك ، فتوقَّعَ بَيْتِي وبَيْتِه الشحاء ! » وقال في نفسه :
- ٢٠ لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيْق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحِجَّتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معوته للرؤوم بليط لم تخف على أحد ؛ يستعد أن يبقاها يثبت في مرسية ! « فكان أبدا يبرهم ويقويهم بما يسجزون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخوفا من الداخلة عليه بقدومهم .  
وصح ذلك عند الأمير ، والمعتد في هذا كله لا ينأ عنه ، ويستقي فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أول أخذه لمرسية . فاتفقت عليه الأسباب ، وصنع له مجلس أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ، وإسلامه لسultanه . فاستغاث عند ذلك \* بالأمير ؛ فأجابته : « إنه لو كان لك عندى حق ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السنة ، لا أستطيع على إزاحتها عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفه وإسلامه إلى المعتد . وقيد في الحديد ، ورأى هوانا عظيما . وأمر للمعتد الراضى ابنة أن ينزل في تحلته على المقام ؛ وكأنه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مرسية يأمرهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كل من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم وجفوا كل من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة تكررت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .»

٥٤ - رفع الحصار عن لبيط .

١٥

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت المحلة ، وطال مكثها ، ومل الناس إلى أن ورد الخبر بقدوم الفونس إليها ؛ فسأت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين أن الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع جام القاديين من الرؤوم ومع خلاف مرسية ، لتلا يسندوا إلى ميرها ومرافقها

٢٠

إذ أنهم أرسلوا عن الفونش وقت خلافهم . فأخذ في الانصراف .  
 ووقعت بين المعتد والمعتصم ، صاحب المريّة ، مشاجرات وتباعدات  
 باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى  
 إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المقضية عليهما .  
 ٥ ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مائة ؛ وجعل يكرّر في ذلك  
 النظر الذي تكلم فيه سفرة بطليوس ؛ وحفز في ذلك برّعه ، وقال لي  
 بقلة درّيته : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكري له عند انفصال  
 الأمير ، فلم يدرك ولا أذكر كنا والآن ، فلا بدّ من ذكره على سعة ؛  
 وإلا ، فالحق بيني وبينك ! » فلم تحفّ لقوله ، ولا كابرته ، لعلى أن  
 ١٠ الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ،  
 أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإن  
 السلطان لا يسعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه  
 عليك يدًا ، غير أننا نلوى القصة مرّحة \* بعد مرّحة ، حتى يقع  
 الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إن غرناطة عليه آكد من  
 ١٥ مائة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛  
 فقدم أنت الآن ، وأعدّ جهدك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [ كان ]  
 خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرّني ذلك ،  
 وتقدّمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

## الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٤ ) سياسة عبد الله بعد عودته من لييط : إجراءات

### دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لييط . مسلك قرور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلى قبل في لييط من جفاه قرور  
وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني  
حسبت ذلك من قبلي لما رأيت من مكاتته عنده . فأذرتني من ذلك رعب  
شديد . وعانيت مع هذا ما حلّ بابن رشيقي ، وسمعت وعيد القليعي لي ،  
وجفاهه علي ، وإزالة رقبتي عنه ، ما زادني ذلك جرعا ، لاسيما أن الجزع  
والسوداء متمكنة من نفسي ، وأجدّها في طباعي ؛ كذت أن أموت غما .  
١٠ ولم أر قط قبل ذلك ذلّا ولا كدرا ؛ فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ،  
على حسب ما كان يُكرمني سفرة بطليوس ، ورأيت ضد ذلك كله ؛  
وقرور يُناصبني المداوة ، ويرسل المشاورين إلى هواني ، ويأمرني في حال  
تلك الحرب بأوامر باردة ، يُريد بها إذلالا ، ويُظهر إلى فيها التعنيف  
١٥ والتعسف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فعلمت أن ذلك ليس

لنِيَّةٍ صَلُحَتْ ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ وَدَقَعَتْ إِلَيْهَا ضَرُورَةٌ مِنْ قِبَلِ الاجْتِيازِ عَلَى .  
 ولأجلِ ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خَبَرِ أَخِي ما قال ؛ وتبين لي أنه ،  
 لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يَطْلُبْ قَرُورٌ مِنِّي عليها رشوةً . فإنه مع  
 ذلك لم يُخَلِّني من مُؤَنَّتِهَا ، وعمل لي حُجَّةً في دَفْعِ ضَرَرِ أَخِي عَنِّي ،  
 ٥ وأخذ مِنِّي عليها ألفَ دينارٍ مُرابِطِيَّةً ، لم أَتَجَرَّأُ قَطُّ على ذِكْرِها مَدَّةَ حَيَاتِهِ ،  
 لئلاَّ يَطْلُبَنِي عند الأمير ؛ ثُمَّ لم تَنْفِصِلِ ساعةً أن انصَرَفَ ، وطلبَ لِرَبِيبِهِ  
 خمسمائةَ دينارٍ ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كلُّ ما يَطْلُبُ بِأَمْرِهِ وتَهْدِيهِ ، مع قَلَّةِ  
 رَحْمَتِهِ ورفقهِ ، \* وخشونة لفظه . ثُمَّ أعطيتُهُ في غرناطة ألفَ دينارٍ أُخْرَى ٤٧ (١)  
 بِاسْمِ كِسوةِ خَيْلِهِ . وأما الذي صار إليه في سَفَرَةِ بَطْلِيوسِ ومُدَّةِ كَوْنِهِ على  
 لَيْبِطٍ مع الرُّسُلِ ، فأكثرُ من أن يُحْصَى ؛ وهو في ذلك كُلِّهِ لا يزداد إلاَّ  
 ١٠ نَفاراً واستكباراً . ومثل هذه الوساطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً ، وتُبغِضُ  
 إليه جماعَةً .

[ أرسل في ] أميرُ المسلمين ، وأنا يَمْكِنَاةٌ ؛ فسألني عمّا صار إلى قَرُورٍ  
 من قِبَلِي ، فرَوَيْتُ الأَمْرَ بِأَحْزَمِ ما يَمْكِنُ ، وقلتُ في نَفْسِي : « إن أَعْلَمْتُهُ  
 ١٥ بذلك ، وهو على حال التمكنِ عنده ، فربِّما أخرجهُ كِتَابِي عليه . وقرَّعهُ به ؛  
 ثُمَّ استقرَّه على مرَّتَيْتِهِ ؛ فيكون حَتْفِي على يَدَيْهِ ؛ ولو أتى نَأْمَنَ مَكْرَهُ ،  
 لأَعْلَمْتُهُ بالحال ، أو رُبِّما يَقَعُ الكِتَابُ إلى يدِ قَرُورٍ من غيرِ تَعَمُّدٍ ، والنعرَ  
 لا يدخله إلاَّ أهْوَاجٌ ؛ وكثيرٌ من الحقِّ يَجِبُ تَرْكُهُ ، [ وفيه فائدةٌ ] بِصَاحِبِهِ ؛  
 فلم يَسَعْنِي أن أقولَ في جوابي للسلطانِ إِنَّهُ لم يَصِرْ إلى [ بغيرِ رشوةٍ ] ؛  
 ٢٠ فيكذَّبُنِي ؛ إذ كان يعلم بلا شكِّ أَنَّا لم نُخَلِّهِ من ذلك . . . . . الدفع التي



أعلمني رُسُلِي . وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا . . . . . حَيْثُ بَصَدَّقُنِي ، وَلَا يَقَعُ  
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي . . . . . (١) »

### ٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل ابن القليبي

- ٥ [ أَمَا أَخُونَا تَعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالِقَةَ ، ] \* فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رِبًا  
مِثْقَالًا ، يَسْتَعِظُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ  
الْمَذْكُورِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .
- وقال لي ابن القليبي : « هذا وقت اقتراضك لهذا الرجل ، بأن  
تكتب إليه ، وتعدّه بالقضاء عند انصرافك ، وهو يسمح في قصة أخيك ،  
على أن يجعلني معه في أحكامه . فإذا ألتصقتني به ، رأيت عجائب من  
١٠ تأتي الأمور على مرغوبك عند الرباطين وفي بلادك ؛ فإنك ، لو شئت أن  
تأخذ من أحدٍ درهماً بنير الناموس ، لسمج عند الناس ؛ وإذا أخذت  
ألقا على وجه الحق ، حل لك أخذه ، ولم يستبشعه أحدٌ . ولا أجد  
أحدًا [ ينفع لك ] مثل هذا الرجل ! » ولم يُبارِخني حتى دفعتُ إليه  
بخط يدي رُقعةً تتضمن له القضاء ، وما يترتب له عليه من مُسَاهةٍ ومُشَاهرةٍ .
- ١٥ ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحاً بي وخطأً بأخي ، ولِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ  
مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [ وَكَانَتْ أُظُنُّ أَنَّهُ ] قَدْ حَرَصَ عَلَى  
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَبْتَدِئُ إِلَّا بِي ، مَا لَمْ . . . . . وَفِي هَذَا  
فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْيُ ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ . . . . . (٢) .

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . \* وبك واثق غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص (٤٨) (١) على هذا المال ما أريد أن تعلمي بمن يقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقه ، لاحتياجي إلى ما تحن بسيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام . فجل يسئ لي أقواماً لا يعشرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكر صاحب الأحماس ابن سلمون ، وتسبب إليه برسم الأحماس ، وغيرهم ممن لم يبذل منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلت في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، إلا وهو يريد إفرادنا دونهم ، ليتسكن بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع ماتيين من إنفاسه ، وحده مقاطعة ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والعين تبصر في عيني محدثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها وجعل يطلب بني السنيدى والكتبة وغيرهم ممن قد اصطنعناه [ ونأمن ] أماته ؛ ثم قال لي : « كل ما رأيت من السلطان في لييط . . . . . كان مثلنا أن يجعل لك مجلساً ولغيرك تست . . . . . وأنت على سعة ، وأفل شيئاً تبطل به حجته [ عليك ] . . . . . (١) »

١٥ « . . . \* كنتم عليها من الترقب والإنذار بالعيال نفثة حاقدة . » (٤٨) (ب) وكان هذا القلبي مخملاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكني ضيعته ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمل وغيره ، ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحد يقدر على استمال المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ،

(١) محرم نحو نصف صفحة في الأصل .

ويسعى في هلاكي في الباطن ، وينتف بذلك ، على ما صحَّ عندي ، ويقول :  
 « والله ! لأبلغنَّ حفيدَ باديس الطينةَ السوداء ، ولأشوقه إلى درهمٍ ينفقه ،  
 [ وذلك ] على صنيع جدِّه بي وبغيري ! »

وأخبرني أبو بكر بن مسكِّن أنه [ كان كتب ] إلى أمير المسلمين في  
 أول سفره معه ، ولقي في الطريق خبَرَ دخوله [ الأندلس ] ، وقال :  
 « هذا على رَغْم أنوف القسمة سلاطين الأندلس ! » قال أبو بكر بن مسكِّن :  
 « ونُحِطُّ معهم سُلْطَانَك ؟ » قال : « نَسَم ا وهو المُقَدَّم إن شاء الله !  
 . . . . . مات لتنفذ الأقدار ا » فلما أذن الله بانصرافه . . . . . تكلم  
 ابن سهل إلى الأمير وقال له : « أنت على . . . . . (١) .

١٠ « . . . \* نحن بحال لا يرضى عنا فيه لا رعية ولا جند ؛ وفي هذا  
 الفساد والقطع . قال لي القليعي : « إن تُمنَّ عليك الجند ، استنجدت  
 من العدو من يفتيك عنهم . ودعني ورأيي بعد إشراكي مع ابن سهل ،  
 ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

١٥ فرأيتُ أمراً مُعَمًى ومستأثراً به دوني ، مع ما كان ينطق به لسانه أبدأ  
 من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :  
 « والله لا أبلغنَّ من حفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه مني ومن غيري ا »  
 يسرح بذلك لقلَّة تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد  
 ذلك الجندَ قلماً ، وهُموا بالانتقال مُجتمعين على ذلك .

٢٠ فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ في نفسي : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ  
 إلى الجند ، وهم جناحاي ، أن بقيتُ وحدي مع يروم خلمي . فالأولى على

(١) غرم نحو نصف صفحة في الأصل .

كلّ حال أطباؤهم ، واستصلاح ما فسد من أنفسهم ؛ وإسقاط القليبيّ وحده واجبٌ في رضى عامّة عبيدى وأجنادى . « فجمعتهم بمحضره ، وأعلمتهم أنّي راجعٌ عن ذلك المذهب ، وراؤ عليهم إنزالاتهم . فقام الكلُّ على القليبيّ ، وهموا باختطافه من بين يديّ لولا إمساكي لهم ؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرةً وعقوباً ، وينجز الأمر إلى غير المحمود .

٥ قُلْتُ لهم : « أنا أكفيكم أمره ! » وأمرتُ بثقافه على أجل الوجوه في بيتٍ بقرب من القصر ؛ وكان تحت برٍّ وإكرام ، وأنا في ذلك أعتذرُ إليه من قيام العامّة ، وأعدّه بالانطلاق عند إطفاء النائرة ، كالذى صنعتُ .

فلما توطدت الأحوال وقررت قرارها ، أمرتُ بإخراجه ، وأنهيتُ إليه أن يكفّ لسانه ، ويدعَ فضولَ القول والعمل إلا فيما يعنيه ويشاكل طريقته . فقال لي : « نعم ! أنا ألتزم الرّوايط ، وأسلكُ سبيلَ العافية إن شاء الله ! » فلم يكنْ إلا أن انطلق ، وطار\* إلى أمير المسلمين بالشكوى ، ٤٩ (ب) وزاد في الطين بلةً . فقال لي الجند : « لو أنك أمسكته ، لم يُهَيِّجْ عليك النار ! وستندمُ عاقبة انطلاقيه ! »

١٥ — ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وأراني جميعُ الجند من التآني والاقبياد والمناصحة ما حسبتُ أنهم يُقاتلون عنى الدجال . فسرتُ بهذه الحالة ، واطمأنتُ إليها ، وقلتُ : « هؤلاء أمةٌ لا يروّن بي بديلاً لإنصافي لهم ورغد عيشهم معي ؛ وهم قد رأوا جند المدوة ، وأن أقلّ عبدي لهم أغنى من غيرهم ، وأصلحُ حالة .

٢٠ فلا يمكن استبدال الأذنى بالأفضل ! » ثمّ علّيتُ قياسَ للغاربة أهل

المحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَنْظُنْ قَطُّ أَنْ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ  
أَيَّامِي . وَإِنَّمَا وَجَسَتْ نَفْسِي مِنَ الرَّعِيَّةِ لَطْمِعِهِمْ فِي حَطِّ الْمَغَارِمِ ، وَالَّذِي  
شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُسْرِ عِنْدَ الْمُرَابِطِينَ . فَقُلْتُ : « إِنَّ بِيْهَذِهِ الْعِقبَانَ الَّتِي عَلَى  
رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِي عَلَى شَيْءٍ ، وَإِذَا تَقَفَّتِ الْمَاعِلُ ، كَانَ أَمْرُ الرَّعِيَّةِ يَسِيرًا .  
وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَغْمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةٌ مَمْقَلٍ  
وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُثُ فِي خِلَافِهِ أَحْوَالٌ . »

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَالِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحِصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُضْلِحُهَا  
لِلْإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحِزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُهٗ : مِنْ إِقَامَةِ  
الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطْلُحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ،  
وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ  
مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضْرَتِي ، مَا اسْتَغْنَى عَنِ  
تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ  
سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرَّومِيِّ ! وَلَا يَدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ  
فَرَجٍ : إِنْ غَلِبَ الْمُرَابِطُ ، لَمْ يَقْتِنَا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ  
مَا تَدْمُ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا  
الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْمَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُدْرِكُونَ : لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمَ  
يَدِي سَيِّئَةً إِلَيْهِمْ . \* وَإِنْ غَلِبَ الرَّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَعْنَا ٥٠ )  
مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَأَنْخَازِ الْمُدَدِ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ  
لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى عَدُوِّ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الْمُرَابِطِ لَا يَنْفَعُ ! «  
وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمُنْكَبَ : إِنْ تَغَلَّبَ الرَّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مَتَّصِلًا

- بالمسلمين ، ندافع منها جهدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلب السلامة  
بمُحاشاة أنفسنا ونُتفَّ من أموالنا . فشيَّدتها لذلك ، كالذي شهر عنا .  
والجاهلُ لا يدري ما أولُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خبط] عشواء :  
فكلُّ يتكلم على شهوته . ولم تَعْتَقِدْ في أمر المرابطين — يعلم الله ذلك —  
٥ صَدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئاً من  
مساءة نُسبتَ إلينا ، أكثر من أتى جَزَعْتُ الجزع الشديد مما تقدم  
ذِكْرُهُ من تلك المعاني التي أبصرتُها ، وما جرى على ابن رَشِيْق ، مع  
هَلْبِي لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .  
قلت : « ما دام تَتَلَقَى الفِئْتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :  
١٠ فَتَحْصِيْنُهَا أَوْلَى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فتى دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء  
عسكريٍّ أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك مما يَجِبُ من مُشَارَكَتِهِ وإِنْجَادِهِ ، لم  
تتأخَّرْ عنه ، فتقيم على نفسى الحُجَّة ؛ وتجلب إلى المَصْرَةِ إن فعلتُ غيرَه ؛  
غيرَ أُنِّي ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسى ، تَعْتَذِرُ وندافع ذلك  
جهدى . فمسي [أن] يتركنى ويقبل عذرى ؛ ومتى لم يقبل لى عذراً ، نعلم  
١٥ أنه يُريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً على متَعَسِّفٍ لكلام الأعداء  
والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهَجَّتى والتحصين على  
نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين ؛ ولى معهُ  
اللهُ ، إذا لم أنو به سوءاً ، ولا واسيتُ عليه أحداً ، ولا صدَّدتُه عن  
جهاده . فبأى شيء يتسبَّب إلى إلَّا إن شاء التذنب مع القدرة ؟ فلا  
٢٠ طاقة لى بذلك ،\* كالذى صنَّعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعدَّ  
لكلامه جواباً ؛ فلما خُرجَ إلى الثقاف ، سُئِلَ عن إعدادِه الجواب وزَعَمِه

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :  
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أُدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »  
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاثِقٌ بِكُلِّ  
 مِنْ مَعِيَ مِنْ رِجَالِي وَخِدْمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَغْدَرُونِي . قَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ  
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أُعَدِّدُهُ .

٥٨ - معاقدة عبد الله مع البرهانش

وكيل الفونش السادس

ولما حان انصرافنا من لبيط ، كلمنا أمير المسلمين في عسكر يتركة  
 عندنا بالأندلس ، خوفاً من الرومي أن يكلب عليها ، ويطلبنا بثأرتك  
 ١٠ السفرة وغيرها ؛ فلا يكون عندنا بمن ندافع ؛ فقال : « أصلحوا نياتكم ،  
 تُكفوا عدوكم ! » ولم يعطينا عسكراً . فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على  
 هذه الفرصة دون طلب . كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً  
 للمال ، متجئاً على من خالفه أن يفسد بلاده . وعاقده صاحب مرقسطة  
 ومن يليه من الشرق ؛ فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .  
 ١٥ وبلغني الخبر ، وزاد ذلك في غمي ، وعلمت أنني فيه كراكي الأسد :  
 إن أسلت البلد ، ولا عسكر عندي ، هتك ، ولم ينجبر لي فيه درهم ،  
 ولم أغدز مع هذا ، ولا يقر المطالب بأن يقول عني إنني ضيعته أو  
 سقت إليه العدو ، كالذي رأيتُ وسمعتُ قبلُ عن ابن رشيح — وخسارة  
 بلدي زائدة — ولا نقيم أوداً بذلك لكل ما نحاوله من الغزو كل عام  
 ٢٠ وضيافات المرابطين ؛ فتجتمع على الخسارة من وجهين . وإن واسيت القوم

- وأصلحتُ على نفسي ، قيلَ : « قد عاقدَ الرُّومىَّ ! » وَيُشْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدْرِ الْمُنْفِى .
- وكان ألبَرهَانِسَ زَعِيمَ جِبَاهَتِ غَرْنَاطَةَ وَالْمَرْيَةَ ؛ وكان أَلْفُونْسُ قد وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ،\* من إِقْدَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادِ عَلَى مَنْ تَعَدَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١)
- شَيْءٌ ، وَلَقَبَضِ مَالٍ وَتَوَسَّطِ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوْلَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ، يُنذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آسَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءَ لَهَا . قُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَىٰ رَأْيَهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرَةٍ بَنَىٰ عَلَىٰ مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعٌ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِى الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَعْشُرُ قِيَمَةَ مَا يُعْطَىٰ كَالَّذِي عَهَّدْنَا لَهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ لَوْ كَانَ ، وَفَعَدَّ ذَلِكَ ، وَبِإِلْغَا عَنْ أَمْرِى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ<sup>(١)</sup> بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحَنُّ جُدْرَاهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فِسَادِ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجْبَةُ عَلَيْنَا ! »
- فاجتمع رأينا على إرضائه باليسير ، مع مُعَاوَدَتِهِ إِلَّا يَقْرَبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّقْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَّحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ أَلْفُونْسِ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ ، فَسَلَطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوَقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَليْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يَخْصُنِي دُونَ رَبِّيسِي ٢٠

(١) أصل : « أقدام » .



إن حدّ لي ضدّه ! » فَعَلِمْنَا أَن قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . فَعُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوْجَهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأَهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكَلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أَرْسَلَ بِأَذْنِ بَدَلِكَ ، سَنَعْتَدِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إِعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدُ طَمَعَهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوِّي الْقَوْلِ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَبَأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ قَدَّمْنَا إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْبَرْهَانِشِ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ (١) شَيْئًا ، \* وَاعْتَدَرْنَا بِالْمُرَابِطِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب)

١٠ يُوَجِّهُ لِي رَسُولًا يُطَلِّبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ انصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُنْتَقِمَ مِنْ جِهَاتِهَا .

### ٥٩ - التزم عبد الله على أداء الجزية لألفونس السادس

وعقد اتفاق جديد معه

١٥ وَتَاهَبَ الْفُونْشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَنَا نَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْخَيْرِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيْبَةٌ فِي النَّاسِ وَرَجْعَةٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجِزْعِ أَنَّنَا لَمْ نُصَدِّقْ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا الْمَالَ دُونَ الْمَلَاذِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْتِارِ لَيْبِطٍ وَمُعَاقَدَةِ الْمُرَابِطِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَن ذَلِكَ كَلٌّ ،

(١) الأصل ، « نعطوه » .

إلا أن تعطيه ما فاته عنك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً لا يُنقص منها شيء؛ وإلا، فما هو مُقبِلٌ! والذي تقدر عليه، فأصنع! « فرَوَّيتُ الأمرَ في نفسي، ورأيتُ أن التماطِيَّ حاقَّةٌ لا تفيد، وقلتُ: « إن أخذتُ هذه من الرعيَّةِ، ضجَّتْ وشكَّتْ، ويكون مُقدِّمُها بِمِرْوَكْشٍ<sup>(١)</sup> شاكِين، يقولون: «أخذَ أموالنا وأعطاهما للنصارى! « ولكن لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما ادَّخَرَ ليصونَ به بَلَدَهُ وعِرْضَهُ. وأنا جَدِيرٌ أن أعطى ذلك من بيت مالي، بحيثُ يسلم البلدُ، وبحيثُ تشكر الرعيَّةُ بمدافعةِ عدوِّها دون تكليفها شيئاً، ولا تقع الشُّنعةُ! « ففعلتُ ذلك، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفاً، لم أرزأ أحداً فيها درهماً. ورأيتُ مع ذلك أن أجددَ معه عقداً ألا يمرض لي بَلَدًا، ولا يهدرنى بعدها، خوفاً أن يقتلب عليّ؛ فأجاب إلى العتد. وقلتُ في نفسي: «إذ لا بُدَّ من دفعها، فبالعتدِ أولى. فإن حوَّجنا إليه، وجدناه، ولم يضر؛ وإن أسْتغْنِيَ عنه، كان مكانه مُمرُّ القنَى والبيض الرقاق، إن تدارَكنا\* اللهُ بيسكرٍ يدفعه؛ والحربُ خدعةٌ! « وإذا لم تغلب، ٥٢ (ب) فأخلب! ١٥

فأجاب إلى تلك المُعاقِدة، حرصاً على أخذِ المال، وتحمُّنٌ لا نشكُّ أنَّه يقدر، كالمخاطرِ لنفسه للضرورة التي لا سبيلَ إلى سواها. وقال لي عند ذلك رسوله: « يقول لك ألقونشُ: « إن كنتَ مُريدٌ تُخلَّطَ مع هذه

(١) كذا في الأصل، عرض «مراكش»؛ وليس بتصحيح، إذ عبارة «مروكش» كانت

تستعمل دون غيرها أيام المرابطين مؤسسى هذه المدينة؛ وهي التي انتقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة

«مراكش»؛ واسمها بالأسبانية إلى اليوم Marruccos.

- للمعاقدة استعانةً به على شيء من بلادك التي عند ابن عباد ، فهو يمدُّ لك فيها في وجهته هذه . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا ! وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْمُعَاقِدَةِ الْمُدَاقِعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِ مِلَّتِي . فَإِنَّ وَقْفِيئِمُ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . » وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْلُطَ الْفِتْنَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ التَّلَاوِينُ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلِي .
- وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَثِيقُ بِقَوْلِنَا <sup>(١)</sup> ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا لَهُ : « إِنَّا مُعَرَّرُونَ فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ مَعَكَ ، وَسَتُدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ الرَّابِعِينَ ، وَنُطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى أَدْرَكَكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَعَلَى النَّبِيِّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . » فَأَجَبْنَاهُ : « بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزْرَنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِطْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »
- فَانْقَصَلَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [ لِي رَسُولُهُ ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَدْوِيحِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يُعْطِهِ ! » فَقُلْتُ : « هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ! نَحْنُ قَدْ اخْتَلْنَا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَقَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَيْدَاءٍ أَوْ قِتَالٍ . لَا تَتَكَلَّمَنَّ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَنَّاكُمْ عَنْ ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
- ٢٠ التَّحْصِينَ عَلَى مَا يَخْضُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدِّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنَكُمْ ! وَأَنَا

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

بِرِيءٍ ، لا أُنْغِسُ في ذلك يَدًا ولا لِسَانًا . «  
 ولم أُجِدْ وَجْهًا نَرْجُو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أَكْثَرَ من  
 مُخاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعَلِّمُهُ بِجَلِيَّةٍ حَالِنًا مَعَهُمْ ، وما ذَكَرُوهُ من إِيْطَاءِ بِلادِهِ ،  
 وَتُنْذِرُهُ بِذَلِكَ ، لِكَيْ يَقْلَعَ ، وَيُدْرِعَ الحَزْمَ ، وَيُقَدِّمَ لِلأَمْرِ أَهْبِيئَهُ .

٥ - ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرر مسلكه

١٠ ثمَّ خاطَبَنا أميرَ المسلمين ، نَصَّ عليه جميع ما وَقَعَ وما دَفَعَتِ الضَّرورةُ  
 إليه ، وأنَّ الحاضِرَ أبصرَ من الغائبِ ، ولو الحال يقتضى بِمَظْلِمِها ، ولو بِمِقْدارِ  
 وصولِ الخطابِ بِمَشورتهِ سَلامَةً للمسلمين ، لم أَقْدِمُ شَيْئًا في ذلك ولا أَخَرْتُهُ  
 إِلَّا عن رأيه ، كالذي يلزم ؛ غَيْرَ أنَّ الحُفْرَ كانَ أَشدَّ ، لم أَرَ التَّغْيِيرَ  
 بالمسلمين ، وإنَّ الاتِّتِقامَ منهم مُدْرِكٌ بِمَحوِ اللهِ على يديه . ولم نَشْكُ في  
 أنَّ الجوابَ يَرِدُنا بالشُّكرِ على ما نَظَرناهُ وسَدَدناهُ ، لا سِيما إِذ كانَ  
 الفداءُ من عندي ولا أَكَلَّفُ فيها مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فوردني جَوابُهُ مع  
 ما أُمْلِيَتْ نَفْسُهُ من الطَّلَبِ لي ، وصوَّرتُ عنده الأُمورَ على غيرِ حَقائِقِها ،  
 بما زاد في جِزعي ، يقول : « أَمَّا مُدْاهِنُتُكَ وَقَوْلُكَ الباطِلُ ، قد عَلِمناهُ !  
 ١٥ وسنَعلَمُ عن قَريبٍ كيفَ تَرْضَى الرعيَّةُ ، وما تَصنَعُ إِذ رَزَعْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ  
 لها . ولا تُسَوِّفُ : فإنَّ هذا قَريبٌ غَيْرُ بِعيدٍ ! »

فلم أَقْطَعْ مع هذا ، وَقُلْتُ ، عند الحَقائِقِ وَتَبييانِ ما وَقَعَ ، على لسانِ  
 رَسولٍ : « يَزيلُ عن بالهِ كَلامَ الأَعادي ! وهذا من بَني القُلَيْبِيِّ »  
 ٢٠ وأبى بَكرُ بن مَسْكَنٍ ! فإنَّهُم لا يَنقلونَ إلا على شَهِواتِهِمْ ! « وكان

- أبو بكر بن مُسَكِّنٍ قد بلغ من طغيانه على<sup>١</sup> ، وسبِّه لي ، ورجائه<sup>(١)</sup> في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني أو أكثر ؛ فإنه اتهمي إلى بني زيري ، وجعل يهنئ بذلك ويفتخر به ، لا يزي لأحدٍ عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نهرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر<sup>٥</sup> . فجعلتُ الذنب فيه سواء كما في\* القلبي<sup>٢</sup> ، إذ مقالته لا تطفى (١) ٥٣ (١) ما أشعل القلبي لو أراد الخبز ، كما أن تزكته لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلتُ الهمَّ فيهما همًّا واحداً .
- ولما تشدَّتْ عليه ، وأمرته بالكف ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى المرابط ، يزي في<sup>١٠</sup> ، ويسعى على<sup>٢</sup> ، ويكذب ، ويصور الأمور على غير وجوها . فتكررتُ مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلا بالشدَّة ، وقبول قولهم على<sup>١٠</sup> . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حال . لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظنُّ المعتدِّ بي في دخول النصراني إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق ، لأدبته عليه ما لا فوق الجزية ا فليس لهم إلا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد . ولم ياتِ عسكر المرابطين إلى إشبيلية إلا والبلد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبه ، ولا يسألني الله عن كلمة طمنت فيها على مسلم . فاتقت الأفاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أني أريد ذلك ، والانحياش إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

(١) أصل : « رجاء » .

يَصِلُ الْمُرَابِطُونَ إِلَى سَبْتَةَ إِلَّا وَمَدِينَةُ غرناطة مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكُنْتُ  
 اسْتَطِيعُ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدِينَةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ  
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضَيْتِي  
 تَسْتَوْضِحُ ، كَوَجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُبَيِّنُهُ ، وَلَا إِسْرَارَ فِي  
 مَثَلٍ عَلَى مُسَلِّمٍ ، وَلَا إِدْخَالَ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ  
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،  
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارِيُّ إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَأَقَى ذَلِكَ  
 أَوَّلَ ظَهْوَرِ الْمُرَابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ\* رَسُولَ الْفُونْسِ (ب) ٥٣  
 مُمْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْمًا لَهُ ، وَإِثَارًا لِأَمِيرِ الْمَسْلَمِينَ .  
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

## الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٥ ) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

### ٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بدتْ أمورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من  
الانتقال ومُقدِّماتٍ آذنتُ بالزوال . فأول ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِعلَّةٍ  
تذكرُها ، وأرقَّ سببٍ لم يُؤبَهْ له . وذلك أنَّي ، لما أمرتُ ببنیان السور  
التَّصل بالجرء ، ودبرتهُ على تلك النَّصبة التي أُضْرِبْتُ عن شرحها لاشتهارها  
هيأت السعادة أن وجدَ البتَّانُون في الأساس مُقْموماً مملوءاً ذهباً أعلموني به .  
فما وقت عليه ، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف منقال جعفرية . فاستبشرتُ بها  
وتفاءلتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرتُ بمن كان قبلنا . فقلتُ :  
« من أساسه يكونُ بُنيانهُ ا »

وكانت دارُ أبي الربيع اليهوديُّ الخازن للأموال في دولة جدِّي  
— رحمه الله — مبنيةً على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون .  
فأتى ابن المرَّة متنصِّحاً بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم  
سائر دقائمه » فخطبنا عنه ليردَّ علينا في بعض الأمر . وكان صهره ابن  
ميسون ، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جيلاً

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

ووافقَ قَبْلَ ذلك ، عند انصرافنا من لَيْبِط ، أن فرَضنا على أهل اليُسَانة ذهباً كثيراً باسم التَّقْوِيَةِ ، لم تَجْرِ عادتُهم به ، وحملناهم في ذلك على الصِّحَّة والانطباع ؛ فنَفَرَت لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وتحميلهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدُّوا ، معشرَ بني إسرائيل ، في حماية أموالكم ! » وافترض بذلك ابن ميمون . وسبقت له جنايةٌ في قتل \* عامِلنا ابن أبي لؤلا ٥٤ (١) على المُسْتَخْلَص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسَانةُ بالجملة .

١٠ فلما رأيتُ ذلك ، لم أجدُ بُدّاً من مُداراةِ الأمر . واشترطَ مُؤمِّلٌ بإصلاحه ، ونهص . مُمِّمٌ إني عملت رأياً بعده ، وعلمتُ أنه لا يلقي إلاّ أحدَ وجهين : إما طاعةً على غشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قدر ما جنّوه . وخرَجْتُ بنفسي في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمؤمِّلٍ قد أقبلَ مُنصرفاً ، وردّنا عن ذلك المذهب ، وقال لي : « قد أضلحتُ الأمر مع ابن ميمون . ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلاّ نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عباد ، لا سيما أنه الآن بقَرْطُبة ، وليست تؤخذُ بإحصار ولا قتال ! » على أنّي قد علمتُ أن ابنَ عباد لا يجيهم في ذلك الوقت كَلّه ، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن ميمون يفتخر به ويُطمع به

٢٠ أهل اليُسَانة .



فقبلت قول ابن مؤمّل ، وانصرفت على مقربة من الحضرة ؛ وقلت :  
 « خروجى إلى هنا أو وصولى إليهم سواء ! إذا أردنا التّهييب ، فقد  
 وصلناه ! » ثم قلت لمؤمّل : « صيف على ما انفصلت ! » قال :  
 « إن ابن مّيمون زعيمها عدّد أشياء أنكرها من الإرسال في صهره ،  
 وهذه الفرضة العظيمة ، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنت لهم  
 الصكوك برفع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصّته . » وأمرت بعقدها  
 والإرسال بها . وقرت الجبال قرارها .

ووجست نفسى من ابن مّيمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ،  
 وعلمت أن هذه هُدّة على دخن ، وأن لاطاعة تصح لى معه ، وسيؤثر  
 أمثال هذه . قدبت إلى المداخلة من اليهود المخمولين في زمانه ، ووعدهم  
 بالإحسان ؛ وتكرّر في الوساطة ابن سبيى ، حتى أبرمت من ذلك  
 ما أمّلته . وكان أخذ ابن مّيمون يسيراً ، لأعصبة له ، وهو غافل . وكان  
 الوساطة أيضاً ابن التّرة مع أبى العبّاس الحكيم . وكان ذلك بما نفعه ٥٤ (ب)  
 مؤمّل لانحيائه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عادّتهم ، وأمرت  
 بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ ، وأمرت أن لا زعيم فيهم بعد اليوم  
 إلا الكلى منهم أمناه منوّه بهم ؛ فشكروا ورضوا . وخاطبت عاقبتهم  
 ثقلهم بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدّنت الأحوال وقرت ، إلى أن  
 تلف الكلى .

## ٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفن<sup>(١)</sup> العارضة ، رأيت أن الاحتبال بالمعادل من آكد ما يجبُ النظرُ فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عدديها وما يصلحها ، وأن الأولى استصلاح ما قسد من نفوس قوادها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا معقلاً قط غيرُ صنهاجة والوصقان والعميد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنفُ المذكور قد ضعف ؛ واستولى عليه النقصانُ لطلباتِ جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تهيأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفستهم من توليقِ مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتقدوا النابذة في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبهم ، وتبيدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزبل عن يده . فأدركهم النقصانُ والقلة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنفُ كثيراً ، لا يعدم ضمهم من له مال .

فقلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعادل ، أو بأيِّ قلبٍ يجِدُّون معي ؟ وإنه لا عِوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتون » .

للحصون \* وإن زناة هؤلاء المتأصلين لا ثقة فيهم للمدينة فوق ولا ٥٥ (١)  
 للحصون ، أكثر من خدمة الجندي ، لا يعدم منهم أحد . فأنا جدير  
 أن أشرك من ضعف من صنهاجة هؤلاء الأهوياء الذين أدركتهم العناية  
 ويمسك واحد منهم إنزال خمسة فرسان وسيتة . ثم من قنع بما بيده بقي ؛  
 ومن لم يبرد ، لم نعدم منه العوض ! « فعلت ذلك ، وأشركتهم . وكان في  
 هذا كاهن تحريك للشر والقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده<sup>(١)</sup>

فلما رأى كبار زناة ذلك ، قلقوا ، وساءت ظنونهم ؛ فكنت ،  
 متى دعوتهم إلى خدمة ، يجدهم عنها عاجزين : من أشرك ومن لم يشرك ؛  
 فامتحن على ذلك ؛ قيل لي : « إن كبارهم يفسدون صغارهم ! ولو أنك  
 تخرج غوغاتهم<sup>(٢)</sup> من البلدة ، لصلح لك سائرهم ! »

فأمرت بإخراج ثلاثة أنفس ممن يتهم منهم . وكان الأمور بذلك كئيب  
 الخصى ، صاحب المدينة ذلك الوقت ، وبقناه لترينتنا له . وكان في المجلس  
 أقوام يحسدوهم ويتهمهم على نفسه أن ينقلوا طريقته السيئة ؛ فأصاب الفرصة  
 للخراب ، وأرسل من قبله إلى أولئك المنخرجين ، وإلى من سواهم من بني  
 عمهم ، يقول لهم : « إن الطلب قد وقع فيكم من مجلس السلطان ؛ وأمرت  
 بإخراجكم . فلا توهنوا ، وأجهدوا في التعصب عليه وترويه ! وأنا معكم !  
 فإنه ، إذا رأى جماعتكم ، رجع إلى قولكم ! » فلم يكن إلا بعد الأمر  
 بساعة ، وإذا بجاعة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة ، يقولون : « إنما أن  
 يرد شركتنا ، وإنما فالكل راحلون عنه ، منتقلون إلى غيره ! » وأتى

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غوغاتهم » .

الفاسقُ لِيَبُّ وَأَصْحَابُهُ الْمَتَّفِقُونَ مَعَهُ ، يَقِيمُ حُجَّتَهُمْ ، وَيُعْضِدُ قَوْلَهُمْ ، وَيَخَوْفُ مِنْهُمْ . فَتَبَزَّتْ الْأَمْرُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يَرْجِعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيِي ؛ فَأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكَتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً \* إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَأَيُّمِرْ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فليبقَ ا » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكَلُّ .

٥ وَمُؤَمَّلٌ ، فِي هَذَا كَلِّهِ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لِيَبِّ ، يَدْخُلُ فِي رَوْسِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَتَحْنُ أُبْرِيَاءُ ا » وَيُرَوِّحُهُمُ الشَّفَقَةَ مِنَ الْأَمْرِ وَالطَّمَنِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ أَحْصَابِ مُؤَمَّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكَلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرَّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضْرِبُهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلُ بِالرَّأْيِ وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّوْلَةُ وَالْحَاقِقَةُ فِي الْعَصِيَّةِ ، وَأَنَّ اتِّقْيَادَهُمْ لِلْأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُهُ ، وَاللَّحْجَةَ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْهَى .

١٠ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْآخِرِ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبَيِّطُنْ عَلَيَّ مِنْ قَدَمٍ ذَكَرَهُ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مُضِيئِهِ وَقَعُودِهِ . فَوَجَدْتُ الْكَلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَنْبِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُهُ وَأَلْيَقُ بِالْمَلِكَةِ ا » وَرَأَيْتُ مُؤَمَّلًا وَلِيْبِيَا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمَّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُنْبِصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثِيهَا إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

## ٦٣ - انقلاب مؤتمل وثورته في لوشة

- ولما قرأ أمرهم قراره ، جاء مؤتمل في إثر ذلك يقول : « إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يدآرونك حتى يحصلوا على قائد إنزالاتهم ، ويتزودوا به ! فلا قائد تنزل عليه غيرهم ، ولا رجال بقوا معك ؟ » وكننت إذ ذاك ناظرًا منه بعين الثقة ؟ فعمل قوله في نفسي ، وقلت : « لا يخلو هذا القول عن وجهين : « إما قد اطلع على ذلك منهم ، فهي نصيحة ، أو لم يطلع ، فهو بغائلته لا يدعهم ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجبت إلى العوض ، لم يكن لي على ما نزله ولا في بيت المال الكفاية لما نحن بسبيله \* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- ١٠ يأتي من هذه الكلمة نعاس . وأمرت بإخراج كل من في رأسه حاقة . فبلغ عدتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفت ، ولم يبق فيها إلا من ينطاع لكل أمر .
- وعمل في نفسي قتل لبيب وشيوخ العبيد ، وصح عندى منهم وفيهم أنهم عوجوا زناة ؛ وكانوا أشد على من كل أحد . وجعل زناة ١٥ يذكرون ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحن جند ، ولولا ثقائه وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجتزم<sup>(١)</sup> عليه ! » وجعلوهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرون الناس بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفع نحن ، إلا وهو يريد إدخال النصارى ! » فلم يلتفت الناس إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجتروا » .

ولما أُخْرِجَ زَنَاتَةٌ ، أَمَرْتُ بِمَدِّهَا بِأَخْرَاجِ اثْنَيْنِ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ  
الَّذِينَ صَحَّ عِنْدِي إِشْمَالُهُمْ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَتَقَفْتُ لِيَبِيًّا . فَوَافَقَ إِخْرَاجَهُمْ  
مُؤَمَّلٌ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَحَقُوا بِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : « قَدْ أَخْرَجْنَا إِيَّاهُ وَعَدَا  
بِكَ هَكَذَا إِيَّاكَ فَانظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ ذَلِكَ ، فَاصِدًّا إِلَى  
٥ لَوْشَةَ ، مَعَ مَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ مِثْلَ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ تَقَفَّةً قَدِيمَةً بَيْنَهُمْ مَعَ بَنِي مَالِكِ عُمَالِ لَوْشَةَ ، أَنَّهُ ، مَتَى  
دَهَمَهُمْ أَمْرٌ ، لَجَئُوا بِهَا إِلَيْهَا . فَهَضَمُوا مِنْ قَوْمِهِمْ ذَلِكَ قَاصِدِينَ إِلَى لَوْشَةَ ،  
وَلَحَقُوا بِهَا لَيْلًا . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَلَمْ يَمْنَعْ أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِنَّا ؛ وَحَسِبَ الْقَائِدُ  
وَمَنْ فِيهَا أَنَّهُ رَسُولٌ . فَصَارَ فِي قَصَبَتِهَا ، وَجَمَعَ الْجُنْدَ وَالرَّعِيَّةَ ،  
١٠ وَصَرَخَ فِيهِمْ بِالْبُكَاءِ ، وَافْتَعَلَ الْكُذْبَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « لَمْ أَخْرُجْ مِنْ  
غَرْنَاطَةَ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَوْنِي عَلَى عُنُقِي » إِيَّاكُمْ وَتَرَكْتُ فِيهَا النَّصَارَى  
قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا ؛ وَكُشِفَ عَنِّي إِيَّاكُمْ فَاتَّبَعُوا مَعِيَ وَنَوَّجَهُ إِلَى كُلِّ  
سُلْطَانٍ : فَمَنْ أَجَابَنَا ، اعْتَصَدْنَا بِهِ ! » وَخَاطَبَ بِذَلِكَ حُصُونَ الْقَرْبِ ، بِأَمْرِهِمْ

بِالْخِلَافِ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى زَنَاتَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا مَعَهُ مُضَيِّقِينَ عَلَى غَرْنَاطَةَ . ٥٦ (ب)  
١٥ وَإِنْ أَهْلَ الْجِهَةِ مَعَ أَهْلِ الْحِصُونِ ، لَمَّا مَعَمُوا ذَلِكَ ، دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ .

وَأَرْسَلَ كُلُّ حِصْنٍ مِنْ كِبَارِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ مَنْ يَطَّلِعُ صُورَةَ الْأَمْرِ ؛ فَإِنْ  
وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لَمْ يُخْرِبُوا وَجُوهَهُمْ مَعَنَا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ سَحًّا ، نَظَرُوا  
لِأَنْفُسِهِمْ . فَأَتَوْنِي أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَيِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّصَارَى ،  
وَمُسْتَنْفِهِمِينَ جَلِيَّةَ الْحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا  
٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُؤَمَّلٌ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالَفٌ مُنَاقِقٌ . فَادَّرَ  
الْكُلَّ إِلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَسَأَلُونِي عَسْكَرَ الْحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لِمَا صَحَّ نَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أُبْلِيْتُ لَهُمْ عُدْرًا ، وَأَرْسَلْتُ  
إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ مِمَّا خَافُوا ، وَتَحَذَّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِثَارِ  
الْفِتْنَةِ ، وَأَنْتَى مُطْلِقًا إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَبِحُرُوجِ جُنُودِ الْحِصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا  
بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهَمُّ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَهْدِيدًا ، بِأَزِينِ  
عَلَى الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا يَثَنْتُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحِصُونِ  
عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْمَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدَكُرُ  
وَجَهَّ مَصَاهِرَتَهُ لِنَابِدِ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصَوْلَهُ ، وَجَزَعَ  
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْمَسْكَرُ ، وَأَسْرَ فِيهَا هُوَ  
وَكَلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتِقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَتَقْنَاهُمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛  
فَأَقْتَتِ السُّنَّةُ أَنْ قَتَلَهُمْ غَيْرَ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ  
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرِ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛  
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلْيَقُ وَالْأَبْتَدُ مِنَ الْإِثَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ  
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّأْيُ وَالْعَقُوفُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ . فَأَوْجَبَتْ  
١٥ السِّيَاسَةُ تَنْقِيهِمُ وَالشَّدَّةُ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرِيقَةً لغيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابٌ فَتَحَهُ  
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضْرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا عَقْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانَ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلُّ رَيْسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ  
مَالِقَةَ . فَلَمْ يَجِيبِهِمْ \* أَحَدٌ . فَلَمَّا يَثَنَ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ (٥٧) (١)  
الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكَذِبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ  
٢٠ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمْرَ النَّصَارِيِّ ، وَالْقِيَامِ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةٌ لَا تَقُومُ عَلَى  
سَاقٍ . وَكَانَ الْمَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نَعْمَانٍ ؛ فَانصَرَفَ لَمَّا عَلِمَ بِأَخْذِهَا .

## ٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ نَعْمَانَ وَسِيرَتَهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان نَعْمَانُ المذكورُ ممنَ فَعَلْنَا معه جِيلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ مُحْرَمَةَ الْقَرَابَةِ والاقطاعِ إلينا من الرُّابِطِينَ ؛ وزال عَنَّا بعد إعماله الدواخِلِ عَلَيْنَا فِي حِصُونِنَا الْغَرَبِيَّةِ ، وَعَقَّدِهِ مع أَهْلِهَا أن يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الرُّابِطِينَ متى دُعُوا . وكان له بتلك الجهة إنزالٌ ؛ فتمكَّن من القُربِ والعملِ بذلك ، وخرج عَنَّا بِسَرَّاحٍ ادَّعى من أَجْلِهِ أنَّ له بِالْعِدْوَةِ ميراثاً ومالاً يُريدُ اقتضاهُ ؛ فَأَجَبْنَا له النهوضَ ؛ وإِذَا به يَسْتَعِي عَلَيْنَا . وقال للأمير : « نُفَيْتُ من البَلَدِ من أَجْلِ نَصِيحَتِي لك وَتَحَبُّبِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أمرٌ لم يكن منه حَرْفٌ ، حتَّى إنَّ أَطْوَاقِي ، إن تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عَلِيٌّ ، للقَدَرِ الَّذِي شاءَهُ اللهُ ، عسى لعاقبةٍ مَحْمُودَةٍ إن شاء اللهُ .

فَعَمِلْتُ هذه المعاني كُلِّهَا فِي نَفْسِ أميرِ الْمُسْلِمِينَ ، مع ما صُوِّرَتْ عنده بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ الْمَكْذُوبِ عَلَيْهَا وَالْمُنْتَفِقَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لو بَقِيَتْ الْحَالُ .

## ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإِنَّا فِي تلكِ الْفِتْرِ ، رأينا من الصلاحِ النَّظَرَ لمن مَعَنَا من الْبَنَاتِ وَتَزْوِيجَهُنَّ قَبْلَ أن يَفْجَأَ أمرٌ ، فَيَكُنَّ على غيرِ عِصْمَةٍ ولا كَفِيلٍ . فتخيرنا لهُمَا من بنى عُمِّهُمَا شَاكِلَةً ، منهم مَعْدُ بنُ يَعْلَى ، الَّذِي كان عليه من النجابة والعقلِ وَالْحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عن ذلكِ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وقالوا نَصِيحَةً وَحَسَدًا : « إن أنت تصاهرتَ إلى بنى عمِّكَ ، حَمَلْتَهُمْ دَالَّةً الْقَرَابَةِ مع المصاهرةِ على الظهورِ عَلَيْكَ وفسادِ حالِكَ بِصِلَاحِهِمْ . فَإِيَّاكَ ! وَعَلَيْكَ بِمَنْ



هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِيرَاعِي إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى عِيَالَهُ بَيْنَ مَوَالِيهِ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَدَّتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا أَتْبَاعَ يُهَادِدُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذْرًا \* عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحِ مَنْ قَرَابَتَنَا ، نُذَرِكُ فِعْلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهَا ! »

٥ وكان من بعض خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صِحَّتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يَشْبَهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِيَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيْرَةٌ شَدِيدَةٌ تُوَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَنَزَقٌ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وِلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِيٍّ الْلِسَانِ مَا لَا يَطْبِي بِذَلِكَ النَّاسَ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَهُ

١٠ عليك ، وَلَا تَقْضِ لِعَمَالِكَ أَوْ مَعَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِمَّنْ لَا يَنْتَمِي إِلَى مَلِكٍ ، وَلَا يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَمَاةِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَعْتَدِرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَعْتَهَا ، ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخَرُ هُوَ تَرَبُّبَتُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ وِزِيرٍ جِدُّكَ ، وَهُوَ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكِرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى

١٥ حَالِ الْحِدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَليْسَ بِمُنْقَدٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنَهَضْتَهُ إِلَى أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنَهَضَ ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ يُقَرُّ عَيْنَهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوْلَايَ » ، مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَنَشَقِي أَنْتَ وَنَحْنُ ، إِذَا الْعَمْدُ لَا يَجْتَمِعُ سَتِيْقَيْنِ ،

٢٠ وَلَا نُدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . «

فَقَدَّتْ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَيْمٍ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بِالأخْزَمِ ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الاستِطَاعَةِ ؛  
 وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُتْلَمُ . وَهُوَ أَنْ يَقْضَى بِمَا شَاءَ ! »  
 وَلَمَّا صَارَ وَكَلْتُ حَاجَّاجَ بِتِلْكَ اللِّزْلَةِ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ ،  
 مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يُمَيِّزُ المَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاجَةَ نَسْتَعْمَلُ لِنَظَرِ أَحَدًا .  
 ٥ فَكَانَتْ وَقَعٌ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الإِنْسَانِ \* بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، (١) ٥٨  
 وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ فَاضِحَةٌ .

### ٦٦ — حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الأُمُورِ : إِنْ كَلَّ أَحَدٌ  
 مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ  
 ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا اتَّفَقَ لِرئيسِ  
 عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ أَيَّامِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ  
 رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَتَمَّ لَهُمْ فِي أَيَّامِنَا الأَمْنُ ،  
 وَأَنْسِيَهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمْ الأَشْرُ وَالتَّبَطُّرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لِنَيْدِ  
 ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَنْظُرُ أَنْ بِالأَمْنِ نَسْلَمُ مِنَ اللَّامَةِ وَالعِدَاوَةِ . وَخَانِنَا  
 ١٥ القِيَامِ ؛ وَكَذَلِكَ العَاقِلُ المُتَمَرِّنُ لَا يُجِبُّ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،  
 وَلَا يَعْمَلَ حَسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ  
 لِهَوَاكَ ؛ وَلَا مَحَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الأَهْوَاءِ تَقَعَ العِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونَ  
 المُصَاحِبَةُ وَحُسْنُ المُعَاشِرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ  
 مِثْلُ النِّى دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ  
 ٢٠ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عَنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وَإِنَّا مُخَالِفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفت إلى عدوانه ، وأحدثت في نفسه ما كنت غنياً عنه .

هذا طبع البشريّة : فلا تسمع ممن يُريك التحقيق بكلامه ؛ فإنّ الحقّ ثقيلٌ على النفوس ، والباطل إليها أسرع ، وعليها أخفٌ . ولَمَّا علم الشيطان حيلَ الإنسان ، لمجرّاه منه بمنزلة النّدم ، أتاه من قبلِ هواه .

ولا سبيلَ أن تلقى أحداً عديمَ العقل : كلٌّ قد أخذَ من التجربة حصّته ، وحاز اختياره ؛ وعرضك عليه ما يبدو إليك عجزٌ وكلفةٌ : فإن كان رِيضاً ، فهو بشأنه أبصر ؛ ولعلّ له عذراً ، وأنت تلوم ؛ فتولد عليه انقباضاً منك وتحفظاً لئلا يُريك الخِلاف حتى يأتي بما اعزم عليه . وإن

ألفيته جاهلاً ، فن العناء رياضةُ الهرم ، لم تزده أكثرَ من ثقله\* عن ٥٨ (ب) ودّه ، ولا يفتقل عن طبعه .

كيف ما روّيتُ في الأمر ، أجدّه جهلاً من فاعله وكلفه ، إذ لا تأديبَ يجمل بالمتعلم ولا المتعلم . اللهم إلا من شوورَ في أمرٍ ، فعليه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح ، ولا يتمرنَ في انتظار طاعةٍ ؛ فيكون الناصح ، إن سُمعَ منه ، تمادى على صداقته وخولفَ في غشٍّ . فما قام خيرُك ،

يا زمان ، بِشركِ ا

لو أنّي أعلمُ أنّ بخلافٍ يسيرٍ على القائل يُنتقل إلى حيزِ العداوة ، لم أشاوره في أمرٍ أبداً : وأكونُ قبلَ مشاورته مخاطراً حذراً الذي تخشى منه ، أتدّ على من عاقبة الأمر المعروض عليه . فالعاقِلُ يقيسُ على هذه المعاني ويمحز بها صديقه . فربّ عداوة تتولّد بأرقّ سبب ، أو عداوة تعود إلى مؤدّة ، عند الحاجة إلى التعاون أو الانخراط في سلكٍ واحدٍ

من عارض يعم أو مرغوب يرام ؟ تكون الحاجة فيه سواه .  
ولا خير في عقل لا يتصرف تارات ؛ وللذهب السرمدي ركب  
طريقة الجهل ، واقع في الورطات . ومن الحق ما يسمج ، فلا تقوم  
حلاوته وفرضه بما يقب من المشقة؛ والعاقل يتخير الأمور؛ فيتجنب معسورها ،  
ويتوخى ميسورها .

### ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن يحتج على هذا النكاح : ما الذي أريد به ؟ إن كنا  
غالبين ، فقد استغنينا عنه ؛ وإن كنا مغلوبين ، لم يفد ذلك ! يعترض  
هذا بعد تبیان ما وقع !

١٠ وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،  
كان البعل مكتفياً بامرأته ، يُقلعها إذا أخرج ما تكون فيه عند ذلك ،  
وتكون لنا منهم عدة ، ويُقل طمع كل من يشره إلى خطبتهما . فقد  
كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :  
تنشبتنا فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي  
١٥ أولى بالبذل في إقامة أود الملكة وما كنا بسبيله من الجهاد ؛ وإن أبيتنا ،  
وقع الخلاف والحقد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب

حساب ما جرى \* . ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير . وكان ٥٩ (١)  
زماناً لم نحسب فيه حساب خير خرج منه منقال ذرة ، ولا قسنا على  
شيء من الشر إلا ولم نبلغ منشأ ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظمه .  
٢٠ ولقد قال المطالبون إن أمير المسلمين كان أحق بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحدٌ يتبعَد الشَّرَفَ ، ويُدعى إلى ما فيه حَيَاتُهُ ، فَيَأْبَاهُ ! ولو أتني أشعر بشيء من ذلك ، ونزى أن المَذْهَبَ في هذا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ ، وَإِلَيْهِ مُسَارَعَةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن من أَلْحَ في ذلك أكثر من المُعْتَصِمِ - رحمه الله - ؛ فبادرتُ إلى ما تقدم ذكره ، خوفاً من كلِّ ما ذكرناه . وإنه ، لما تواترتُ على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصورتُ عنده على غير ما هي ، تحملتُ في نفسه .

١٠ وانقطع رجاء مؤمل بلوشة من أن يجيبه سلطان من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطبَ أميرَ المسلمين ؛ فلم يصل الخطاب ، وهياً العسكر إليها مع نعمان ، حتى انقضى خبرها ، على ما وصفناه .

### ٦٨ - تدخل عبد الله في مسألة مُرسِيَّةٍ وغضب المُعْتَمِدِ

واعتقد المُعْتَمِدُ دخولَ النصارى بِلَدِهِ ومُحَاشَاتِهِمْ لِجِهَاتِي ، مع ما كان في نفسه من أمر مُرسِيَّةٍ - فإنَّ ابنَ رَشِيْقٍ قال لي مشافهةً ، ونحنُ على لِيِيَطِ : « أريدُ أن أكون صَنِيمَكَ وأدخلَ في مُجَلَّتِكَ . » وقال لي رَسُولُهُ بعد ثقافه : « لو أنك تقبل من تخلفت فيها ، لأقام الخطبة باسمك ، وكانت في طاعتك ا تجدهُ ويحدُّك ا فأنتُ هذا القول جُمْلَةً ، وقلتُ في نفسي : « هذه نَصْبَةٌ لم يكذ أصحابنا يتخلصون منها إلا بعد المرام الشديد والكبد العظيم ا ردَّ منهم هذه اللشقات ا فلا يعترضها هذا الوقت إلا جاهلٌ بالزمان ا وليت لو سلنا من هذا كله ا وإنه من أمل

أَنْ يُبْقَى بِلَدِهِ يَدَهُ ، فَقد شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِقُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي  
كُنْتُ أَرَى وَأُمَيَّرُ ؟

وَلَمَّا طامَت عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ  
يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُم بِالْتَثُّبِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي \* ٥٩ (ب)  
٥ مِنْ ذَلِكَ مَا يُقْلِقُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوجَّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ  
مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأَنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفِ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ  
لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا  
لِعِلْمَةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثَمَرَتُهُ فِيهَا  
نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْقَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُتَمَيِّدُ فِي نَفْسِهِ ؛  
عَلَى أَنَّهَا لَمْ نَكُنْ نَعْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلْبِ التَّعَلُّاتِ عَلَيْهِ  
آخَرَ ذَلِكَ بَأَنْ نَسْمَعُ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْقُضُ الْعَمَلَ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تُوقَفَ  
الْحَالُ إِلَى أَمْدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَهِيَ  
مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبِلَ عَبْدَ اللَّهِ وَإِيْقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا  
إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ

(١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتمد على خبر مرسية ، لم يرد به مفسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبته ، وقد رُسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضى المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن واروى من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومُسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرضَ عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحداً إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاءً وحذقاً ، مع ما نُبه عليه قبيل ، من قبل ابن سهل بالمُخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتابة الواردة من عنده ، وأن اللُدارةَ بالقول أو لى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل\* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنفس (١) ٦٠  
 ١٥ أهل البلاد ما اطلع ، قدّم لنفسه ، ورأى ألا يُخلى من عمك بقربه فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مُختلفٌ ، ونفث بذلك بادييس المذكور . وصحّ عندي وقت انصرافهما أن ابن واروى قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفته ، والقاضى ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

## الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٦ ) استسلامه للسلطان المرابطي . مسجته .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[ وعند وصوله قُرْطُبَة ، [ اجتمع [ أميرُ المسلمين ] بالمُتَمِّدِ ، وسأله عما لَهَجَ الناسُ به من مُدَاخَلَةِ الروميِّ ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبلْ إلينا ، ولا تتأخر ساعةً واحدةً ! »

فرابنى ذلك ، وهو موضعُ الانقياض ، لِمَا تقدّم من الطلب ، وأنَّ بِمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتوجيه رُسُلٍ : أحدهما وَلَدُ حَجَّاجٍ ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةً وصولهما ، قرَّعتهما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بتقاطعهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إنِّي غَزَوْتُهُ كما نَغَزُو الْفُونَشَ ! والذى يقدر عليه ، فليصنَع ! » وأتاني بعضُ الفرسانِ الناهضين مع الرُّسُلِ على أسوأِ حالَةٍ ، مضروبين



ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمِّلٌ وأصحابه ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجرى على هذه الرتبة .

وأرْسَلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسْتَانَةِ — فأول ما طاعت له — وإلى

٥ جميع حصون التَّوْبِ ، على يدي ثَمَّانٍ المذكور ، السامعي في مُدَاخَلَتِهَا قَدِيمًا .

وكان من كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ : « أَمَا بَعْدُ ، فقد ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴿

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا <sup>(١)</sup> ﴾ . إن لم تُطَوِّعُونَا ، ﴿ فَأَذْنُوا بِمَجْرَبٍ مِنْ

أَلَّهِ وَرَسُولِهِ <sup>(٢)</sup> ﴾ . وإنَّ خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ مِنْهَا إِلَّا وَالْتَمَى بِيَدِهِ ،

وقام أهلُه على إخراج قائدهم ، حتَّى تناثرت المَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِثَارِ الْعِقْدِ ؛

١٠ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِيشْ ؛ ومن امتنع منها ، قاتلته الرعيَّةُ معهم ،

حتَّى يلقى بيده .

فلم تَدْرِ ما \* نَصنع ، « واتَّسع الخرقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠

« لا طاقة لي بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ! فَبِمَنْ

نَمَسُّكَ الحَضْرَةُ ؟ ليس فيها خلقٌ من غيرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كان في المَعَاقِلِ .

١٥ « ولا يَتَمَكَّنُ للخِباءِ أن يَبْقِيَ دونَ أوْتادِ ! » ولا في الأمر من مُدَارَاقٍ

ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ من رَغْبَتِهِ في خَلْعِنَا ! ولا نَمَّ غَيْرُهُ يُسْنَدُ

إِلَيْهِ ، فَنَسْتَرِيحُ فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامة الكُبْرَى ! ولا في

الْمُسْكِنِ أن نَوَجِّهَ إلى الروميِّ ، فيكون ذلك فساداً في الدين ، واستمجالاً

للكُفْرِ ؟ وإن شعر بذلك أهلُ حَضْرَتِنَا ، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنَا قبل

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السِتْرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فيكشِفون لنا القِنَاعَ على بصيرةٍ ا «  
فما عَهْدُنَا أَيَّامًا وِليَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

### ٧١ - وصول الجيش المُرَابِطِي قِبَالَةَ غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إلى غرناطة ، ما دام مُحَاوَلَتُهُ لِلْحِصُونِ ،  
٥ يَحْرُسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِيٍّ ، إلى أن يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ . وَأرسل  
القَوَادِإِ إلَيْنَا أَنْ نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوَّةَ وَالْمَلْفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لثَلَا يَقَعُ  
مِنَّا شَيْءٌ مِنْ اِخْتِلَافٍ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إلى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وَأرسلتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إلى أمير المسلمين بِمَالٍ ، وَيُعْلِمُونَهُ أَنَّ  
ابْنَهُ ، وَغَيْرُ مُخَالَفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِنَّا لَهُ على مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَخْرُجَ  
١٠ إلى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأرسل إلَيْنَا الْفَقِيهَ ابْنَ سَعْدُونَ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ  
وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ  
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَّقَنْتُ بِالْفَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ  
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ الزُّوْلِ إلَيْنَا ، فَتَخَيَّرْ مِنْ بِلَادِكَ  
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَتَتَكُنُّ غَيْرَ غرناطة ، لِئَنِّي فِيهَا رَأَيْتُنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ  
١٥ لَا تَمُوتُ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ بِمَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،  
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :  
« مِنْ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ  
كَانَ لَهَا كَارِهًا ، لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أُرَدِّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِلْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ !

٢٠ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْعِوَضُ ، فَيَخْرُجُ إلَيْهِ يُرَبِّي مَا يُعْتَقِدُهُ\* مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتّراحم عليه ؛ فإن كان قد أجل وقبل ، فله الفضل ، وعلى الشكر آخر الدهر . وإن كان قد غدر ، كُنّا واثقين بالقدر ، وأبلىنا عند الله وعند الناس العذر ! »

## ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرّكاتهم ، اطلعنا على أمور دليّة على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ، مع المعاينة لما عمي قبل ، وإظهار ما خفي ، إذ لا حرج ولا هيبة ولا صولة تقى . أمّا الجنّد من البربر ، فكانوا معتبطين بهم ، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجر ، وقدّموا كتبهم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يعدّم بأن يُبقّهم في أمّاكنهم على أفضل ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوق ، تقلّع إلى الشقلى بأهله وماله ، وبقى هو بنسبته منقرداً متأهباً للشر ، إمّا بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ<sup>(١)</sup> منا .

١٥ ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نية أنهم مع من سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولا هم أهل ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : « لأى وجه نحتل الحصار ؟ تاجر هنا وصانع كما في غيرها ! » وأمّا الرعية ، فبنح بنح ذلك ما كانت تبغى ، طمعاً منها في الحرية ، وأنها لا يُلزِمها غير الزكاة والعشر .

وأما الرقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنّا

نُسِكَ الحِصُونُ ، فَهَمَّ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ ، وَأَعْيُنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :  
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » قَلِمَ نَجِدُ فِي صِنْفٍ مِنْهَا  
رَاحَةً يُرْجَى مَعْوَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَالصَّاقِلِيَّةُ ، فَالْعَبِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،  
بِلَوْثَةٍ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفَكُرُوا فِي طَاقِبَةٍ .  
أَنْ يَخْطِئُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !  
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ  
اللَّهُ — لَا رَادَ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْخَدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،  
وَالخُرُوجِ عَنْ تَقَافِ القَصْرِ إِلَى رَاحَةِ التَّسْرِيحِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)  
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَفَرُ الخِصْيِ مِنْهُمْ وَلَيْبِيبُ كَانَا زَعِيمِي المُدَاخَلَةَ وَرَأْسَ  
الْفَتَاكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَوَلَدْنَا وَلَا تَلَدْنَا فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى  
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْمَلُ بَنَا سَلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةَ  
أَوْ قِضَاءَ أَوْ فِقْهًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بِنَا ، وَكُنَّا  
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ التَّعْيِيرِ ، نَرَزَقُ كَسَائِرَ الكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ أَوْ تَمَالَوْا بِنَا !  
نُقَدِّمُ لِأَنْفُسِنَا ! » فَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِ الْقَوِيَّةِ ،  
وَالثَّقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَمْدَحُ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،  
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ

٢٠ وَلَا اتَّسَقَ لَهُ مَا أُكْمِلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ،

كما ذكّرنا ، إلى فحّص غرناطة ، وكان أهلُ البلد يتقلّمون من المدينة إلى  
البادية ، ويخرجون منها<sup>(١)</sup> أفواجا ، رأينا إمارة الشرّ وعلامة السوء . فإذا  
بأمير المسلمين في أثر ذلك الصكر مُقبِلاً إلى الحضرة . فهاج الناسُ وجزعوا .  
واتفق رأيي ، مع مَنْ نصحنى ، أن الخروجَ إليه أوّلى ، والتزامي عليه  
أنجأ من هذه النار الموقدة . فلملّه ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدو ، ولم يجد  
في المدينة نصارى كما قيل ، فلا بُدَّ له من وجهين : إمّا صرّفنا إلى أوّطاننا ،  
وإمّا إخراجنا . فلنْ نعلم معه جيلاً ، إذ لم نُهيج عليه حرباً ، ولا  
أُتعبناه في أمرٍ .

وكمّ عسا العيشُ في هذه الدنيا ! والنجاة بالنفس في دار الدنيا  
وتخليصها من الأوزار في الآخرة ، لا يُبالغ ذلك شيءٌ ولا يعدله ! فاستعملنا  
التقل الذي جعله الله أميراً على كلِّ شيءٍ ؛ وكلُّ قوّةٍ لا يتأنيها العقلُ  
ضُفّفٌ وسُكّرٌ ، مع سوءِ العاقبة . ولا سيّما أننا بحال لا بُدَّ من إسقاط  
الروم بإرضاء المسلمين ، أو إسقاط المسلمين بإرضاء الروم ! فالآن يبرشها  
المسلمون أوّلى وأجمل للعاقبة ، إذ هي نُشبةٌ لا ملجأ منها إلا بما ذكرنا .

اللهمّ إنه لو امتسكنا فيها بنفقة الأموال ، ولا يمكن استبدالُ دون  
انتظار قوّةٍ من النصارى ، ثمّ أتى الرومُ ، فينحاش عسكرُ المسلمين إلى  
الجزيرة أو إلى قرطبة ، \*مرتبباً لما يكون منه ، فيقول لى الرومُ : « قد ٦٢ (١)  
أقلمتُ عنك من أرادك ! هات من الأموال ما نستحقُّ من المكافأة ! »  
فلو قلتُ له : « اترك عسكراً معي ، وابق أنت لثلاً يماودنا ! »  
٢٠ ما كان يفعل ، ويخشى على عسكره البوار بين أهل البلدة والعسكر الخارج .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرفه وإقبال المرابطين ، لم ترتقد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرُومى ، يقول لنا : « إن كنت تتقى من المرابطين ، ولا يمكننا السُّكنى معك من أجلهم ؛ فتخل لنا عنها ، وتصيرُ إلى كلِّ ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحشمتك وذخايرك ، كالذى صنعتُ بحفيد ابن ذى الثون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تقيدنا بالبلدة ، وما يقى بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبةً للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أظناه ، لارتكبتنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكنتا نترك غرناطة حبساً للرُوم ، يُضربون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسَقِّك منها ، ولا داخله تُدخلُ إلا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثره الدنيا على الآخرة!
- ولو أن يتربص المرابط عند إقبال الرُومى ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبنى على لقائه<sup>(١)</sup> ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدَّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرُومى ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أننا أجلبنا ؛ ولو أن الرُومى يغلب ، فبقى بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا مُلك ، ولا مستحينا من الله والناس أن يكون ذلك بيوار المسلمين وهلاكهم ! ثم إنه لا يصحُّ لنا ثبوتُ معه ، وأى شيء كان يمجره عنا ، ولا شيء نرجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بن نتصر لو همَّ بأخذ الكل .

(١) أصل : « لقاء » .

كَيْفَ مَارَوْيْتُ فِي هَذِهِ الْوَجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ  
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حِكْمَةٍ \* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ ! فَخَرَجْنَا  
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَدْرِي مَا تَلْقَى ، إِلَّا كَالْمَخَاطِرِ  
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِنَدَايِكُمْ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا  
مِنَهُ التَّرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ  
يُثَبِّتَ خَبْرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

فَاتَّعَبْتُ [ قَبْلَ ذَلِكَ ] أَهْلَ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ نُودِعَ  
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ نَقْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هُوَ لَأَنْ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ  
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ، وَلَيْسَ نُحْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
وَجْهِينِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ  
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ يُبْعِضُهُ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَيَّأَ بِهِ مَا يَبِيقِي  
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ نَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا  
يَحْنُقُ عَلَيَّ ؛ فَيُؤَدِّينِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ . وَإِنَّهُ لَأَشْيءٌ نَرْجُو  
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أُزِيدَ فِيهَا ، فَتَمَلَّأْتُ  
أَعْيُنَهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ خَاصَّةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ  
عَنِّي بَقِيَّةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي الْفَرَارِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ بَقِيَ مَعِي ، مَعَ  
اخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ : وَكَثْرَةَ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ  
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِحُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

فخرَجْتُ إلى الرَّجُلِ بعد ثقاف القصر ؛ ولاخوفٍ عليه ذلك الوقت ،  
 إذ كان الناسُ يَئِنُّ يَأْسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأة من أحد في  
 اعتراض شيء من ساقبتنا . ولَمَّا أُتْرِلْتُ بتولِّي قُرُورٍ للأمر ، جعل المحرص  
 ٥ على الخبياء ، وأمر بطرد الداخل والخارج ؛ وجعلَ بَيْنَتنا وبَيْنَ عَيْبِنا  
 وصنائعنا : كلُّ يَفْتَشُ عليه وَيُبْحَثُ على مالدِيهِ من مالٍ كسبه في ولايتنا .  
 ثُمَّ أَنَا الفقيهُ ابنُ سَمْدُونٍ من عند أمير المسلمين ، يقول : « أَحْضِرِ  
 الأموال والأزِمَةَ بها ! فإنَّ مُؤَمَّلًا قد أخبره أَنَّهُ ليس عندك دِرْهَمٌ إِلَّا بزمامٍ  
 وذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَمْ ! كان \* ذلك ، قد تَرَكَتُه في داري ؛ ٦٣ (١)  
 ١٠ فإنَّ أَباحَ لي السَّيْرَ بنفسِي لاستخراج الكُلِّ ؛ وإلا ، فهذه أُمِّي ، تتولَّى  
 ذلك مع ثقافته حتى لا يُفادِرَكم منه خيطٌ ! »

وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسي من خوف الثقاف ما خشيتُ  
 الفرقةَ منها إن تَرَكَتُها في القصر ؛ فخرَجْتُ معها ، ولم أَلْتَمِثْ إلى ماسِوَاها .  
 وأنا مع ذلك في حيرةٍ لا أدري لما يصير أُمري ؛ قد أشرب قلبي من الخوف  
 ١٥ والجزع ما لم أعهدهُ قطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإنَّ الأمور التي ينبغي لها  
 الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أمرٍ دون أمر ؛ وإنَّ جلَّ خَطْبٌ ، يُرْجى  
 في غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أهُونُ من بعضٍ ؛ وإنَّما هذه النصبَةُ لم  
 يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أملٍ ورجاءٍ لِيُسْرٍ ، إِلَّا بحيث يُحْتَسَبُ .  
 فَأَذْهَلَنِي ذلك عن كلِّ مالٍ فيه صلاحٌ من تَقْدِمةِ النَّظَرِ في مالٍ أو غيره ؛  
 ٢٠ بل ، كانت نفسي آكَدَ عليَّ ، لم تعمل حسابَ مَنْ يعيش ، لا سِيَّما من  
 لم تجرَّ عليه قبل ذلك مِحْنَةٌ ، ولا أُكْرِبُهُ الدهرُ برزِيَّةٍ . فجاءتُ جُحَلَةٌ ،



أَبْهَتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَّاسَ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَهْودِ .  
 وَقَدْ كَانَ أُرْسِلَ إِلَيَّ قَرُورٌ يَطْلُبُ خَطًّا يَدِي بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ  
 مِنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْاِئْتِرَافِ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا  
 لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْهَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا  
 ٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ  
 مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛  
 وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسُدُّ مِنَ الْأَمِيرِ  
 بِتَقَاتِي ، فَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لَا تَنْفَعُ ، مُجْمَلٌ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ  
 ١٠ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قِضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْبَغُ عَلَى الْعَسْكَرِ  
 وَمُتَاحِفَةِ الثَّرَايِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حَيْلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَفُتِّشَ عَلَيْهِمُ الْآتَكُنُ  
 فِي أَوْسَاطِهِمْ خَيْثَةً . وَجَعَلَ قَرُورٌ يَقُولُ لِي وَالْأُمِّيُّ : « اكشفا لي عن  
 ثيابك . \* قَدْ أُخْبِرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . » فَتَبَرَّأْنَا (ب)  
 ١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَعَلَ يَنْفِضُ الْمُخَدَّاتِ عَنِ  
 الصُّوفِ ، وَيَفْتِّشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَابِيْتَ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحْلُطُ طَيِّ  
 الثِّيَابِ ، فَتَشَأُ لَمْ يُعْهَدِ مِثْلَهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِجَفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْجِبَاءُ ،  
 خَوْفًا مِنْ أَنْ نَدْفِنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَلَّهُ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلَّتْ  
 بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ا »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيْئًا مِنْ خَادِمِي وَعُغْلَامِي ، مَا خَلَّانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ  
 خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَلِيْبَةً طَمَعْتُ أَنْ أَحْبُو بِهَا ، فَلَا يُؤْوِيهَا ،

ألاً أنفردَ دون أحدٍ من أهلي ، لتكونَ لي عُدَّةٌ لما بعدَ ذلك ؛ فأتى قُرُورَ ، وألقى يَدَهُ فيها ، وأخرَجَها ، وقَشَّ ثيابَها على المقامِ ، وتحمَّلَها . ثمَّ أتى إلى أثاثِ الخِباءِ كُلِّهِ وقَشَّه ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ثوبٍ أو حاجةٍ استَحَسَّها ، أخذَها لنفسه . وكاد أن يُعَرِّبني من الكلِّ . وأصاب الدنانيرُ المذكورة ؛ فقال لي : « ما أردتَ بإخراجها ؟ » قلتُ : « لأتأخِّفَ بها الأميرَ ! » فهَدَدَنِي وأدخلني تحتَ وِعِيدٍ ؛ ثمَّ أمرَ باتِّقالها على المقامِ ، وأخذَ السِّقْطَ بما فيه من الجواهرِ والخواتيمِ : هو من جهةٍ ، ورَبِيبُهُ من أُخْرَى ؛ وأنا في هذا كُلِّهِ لا أرجو شيئاً إلاَّ السلامةَ في الروحِ ، ولم نَشْكُ إلاَّ أنه لا يكونُ بعدَ هذا إلاَّ القتلُ .

١٠ ثمَّ إنَّه أمرَ والدِي بالطَّوْعِ إلى القَصْرِ لاستِخراجِ الأموالِ . فتكَدَّرْتُ لذلكَ أيَّاماً ، ما منها يَوْمٌ إلاَّ ونظنُّ أنها لا ترجعُ إليَّ ، حتى دَفَعْتُ إليهمِ الكلَّ بالأزِمةِ ، لم يُغادِرْهم من ذلكَ قليلٌ ولا كثيرٌ ، حتى أن الحاجةَ اليسيرةَ رُبَّما كانت عندِي في الخِباءِ ، فيشَدُّدُ فيها على الوالدةِ ، فتأقُّ عنها وتحمَّلُها إليهمِ . ولم يَدَبَّيْنِ لي خِلافُ أهلِ بَلَدِي ، إلاَّ والأمرُ قد فات ، من النَّظَرِ في الزمامِ أو غَيْرِهِ . ولم يتقدَّمْني أحدٌ إلى مِثْلِ هذا ، فناخِذَ حِذْرِي وتَأَهَّبَ له ؛ ولم يكنِ إلاَّ ما شاء اللهُ ، إذا أعطى ، فلا مانعٍ ، كما أنه لا يتهيأُ ، مع ما سُلِبَ وضاعَ ، نُبُوتٌ ولا بَقَاءٌ ، ولو رُفِعَ إلى أعنانِ السماءِ .

فلما تَقَصَّوا\* الجميعَ ، وتبيَّنَ الحقُّ ، جاءني قُرُورُ بوصيةِ السلطانِ ، مع ٦٤ (١)

أبي بكر بن مُسَكِّنٍ ، وهو في ذلكَ على مُنتَقِمٍ شانيءٍ ، وهو يقولُ لي :

٢٠ « الأميرُ يُنهي إليك أن لا يَبْقَى لك عندَ أحدٍ ودِيعَةٌ ؛ وإنَّ ما في قَصْرِكَ قد نزلتَ عنه بالأزِمةِ ؛ وما في خِيائِكَ قد صارَ إلينا وقَشْنَاهُ ؛ وَبَقِيَ لنا

أن تدرى مالك مودوعاً ؛ وإذا ، لا عهد بيننا وبينك ، إن خرج قبلك درهم عند أحد ؛ ولا تكون عقبك في ذلك إلا أن يجعلك في الصخره بحيث لا تريح ذلك المال ، ويبقى عند من أودعته . « فرجعت إلى نفسي أن نعم لها عند أحد درهماً وديعة ؛ فلم أجِد . وأقسمت له على حق .

ورجعت إلى الوالدة ، أعظها ، وأقول لها : « أسألك بالله ألا ما أشقت على ؟ فربما قد أخرجت شيئاً لا أعلمه ؛ فيظهر بعدى ، ويكون فيه هلاكى ، وهلاكك ! والدنيا أقل من هذا كله ! والقوم ، كما ترين ، متملقون بشعرة ، يطلقون معنا أرق سبب إتيانك أن تسمى بي ! وإذا تبرأنا له ، لا يمكن له تضييعنا . وليس يدخر المال إلا لثلاث :

١٠ سلطان يجور ، أو فتنة تدوم ، أو عمر يطول . ونحن في نفر يسير ! « فلما سمعت ذلك ، بكيت وقالت : « نخشى أن نبقى فقراء ! وللوت أهون من الفقر ! » فسهرت عليها الأمر ؛ وقالت : « إن الله لا يضيع من خلق ! » فكتبت تسمية بما أودعت من متاعها ، تلك الليلة التي حان خروجي في غدها : ذكرت أن لها عند لذة خادم ابن أبي خيثمة

١٥ كاتينا سبيبات لبعض جواربها ، ولها عند ابن الزيتوني القروي أربعة آلاف ميثال ، وحلياً أرسلت فيه على المقام : نحو خمسة عشر عقداً ؛ فأما الحلي ، فأتاها وأعطته لقرور ، ولم تؤخر به ساعة ؛ وأما الذهب ، فإنها ، لما جلبته من ابن الزيتوني ، بادرت به إلى السلطان وتحملة لنفسه .

٢٠ وكذلك فعلت خادم ابن أبي خيثمة ، وأتت إلى قرور بتلك الأسباب\* ؛ ٦٤ (ب) فوقع إلينا الخبر ، وزادنا ذلك مما أن بدروا به للشرط الذى اشترط علينا ؛

فأخذتُ على المقام تلك التسميةَ ، وأرسلتها إلى قرور ، قبل أن يبدأ بنا ؛ فقال : « قد أخرجوه لنا . فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! » فاستفهمتُ والدتي ثانيةً ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : « مالي شيء عند أحدٍ أكثرُ ! » فأخذنا المصاحفَ ، وحلَقنا فيها لقرور أنه مالنا شيء أكثرُ ، لا مُودَعٌ ولا مرفوعٌ . « فأعلم السلطانَ بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا يبحثُ ويستقصي . فما وجد لنا أكثرَ كما قالت الوالدة .

ولمَّا لم يجد شيئاً ، أتانا قرور ثانيةً ، وقال : « أنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثر . ولكن إياك ان يكون لكم مالٌ مدفونٌ ! » فقلتُ : « ما علينا قطٌ بدفنٍ ، ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ شأننا ! وغيرُ مُتَعَذِرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله ، حتى يرى ! » فقال لي : « إياك بالمنكب ! » فقلت : « مالي بالمنكب إلا شيء من الأثاثِ عددته لنزولي فيها : جميع ذلك بزمامٍ بخطِّ يدي . يُرْسِلُ فيه الأميرُ ويأخذُ به ! » فقال لي : « هاتِ خطَّ يدك بإخلاء المنكب ! » فبادرتُ على المقام . وأصاب الزمامُ بالمنكب على الصفة التي وصفتُ . وكان الجندُ بها قد ترَبَّصُوا ، وقامت الرعيَّةُ ؛ فطلب خطَّ يدي بالإخلاء .

ولمَّا صحَّ عنده براءتنا من جميع الأشياء ، أتانا قرور لتحصيل ما بقي . والعجبُ منه في تلك المدة أنه أتاني بسيفٍ كبيرٍ ، وقال لي : « اقرأه ! فإن فيه جميع الأعلام التي رأى الناسُ لنا بملك الأندلس ، وفيه عباراتها ! » ولا أدري ما أقرأ ، [ ولا أسمع ] ، أكثر من قوله لي بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ نجيت الأموال ، لا [ بقي لك ] منها شيء ! » ولمَّا وقف على جميع ما في الخلاء من وطاء وثيابٍ ، رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفتنسَ ؛ يَجدُ غيرَ ما رآه\* أولاً . (١) ٦٥

## ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما في التسمية أنه لا غنى للإنسان عنه ، سوَّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خدامٍ ، أمرنا لها ، وأعارنا دوابَّ (١) خمسةً لنقلنا الأثاث كله ، وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال :  
 ٥ « تَنْتَظِرُوا بِهَا السُّلْطَانَ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْكُمْ . » وَأَعْطَانَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ مُشِيْعِينَ مَنْ يُوَسِّئُنَا وَيَتَكَلَّمُ أُمُورَنَا . فَشَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَتَحَرَّكْنَا عَلَى الْمَقَامِ ، إِذْ كَانَ الْحَفْرُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَدِيدًا .

وَكُنَّا طَوَّلَ طَرِيقَنَا جَازِعِينَ ، لَا نَدْرِي مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بِنَا ، وَلَا مَا الْإِشَارَةُ فِينَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْمُرَابِطِينَ يَنْزِلُونَ بِمَنْزِلٍ ، أَوْ يَحْتَلُونَ فِي مَوْضِعٍ ، فَأَقُولُ : « إِنَّ ذَلِكَ لَشَيْءٌ أَمْرٌ وَبِهِ ! » فَكُنْتُ طَرِيقِي ذَلِكَ تَحْتَ جِزَعٍ وَهَلَعٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُكْفِّرَ بِهَا السَّيِّئَاتِ ، وَيَجْعَلَهَا آخِرَ مَصَائِبِنَا بَعْرَتَهُ ؛ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا الْجَزِيرَةَ .

فَأَرْسَلْنَا إِلَى سَبْتَةَ ؛ وَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، أَدْرَكْنَا فِيهِ أَهْوَالَ لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا بِالْأَجْلِ الَّذِي لَمْ يَحْضُرْ ؛ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى سَبْتَةَ ، بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَنَا : « فِيهَا تَنْتَظِرُوا الْأَمِيرَ ! » كَمَا قِيلَ عَنِ الْجَزِيرَةِ . فَرَادَنَا ذَلِكَ قَلَقًا .

ثُمَّ نَقَلْنَا إِلَى مَكْنَسَةِ الزَّيْتُونِ . وَتَلَقَّانَا الْأَمِيرُ سِيرًا ، وَأَنْسَنَا ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مَقَامَنَا عِنْدَهُ إِلَى أَنْ يَرِدَ السُّلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا مَائَةَ دِينَارٍ . وَعِنْدَ حُلُولِنَا بِهَا ، أَيقِنَا بِالْمَقَامِ فِيهَا . وَبَقِينَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، قَدْ

(١) أصل : دوابا .

فَقَدَ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَخَوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي تُرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ  
اسْتَحْوَذَ قَرُورٌ وَحَاسِيَتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا ( فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ ! ) ، لَمْ  
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَنْظُرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْتِغِي . وَالسُّلْطَانُ — أَيَّدَهُ اللهُ ! —  
غَافِلٌ عَنِ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنِ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ  
أَنْشِقُّ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ .

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [ كَتَبَ إِلَيَّ ] يَقُولُ  
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتِمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [ وَقَدْ كُنْتُ ] أَخْرَجْتُهُ  
مِنْ إِبْصَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِنَانِيرٍ ؛ فَرَاجَعْتُهُ نَعْلَهُ\* بِمَاجَتِي إِلَى تَمَنُّهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)  
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلَا يُبْتِغِي لَنَا شَيْئًا ، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْتِغِ  
لِي غَيْرُهُ .

نَهْمٌ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛  
وَخَاطَبْتَنِي بِكِتَابٍ يَبْعُدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَتْ ! »  
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللهِ  
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمْتَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْوُكُشُ<sup>(١)</sup> ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ  
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقَلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ  
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،  
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلْبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللهُ  
عَلَى بُنْضِي ، مَعَ قَلْبِهِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدِنَانَتِهِ وَلَوْمِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

## ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . ففيه

- وَبَلَقْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا تَمِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،  
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِغَرْنَاطَةَ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَتَمَحُّنٍ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ  
مُرَقَّبِينَ فِي الْخِجَابِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا لِذِي يَلْزَمُ  
• مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كَلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،  
وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لِدَاكِ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنْ مَا لَا أُخْرِجُنَاهُ مِنْ الْمَالِ  
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنْ قِيلَ  
لِلْسُلْطَانِ : « تَقَفَّتْ صَاحِبَ غَرْنَاطَةَ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ  
إِلَى بِلَادِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحَدَّثَهُ !  
١٠ فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَمَا جِلَّ بِثِقَافِهِ ، يُصَنِّقُ لَكَ مَا تَوَقَّلُ ! »  
وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الْمَذْكُورَ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،  
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتُ مِنْ  
أَخِيكَ [ بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي ] الطَّاعَةَ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،  
وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [ الْمُرَابِطِيَّةَ ] . وَالْآنَ تَسْتَحِدُّ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،  
١٥ وَنَجْمَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعُ الصَّبِيِّ بِذَلِكَ ، وَشَرِيهِ إِلَيْهِ :  
كَلَّمَ ذَلِكَ خِذْلَانَ [ اغْتَرَّ بِهِ ] \* مُلُوكَ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدَ مِنْ أَجْلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ ( ١ )  
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالَ بِحَيْثُ يَتَبَغَى لَهَا  
أَنْ تَقْصُرَ .  
فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أُخِذَ فُجْأَةً لثَلَا يَشْعُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَمَّهُ بِهِ ،  
٢٠ وَيَفِرُّ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِعَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع مَحَلَّتِهِ : قِيمَ لَهَا تَمَمَّ سُوْقٌ . وَأُلْقِيَ فِي الْحَدِيدِ ، وَأَمَرَ بِهِ إِلَى السُّوسِ . وَلَمَّا كَانَ طَرِيقُهُ عَلَى مِكَنَاسَةَ ، تَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوَل مَاقَاسِي ، وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالْكَئِيلِ لِعِظْمِهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجِبَ ذَلِكَ مَا وُصِّمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالِقَةَ رَفَعُوا إِلَيْهِ هِـ حِينَئِذٍ أَفْصَالَ قَبِيحَةً ، وَأَبَاذِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتِ الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ السُّوسَ ، وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَرْزَلَفَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةِ وَرَعْدٍ مِنَ الْمَيْشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وُلَاةِ السُّوسِ بَعْدَ بَرْزَلَفَ .



## الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعدوة ، بعد أن أكمل  
ما شاءه من أمر بني عبّاد وصاحب المرية :

وَمَنْ ذَا كَرُونَ مِنْهَا مَا بَلَغْنَا مِنْهَا ، مِمَّا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لَا بِتَخْلِيظِ النَّاسِ ؛  
وَمُخْتَصِرٍ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُفْتَى عَنْهُ الْإِكْتَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نُشَاهِدْهَا ، فَتُخْبِرَ  
عَنْ يَقِينٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنَّا كُلَّ النِّيَابِ ، فَتَجْهَلُ مَصْدَرَهَا  
وَمَوْرِدَهَا ، أَنْ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ الْبَغَاتِ مَا حَدَثَ  
بَعْدُنَا لِقَلَّةِ الْمَبَالَاةِ بِمَا لَا يَغْنِينَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنْ  
ذِكْرُ مَا سُمِعَ ، وَمَنْحُنُ قَدْ أَمِينًا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَايَنَاهُ ،  
وَمَنْحُنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيَّتِهِ بِالْمَعَايِنَةِ ، وَعَنْ  
وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ سَجِيئِهِ إِلَى غرناطة ، قد وعد الْمُعْتَمِدَ  
بِهَا . ، وَقَالَ لَهُ : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد! \* وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتوقع عليها من الرومى . وليس ٦٦ (ب)  
غَرَضِي أ كَثَرَ من تَخْلِيصِهَا ؛ فَإِذَا صَارَتْ في يَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِتْسَاكُهَا  
لِيَبِينَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ : فَتَكُونُ أَعْلَمَ  
بِمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَأَقَدَّ لِمَا يُصْلِحُ الْمُسْلِمِينَ . »

٥ فَلَمْ يَشْكُ الْمُعْتَمِدُ أَنْ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنٌ ؛ وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ  
في نفسه : « إِنَّ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ أَخْذُهَا بِعَمُودِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَتْ  
بِمَا تَوَخَّذُ مِنْ وَقْفَةٍ وَاحِدَةٍ ! سَتَنْجِرُ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَتَشِيخُ عَلَيْهَا  
لِلْحَلَّاتِ ، كَمَا صُنِعَ بَلِيِطٌ ؛ وَتَدْخُلُ الشُّتُوهُ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ ، وَتَبْقَى  
هَذِهِ الْمَعَاوِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أ كُونُ زَعِيمَةً . وَفِي خِلَالِ مَا يَتَلَوَّى أَمْرُ  
١٠ غرناطة ، اخْتَبَجَ إِلَى ، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا نُخَلِّي  
مِنْ بَرَكَتِهَا ! »

وكان الحبيبُ إليه أن تثبتي على ما ذكرناه ، إذ لا يعلم ، عند حصوله  
عليها ، ما تكون قرعته معه ، كالذي كان . وسكت عني في الأمر ؛ ولم  
يُمرَّ الانكشاف بسرِّه إلى رئيس يفتي عليه ، غير رموزات ، إذ ذلك  
١٥ لا تنفع . ولو قال لي : « امنتسك ! » فأنا أخوطُ على حالي ، أو :  
« اخرج ! » لم أطعه ما تهمة ؛ ولا يمكن أن يعطيني تقوية ، فينتضح  
عند المُرَابِطِ . إنما كان صنعُ الأمير أن يطلع ويرى ، عسى يتهيأ له في النصبه  
شيء ، أو يسلم من معرفته ؛ قد تنسب ، ولم يجد محيصاً غير ما كان بسبيله .  
وكذلك ابنُ الأَفْطَسِ معه على تلك الحال . وصاحبُ المرية في المرية  
٢٠ لم يتحرك : كلُّ أحدٍ منهم إلى ما ينقض من أمرِ غرناطة ؛ قد أجهتهم  
أمرها . وأقلقهم .

ولمَّا بصرتُ تَأْتِبَهُمْ عَلَىٰ مَعَ الْأَمِيرِ، خَاطَبْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِكِتَابِ  
أَقُولُ لَهُمْ : « هَذَا الْأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! وَالْيَوْمَ بِي وَعَدَا بِكُمْ ! » فَلَمْ  
يُمْكِنَهُمْ قِرَاءَةُ الْكُتُبِ دُونَهُ ، وَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ . فَخَتَّقَ عَلَىٰ ؛ وَكُتِبَتْ  
الْأَجْرِيَّةُ بِأَمْلَانِهِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلَطِّخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، \* وَنَحْنُ قَدْ  
٥ بِرَأْيِنَا اللَّهُ مِنْهَا ! » وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْوَعِيدِ وَالتَّذْيِيبِ : فَعَلُّهُ مِنْ قَدْ  
وَحِيلَ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مَعَ الطَّمَعِ وَعَمَى الْبَصَائِرِ ،  
كَأَنَّ وَصَفْنَا قَبْلَ :

وَكَانَ رُسُلُهُمْ إِلَيَّ قَبْلَ ذَلِكَ يَحْضُونِي عَلَى الْإِمْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وَقَالَ  
ابْنُ الْأَفْطَسِ : « أَنَا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » وَلَمْ يَرَوْا كُتِبَ كِتَابٌ خَوْفًا مِنْ  
١٠ أَنْ يَكُونَ ظَهْرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْدَاءِ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ  
قَدْ أَسْلَمُونِي إِلَى طَاقَتِي ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِي ، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ  
كَانَتْ عَلَىٰ ، لَمْ يُنْفِسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ الْمُرَابِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ  
بِأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِي فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طُولَ مَدَّةِ امْتِسَاكِ  
١٥ لَوْ امْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِي مَعَ رَعِيَّتِي ،  
لِمَا يَلْزِمُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُرَابِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْضُلُ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ،  
وَلَا تُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِي وَلَا الْاسْتِفْسَادَ مِنْ أَجْلِي . فَتَخَنُّ لَمْ يُعِينْ  
بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرُّومِيِّ ! فَكَيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِ ، مَعَ حَرْبِ الْكَافِرِينَ وَقِيَامِ  
أَهْلِ الْبَيْتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقَلَ ! وَلَمْ نَنْظُرْ نَحْنُ أَنْ الْأَمْرَ يَنْفَتِقَ  
٢٠ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا تُعَاجِلْ هَذِهِ الْمُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ  
يَقْدُمُنِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذْ مَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإنما طمَعنا بما قَصَصناه قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !  
وإنه، لَمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجَزَّ على قياس، خَرَجنا إليه، ولم تَلتَوِ ساعة .

### ٧٨ - حركات المرابطين على المريّة

- ٥ ولم يُقَدِّم أميرُ المسلمين شيئاً، وَقَتَ خروجي إليه ، على إرسال جيشٍ إلى صاحب المريّة ، قَبْلَ ابن عَباد ، إذ كان بتَخَلُّفِهِ مَوْسُوماً بالِنفاق ، ولأنّه مُعاقِدي على ذلك ، وأنّه تَحَلُّفَهُ لا يكون إلا عن اتِّفاقٍ .
- ١٠ فلم يُحَرِّكْ منها وَوَضِعاً إلاّ وأجاب . وتناثرت مَعاقِلُهُ أجمع ، حتى بلغ العسكرُ إلى باب المريّة . وكان الرَّجُلُ — رحمه الله — ساعةَ ورود الخبرِ عليه بِمُخْرُوجنا ، انطبقَ له ، واعتلَّ لما رأى من هَوَلِهِ وسوءِ عاقِبته . وقضى عليه وصول العسكرِ إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأقْرَعَ لها ومات .
- \* وولِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة ، الناهِضُ إلى قلعة حَمَّاد على ما نَصِفُهُ بعد هذا . ٦٧ (ب)
- وقد كان ، لِمَا رأى من طَلَبِ [ المرابط لبلاده ] ، قد وَجَّهَ إليه ابنه الآخر ، يَعْظُهُ ويُعلمه بِوَجْهِ الحقِّ فيه ، إذ كان يَنْتَحِلُ قِصَمَهَا ؛ وذلك بما ذَكَرْنَا من قِلَّةِ المَيْزِ بالأحوال ، إذ يَرَى هذه الأمورَ مُشْتَعَلَةً ، ويطمع
- ١٥ إطفاءها بالوعظِ ! فساعةَ وصوله ، أمر الأمير بِتَقافه على المقام في الحديد . وتحميل أبوه في انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارّاً من المرابط : اختَلَسَهُ من مَوْضِعِهِ رَجُلٌ له شَبَّابٌ ، قذف به في البحر حتى سَلِمَ إلى والده .
- وفتر الطَلَبُ على المريّة للشغل بما حدث بأمر ابن عَباد ، وأنه أوكد الأشياء . وإنَّ ابنَ صَمَادِج ، لما حضرته الوفاة ، وصَّى ابنه هذا المُستَخلف ،
- ٢٠ وقال له : « أمتسِكْ في هذه القصبَةِ طولَ مقامِ ابنِ عَبادِ في مُلْكِهِ

ياشبيلية ما استطعت ! فإن رأيت ابن عبّاد قد خرج ، فلا تتربّص ساعةً واحدةً ، وأنجُ بنفسك إلى القلعة ، وأدخل البحر بما قدرته عليه من ذخائرك ، إذ لا مطمَع لك في البقاء بعده ! »

٥ حفظ وصية أبيه ؛ وساعة ما انقضى في إشبيلية ما انقضى ، مخترقاً قطعةً أشحنَ فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره ، وكم أمره ، وخرج باسم أنه ناهضُ إلى أمير المسلمين بهديّةٍ لِيَهْدِنَا بِذَلِكَ أَهْلَ الْمَرِيَةِ ؛ فسروا بفعله ، وقالوا : « هذا هو الصواب ، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك ! » حتى توسط البحر ، وأعطى للتوابع مالا جسيماً ، وأخبرهم غرضه . وخرج بالجزائر ، وأكرمه صاحبُ القلعة ، وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحبُّ السكّنى ؛ ١٠ فاختار تدلّس ، لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السلطان ، خوفاً من الطلب . وانحمل في ذاته ، وأخذ نفسه بالأزجج في أكثر أحواله .

### ٧٩ - تؤثر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد

١٥ وإن المعتمد بن عبّاد ، لما بصر بدخول الأمير غرناطة ، وأستنجز وعده ، فلم يلتفت ، ورأى ثقافتها بالمرابطين وإخراج من فيها من الحشم وكل من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعاً شديداً ، وخاف أن يثنى به ، إذ رأى الأمير مذهباً في البلاد واستصراخه . \* ولم يمكن للأمير أن يأخذه بغير ذنب : ٦٨ (ب) فيقبح ذكره . وأشار إليه المرابطون بثقافته ؛ فأبى حتى يلوح قبلة ذنب يؤخذ به . ثم إنه ، بعد أن نهض واتبعه قرور يقول له : « الأمير يحتاج إلى تذكارك بعض الأمر ! » فأبى ، ومضى لوجهته ، فأراً بنفسه ؛ وأطوى المراحل ، حتى وصل قرطبة . وقال في طريقة إلى ابن الأقطس : « انجُ ٢٠

بِنَفْسِكَ ! قَد تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةَ ، وَعَدَا بِنَا ! »  
 ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،  
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »  
 فَيَجِدُ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاجَعَهُ ابْنُ عَبَّادٍ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ  
 ٥ كُنْتَ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ النِّزْوَةَ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتِكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ  
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلَ بَادِيْسٍ وَحَنِيْدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِجُنُودِكَ !  
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغْرِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخْذَ بَلَدِي ، إِذْ لَا تَصِحُّ لَكَ  
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السُّلَمِيِّينَ أَنْ  
 يَلْتَزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقَبَالَاتَ ؛ وَتَحَامَلًا كَثِيرًا عَظِيمًا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ  
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعَهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادٍ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [ الرِّبَاطُ ] بِدُخُولِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لغيرِهَا ؛ وَقَامَتْ  
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرُّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَعَدَدَ عَنْهُ ،  
 خَيْفَةً مِنَ التَّغْرِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السُّلَمِيِّينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادٍ ، أَنْ قَالَ لَهُ :  
 « ظَهَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرُّومِيِّ وَإِرْسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُعْتَمِدُ : « لَوْ قَمَلْتَهُ  
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُوْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامًا ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ  
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتَنِي الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ لِلدَّفَاعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »  
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عبّاد

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقَعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ النُّقَمَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا  
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَهَذَا مَا أُخْرِيَ<sup>(١)</sup> بِهِ لِيُيْلِكَ

(١) أصل : « ونعم » .

من هلك عن يَبْنَةِ وَلِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ إِخْرَاجَهُ . فَأَمَرَ الْأَمِيرُ  
سِيرًا بِالخُرُوجِ إِلَيْهِ . وَنَهَضَ ، وَتَمَحَّنَ بِمَكْنَأَسَةٍ . وَنَازَلَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب)  
وَمَعَاظِلُهُ قَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُهَا بِالطَّاعَةِ .

٥ وافتتح الأميرُ بجلال هذا مدينةَ قُرْطُبَةَ ، واستشهدَ فيها ابنُه للأُمون  
ووزيراهُ ابنُ زَيْدُونِ وابنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ أَهْلِ  
الْبَلَدِ ، مَعَ انخِرَاقِ لِلدِّينَةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَمَكُنْ ضَنْبُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ  
حَذِرًا عَلَى قُرْطُبَةَ ، يَرْجُو بَقَاءَ حَالِهِ بِبُتُوتِهَا ، وَيُوصِي ابْنَهُ بِالصَّبْرِ ، وَيَقُولُ  
لَهُ : « لَا تَجْزِعْ ! فَمَلُوتُ أَهْوَنُ مِنَ الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا مِنَ  
القَصْرِ إِلَى القَبْرِ ! »

١٠ فَلَمَّا أُخِذَتِ قُرْطُبَةُ ، انقطع الرجاء . وضاقَتِ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ وَنَدِمَ مَا كَانَ  
بِيَدِهِ مِنْ أَجْلِ النِّفَقَاتِ ، إِلَى أَنْ دَخَلَهَا الْأَمِيرُ سِيرًا عُنُوتًا بِمُدَاخَلَةٍ مِنْ بَعْضِ  
أَهْلِهَا . وَهَلَكَ فِيهَا عَالَمٌ ، وَانكشَفَ الحُرْمُ ، إِذْ لِلجَيْشِ مَعْرَةٌ لَا تُمَلِّكُ  
بَعْدَ صَبْرِهِمْ عَلَى مَلِكِهِمْ . وَظَهَرَ لِسِيرٍ مِنْ اجْتِهَادِهِمْ فِي القِتَالِ مَا أَعْجَبَهُ  
ذَلِكَ ، وَقَالَ : « لَوْ أَنِّي أَقْصَدُ<sup>(١)</sup> مَدِينَةَ الشَّرْكِ ، لَمْ تَمْتَنِعْ هَذَا  
الْامْتِنَاعُ ! »

٢٠ وَكَانَ دُخُولُهَا مِنْ نَاحِيَةِ الوَادِي ، وَهُوَ أَشْهَلُ الْأَمَاكِنِ . وَلَوْلَا صَبْرُ  
أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابْنِ عِبَادٍ ، لَمْ يَسْتَطِعْ [ الْمُعْتَمِدُ ] عَلَى شَيْءٍ ؛  
فَكَانَتْهُ غُلِبَ بِالنِّفَقَاتِ الَّذِينَ كَانَتِ الْأَبْوَابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَلَهُمْ بَيْنَ سِوَاهِمُ ،  
إِلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ القِضَاءِ مَدْفَعٌ . وَكَانَ دُخُولُهَا يَوْمَ الْأَحَدِ فِي [ ٢٢ ]  
رَجَبِ [ سَنَةِ ٤٨٤ ] ، فِي النَّارِيخِ الَّذِي دُخِلَتْ فِيهِ غَرَنَاطَةُ بَعْدَهَا بِعَامٍ كَامِلٍ .

(١) أصل : « تقصد » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثمَّ التوى أمرُ  
رُنْدَةَ ؛ ونازلها قَرُورٌ ، إلى أن ظفر بالراضى ، وخدعته ، وحصل على  
أمواله ؛ ثمَّ قتله ، خوفاً من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيل إن ذلك  
لم يكن عن رأى السلطان . وأمرَ بقتل كلِّ من ظفر به في رُنْدَةَ  
المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين . وقتل فيها رجلٌ من العرب يُعرف  
بأبى الصنصام ، جراًة على الله ، ليأخذ بنته ؛ ونكحها من بعده ،  
وحصل على ماله . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ <sup>(١)</sup> . وامتنسك بالعييد ، وصيرهم  
إلى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد ، قياً الأميرُ سيرُ خدمته وعبيدته ، حاشى أمهات  
الأولاد . وأمره أميرُ المسلمين بإرساله إليه . قدم إلينا بمكناسة مع دخلتيه ؛  
\* وبقى فيها إلى أن سبق معنا إلى آغمات .

٦٩ (١)

## ٨١ - ققول يوسف بن تاشفين إلى مراكش

وإنَّ أميرَ المسلمين ، لنا فتح الله له في هذا كله ، أخذَ في الانصراف  
إلى مرَّوكش ؛ وقد بلغ من آماله غايتها ، وامتلات يدها بالأموال ؛ وقسم  
على أجناده بعض من الفىء ، وأهدى إلى الصخراوي عمه من تلك الذخائر .  
وأمرنا أن نستوطن آغمات ؛ فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ  
جميل ، وأنزلنا بداره الصخراي في الحريم ، ولم يزل يعتدنا من إنعامه ،  
كيف ما هياً الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفق بنا ، وأحسن  
مذهب فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه منا إحسانٌ .



## ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفتس صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَدَّمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعُ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طِعْمًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّئِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كَلَّهُ ، يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدَلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الرَّابِطِينَ ، وَدَاخَلَ الرَّؤُمِيَّ ؛ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ الْمَطَالِبَةُ ؛ وَسُعِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّعْيِ سِرًّا ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كَلَّهُ ، مِثْلَ السَّمَكَةِ الْمَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةَ » : لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَاطَبَ : يُخَاطَبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرَّؤُمِيِّ ، وَيُخَاطَبُ الْفُونَشَ لِيَسْتَمِينَ بِهِ عَلَى مُلَمَّةٍ ، إِنْ دَهَتَهُ مِنَ الرَّابِطِينَ . وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحَذَرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعِيَ عَلَيْهِ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سِجِلْمَاسِيٌّ قَفِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَظَنَ بَطَلِينُوسَ ، وَاکْتَسَبَ فِيهَا مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّرْوَةِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخَ مُتَعَبًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ ، [ عَمَلٌ ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بَقْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوِرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

\* الحاجة إليه ، إلا أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقبة معه أنك مُسْتَعْنٍ عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فأنت له طُعْمَةٌ .

فقال له ابنُه المنصورُ : « هذا الترددُ لا يجرُّك ، ولا يفتي عنك ما تُرى من إظهارِ الطاعة للمرابطين ولا طاعة أهلِ بلدِكَ لك ومحَبَّتِهِم التي كانوا يرضون عليك ! فلو أنهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ في عزيمةٍ ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيتَ صنيعَ بغيرِكَ ! فإِذَا أن تُصِفِي للمرابطين ، فلنَّ تَبْلُغَ يرضاته إلا بالانخلاع له ووضعِ البلدِ في يديه ؛ ونَقْنَعُ بأن تكونَ مُتَحَرِّبًا ، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة ؛ فمَاجِلُ ذلك ، تَجِدُ عنده الأمانَ ! وإن فَرَّتْ نَفْسُكَ عنه ، فلا تتأخَّرْ عن الفرارِ منه بنفسِكَ وأهلكَ وجميعِ أموالِكَ ! يجعلك الرُّومِيُّ في أيِّ بلدةٍ شئتَ ؛ ورُبَّمَا سَوَّغَهَا لك ، كما قَعَلَ بابين ذى الثُّونِ في بَلَنْسِيَّةٍ ؛ وَتَرَكُ مدينةَ بَطْلِيُوسَ ، لا تدخلُ على المسلمينِ داخِلَةً ؛ فيحصلُ لك النجاةُ بِمُهْجَتِكَ ، وسلامةُ البلدِ للمسلمينِ ! » فقال له أبوه ، وسَقَّه رأيه : « لا أتركُ موضِعِي ! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقدارُ ضدَّ ما تَظُنُّ ! » فخرجَ عنها ابنُه ، وَتَجَا بِعَالِهِ وَأَهْلِهِ ، وأخذَ لنفسه بالرأى الذي أشارَ به على أبيه . وَبَقِيَ الشيخَ لِحَيْتِهِ ، حتى نفذَ أمرُ الله فيه .

وإنَّ الأميرَ سِيرَ ، لَمَّا أرادَ من التخذُّمِ لأمرِ بَطْلِيُوسَ والحيلةِ فيها ، لم يَثِقْ بنفسه في ذلك ، لحدوثِ ولايتهِ الأندلسَ ، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعَانِي إِلَّا بدَوَانِهِ ، ولا يُلْقَى أَحَدٌ إِلَّا بِحَجْرِهِ ؛ فتخيَّرَ لذلك ابنَ رَشِيْقٍ ، لأنَّه أُنْدَلُسِيٌّ ، عَالِمٌ بالمكاييدِ في الفتونِ ، مع ما كان له عليه من الأيادي قَبْلُ في لَيْبِطَ ، وأنَّ ثقافتهَ ذلك الوقتَ لم يكنِ إِلَّا على رِغْمٍ منه بِمُضَادَّةِ قَرُورِ

له . فانهز الفرصة في إطلاقه ، والمكافأة له على صنيعة بما يأمره من أمر بطليوس .

وخطب السلطان في أمره ، بعد أن أطنب في صفة حاجته إليه . فقبل قوله ، وأمر بإرساله ، وألطف له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له بمال جسيم . ونهض ، بعد أن حد له الوقوف عند أمير سير ، وأنه مستحبه ؛ فضى . وفي الناس من انطلقه \* ماتعجبوا منه وخطبوا القول (٧٠) (١) في ذلك ، كل أحد على مقدار عمله أو شهوته .

فلما وصل ، تخدم أمر بطليوس بكل وجه من المداخلة لأهل البلد ومن معه في القصة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحون له [ الباب ] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالشور عند الإمارة التي كانت مع من داخله . وتقبض على الشيخ وابنتيه الفضل والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة . وأمر سير بإخراجه للقتل ، بعد أن رأى في نفسه هواناً عظيماً ، وشده على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطاهم ؛ فأمر بقتله مع ابنتيه الفضل والعباس — رحمهم الله — .

وطاع جميع ذلك الثغر للرايطين ، كأنه لم يكن قطاً لغيرهم . وفي أهل وبناته ، وجميع ما تركه . ثم صار ابنه المنصور في جملة الروم ، حنقاً لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين .

## ٨٣ — نشاط المرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لدرّيق على بلنسية

وَصَرَفَ الْمُرَابِطُونَ وَجُوهَهُمْ إِلَى فِتْنَةِ الرُّومِ وَمُقَاصَاتِهَا ، بَعْدَ إِكْمَالِهِمْ  
لِأَخْذِ سُلْطَانِ الْأَنْدَلُسِ ؛ يَقُولُونَ : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا قِتَالُ الرُّومِ ، وَتَرْكُ  
وَرَاءِنَا<sup>(١)</sup> الْأَعْدَاءَ ، يَمْنُ يُوَاسِي عَلَيْنَا مَعَهُمْ ! » فَكُلُّهَا تَهَيَّآتُ بِلَا مَشَقَّةٍ  
غَيْرِ إِشْبِيلِيَّةٍ ؛ فَوَقَعَ فِيهَا بَعْضُ التَّغَدُّرِ ، كَمَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ . فَسُبْحَانَ الْمَقْدَرِ  
الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : « كُنْ ! » فَيَكُونُ . هَذَا نَصٌّ مَا كَانَ  
وَلَا نَعْلَمُ مَا يَكُونُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ      وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمٍ  
ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بلنسية ما لم يذبلج بها ما يوصف ؛ فإنّ  
الحديث لا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ إِلَّا بَعْدَ تَقْضَى آخِرِهِ ؛ وَالْقَوْمُ لَا تُكْبَدُ إِلَّا  
بَقِيضِ طَرْفِهَا ؛ فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْخَبِرَ ، طَابَ إِيرَادُهُ وَحَسَنَ مَوْقِعُهُ ، وَنُتِقَ  
بَعْضُهُ بِيَعْضٍ . وَلَوْ أَنَّا نَدَّعُ هَذَا التَّأْلِيفَ إِلَى مُدَّةٍ يَتَمُّ فِيهَا خَبَرُ بِلَنْسِيَّةٍ ،  
لَأَتَيْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظُّهْرُ لِلْمَسْلَمِينَ ، وَتُرِكَ\* هَذَا الدِّيوانُ مَخْرُومًا ، ٧٠ (ب)  
انتظاراً لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَمَلٌ بَعِيدٌ . ١٥

وَاسْتِثْنَاؤُ تَارِيخٍ لَهُ فَصُولٌ لَا يُعْنَى ، لَا سِيَّأً أَنَّنَا أَخَذْنَا أَتْقُسْنَا فِي  
حَيْزِ كَمَامِهِ بِمَا يَلِيقُ بِالزَّمَانِ ، وَرُضْنَاهَا بِمَا تَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الشَّرِّهِ  
وَالتَّزُّهِ عَمَّا فَاتَ ، وَإِعْمَالِ قَطْعِ الْيَأْسِ عَمَّا قِيلَ ؛ وَالْيَأْسُ عَمَّا فَاتَ يُعَمِّبُ  
رَاحَةً ؛ وَكَرْبُ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ دُرَّاحًا .

(١) أصل : « وَتَرَكَوْا رِأَا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية  
 لأمير المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين  
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لِمَا أمرَ به من طاعة الأئمة والتَّصَحُّحِ  
 لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا  
 وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان  
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا .

### ٨٤ — تأملات في تقلب الأقدار

وما حلَّ يابن الأفتس ، فشكرنا الله على ما تجانا منه ، وصرَّفنا وجهه  
 اهتبالنا إلى ما نتفع به ، وغلبنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها  
 تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية  
 تحمل على الغلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .  
 ورأينا أنَّ شغل البال بما مضى لا يردُّ شيئاً غير المهمِّ والكرب اللذين  
 يُنحلان الجسمَ ويذهبانِ اللَّبَّ ، وأنَّ الخرجَ على ما لا يكون تعبٌ للبدنِ  
 ومسقةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى  
 ما يكون فيما بقي ؛ وإنما له لذةُ ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده  
 لِمَعادِهِ . فإنَّ أعقبَ الله بخير ، فلنَّ نخسر ما سلفَ من أيامنا ، فنهرم  
 قبلَ أوانِ الهرم ؛ وإن كان الذي يأتي أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغتنامُ  
 ما نحن فيه ، ونمدها أعياداً ، ونحدثُ لله عملاً يرضاه ؛ وإن كُنَّا أبداً  
 على هذه الرقية بلا انتقال ( وغير متمكِّن من ذلك ) ؛ فتوطينُ النفس  
 على ما يعلَمُ أنها عليه دائماً ، أخرى وأرواحُ للبال .

- ثم إنى اعتبرتُ جميع ما فى الدنيا، التى إليها يسعى الناسُ؛ فوجدتُ  
 نفسى مُبلِغةً منها كلِّ أملٍ؛\* وإن انقطعتُ، فلم نصحبها، ونحنُ منها (١) ٧١  
 على يقينٍ بتخليدِها. بل، لكلِّ شىءٍ مُدَّةٌ، ولا بُدَّ من تزكها.  
 والخروجُ منها فى مُدَّةِ العُمرِ خيرٌ من مَيْتَةٍ على فِتْنَةٍ أو غَرْقٍ، عسى  
 بذلك أن يُعْظِمَ اللهُ الأجرَ، ويكفِّرَ السيئات. ويكون ذلك للإنسان زاجراً  
 عن الآثام، ويعتبرُ قَدْ مالٍ كأنه لم يكتسبه برزِيَّةٍ نفسه إذ حان حينه،  
 فيُقدِّمُ لها النظرَ، بتوفيقِ الله تعالى، قبل الموت وحلولِ القوت. والله  
 المُستعان لا شريك له!
- سُئِلَ النَبِيُّ — عليه السلام — عن علامةِ انشراحِ القلبِ للإسلام؛  
 ١٠ فقال: « هو التجأ فى من دارِ الغرور، والإجابةُ إلى دارِ الخلود، والاستعدادُ  
 بالموت قبل لقاءِ القوت. »

## الفصل الثاني عشر

### تأملات أخيرة بعد النفي

#### ٨٥ - المؤلف والشعر

وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس ، ورتبة دولتنا ،  
وما انتهت إليه فيها أحكامنا ، حسب ما ساعدتنا عليه أذهاننا ، ونالته  
مقدرتنا ، إلى انصرام الأمد ، فلنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق  
بنلك من شعر نظمناه وقت فراغ البال وجمام النفس ، مع ما أغان على  
ذلك من النظر إلى كل مستحسن ، والشروع بطيب كل خير .  
على أنني لم أنتحله قبل ، ولا كان من شأني الأخذ به ، إلا على  
سبيل الاستطراف والإطناب في وصف شيء أريد نعتة . فربما صنعت  
في البيت أو البيتين أياماً ، أحضر لها ذهني ، وأحد فكري ؛ فتصدع  
بعد كدي ، وما أكاد ، كالشيء المستغرب من غير معدنه . فينشد لها  
الكتبة في مجالس الاحتفال للراحات ، قطع بذلك الزمان عند الفراغ  
من الشغل ، كالذي يأخذ به الملوك أنفسهم في ساعات الدعة ؛ ونضيف  
معا لمتعاً من آداب وسير محضرتي ، مما يختلج في الخاطر ويجرى بها الإنسان  
بصحة الزمان وتنقله في الحالات . وقيل لرجل : « من أين لك هذا  
العلم ؟ » قال : « قلباً عقولاً ، ولساناً سوؤلاً ! »

## ٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وَكُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النِّشْأَةِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . وَقَدْ طَالَمْتُ مِنْ مَوْلَدِي  
 أَشْيَاءَ مَيَّزَتْهَا مِنْ طِبَائِي وَأَخْلَاقِي ، عَلَى أَنَّ وَاضِعِيهِ الْقَوِيُّ وَنَحْنُ فِي حَالِ  
 الطَّفُولِيَّةِ ، \* لَمْ يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)  
 عَنِّي سِمَاجَةٌ مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي عَلَى غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ  
 عَلَيْهِ ، خَوْفًا عَلَىَّ مِنْ الْعُجْبِ بِمَا كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطَالَمْتُ  
 مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلِدُ رَصْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتِ  
 بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشْرٍ مَعَ الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ  
 الشَّمْسُ فِي الدَّائِرِ مَعَ عُطَارِدِ ؛ وَاتَّفَقَتِ النَّحْسَانِ فِي الثَّوْرِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ  
 وَالقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيْلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ البُرُوجِ ، فَصَلَحَ  
 لِنَاكَ لِأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ التَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةُ كَدَخْدَاهُ ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا  
 — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِّيهِ الْوَسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً  
 يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ  
 وَخَمْسُونَ عَامًا . وَاللَّهُ بَعِيْبُهُ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ ( الطَّالِعُ ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ  
 السَّعَادَةِ لِلْمَوْلُودِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمَثَلَّةِ الْأُولَى زُحَلًا ، وَمَعَهُ الْمَرِيخُ فِي  
 بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثُّلُثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْصِيصِ  
 وَالتَّكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثُّلُثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ  
 وَالْمُؤَمِّمِ ، مُحْسُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،  
 ٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ



وَالسَّعَادَةِ ؛ فَدَلَّ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَأُطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أُدْرَى كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

٥ ثُمَّ وَصَفَ خَبَرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السُّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَبَرَ الْبَنِينِ ؛ فَهَالِ : بِمِثِّ شَهْدٍ شَاهِدٌ ، يَكُونُ الْوَالِدُ ؛ وَشَهْدٌ آخَرُ بَأَنَّ لَا وَالِدَ . وَدَلَّ عَلَى الْعِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتَاهُ دَلِيلًا عَلَى قَلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي نَصْبَةِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَعَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّغَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْعَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَاقَرَةٍ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُتَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطَّلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صِحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصْرَفِ الْأَيَّامِ وَمُجْرِي الْأَفْلاكِ !

(الْفَلَكَ ما استدار من الأشياء ؛ وهو قوله تعالى : « كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »<sup>(١)</sup> . وَسَمَّاهَا سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ ما ارتفع سَمَاءً ؛ فهي ، لارتفاعها علينا ، سماء ؛ وهينمتها : فَلَكٌ ، لا سماء . )

### ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم

ولا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ دَلالَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْفَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُسْتَعْلَةِ بِمَكَانِ عِلْمِ أَنَّهَا مُحْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِجَرِيَّةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ، فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةٌ . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرُوتهِ ، يَرْجَى لَهُ ذَلِكَ إِنْ أَخَّرْتَهُ الْمُدَّةَ . وَجِئْتُ بِطَيْبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِحَوْلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا أَعْلَمَهُ التَّرْهُجَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْتَعْنِ إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى بِصِحَّتِكَ ! »

وقد أُغْلِيَ<sup>(٢)</sup> أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي مملكتهم إلا من شاكل طالع الدولة ؛  
 وهم يزعمون أن طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة ،  
 أو كان منها ثاني عشر أو سادسًا ، وأمكنة الكواكب غير متفكة\* (١) ٧٢  
 للكل ، فإنه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إما تهلكه ،  
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل  
 اختيار العقول والمذاهب ، يرون أن القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :  
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذه الآراء لطول  
 المدد . »

ثم إنهم يزعمون أن العمر الطبيعي مائة وعشرون عامًا ، وأن القواطع  
 التي تكون قبله إنما هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضية ،  
 إما من فساد المزاج ؛ فنخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في  
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فمتى فسدت منها طبيعة ، اعتل  
 الجسم ؛ وإن تغيرت كلها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمينة : فالدم  
 ربيعي ، والبلغم شتوي ، والصفراء صيفية ، والسوداء خريفية ؛ فمن  
 عالج كل زمان منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا  
 ١٥  
 باقى مع الله !

و[لما] احتج عليهم بالذى يموت فجأة ، أو فى زحّة ، أو بأرق  
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ،  
 وافق رأيهم أن لا فلسفة تم حتى يجمعها ، وأن لا قوام لأحد العالين  
 دون الآخر ؛ قالوا : إنما ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإن المولود ، إذا  
 ٢٠  
 كانت هياليجه ساهرة ، صح ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدلُّ عليها العَطِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً  
كلَّها ، عرض للموت بأَرْقٍ سببٍ . فإن لم يكن له هَيَالِجٌ ، سَيَّرَتْ  
المَطَّلَعِيَّةُ وَعُدَّ لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تمامِها ، وقد يكون في  
تَحَاوِيلِ السَّنِينَ ؛ وإن تمَّ العَطِيَّةُ عند انتهاء صاحبِ حدِّ الدَّرَجَةِ إلى  
موضعِ نحسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النجومُ السعيدةُ .  
وسمَّوهُ الجَانَّ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحياةِ بإذنِ الله .

ومَنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه\* ، ورضيَ بما قسم له الباري\* — عزَّ ٧٢ (ب)  
وجَلَّ — ؛ فلا ينقد على نفسه ، ويعيش طيب العيش ، يدري أن  
لا قاطعَ يقطع به في تلك المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لهولِ عليٍّ — رضى الله عنه —  
١٠ لرجلٍ قد أسَنَّ : « آية شجاعة قد فاتتكَ ! » يعني : لو أنك قبل اليوم  
تدري أن هذا يكون عُمرَكَ لم تُبالِ .  
وأما أنا ، فأقول إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المَدَّةُ ، وزيادةً في ألمِ المَنِيَّةِ  
إذا اقترَبَتْ . ولا يكون الطُّبُّ إِلَّا لِيُصَحِّحَ البَدَنَ مُدَّةَ الحياةِ لكرهيةِ  
العيشِ في نكدٍ . وأما لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فلا ينفعُ شيءٌ .

### ٨٨ — آراء طِبِّيَّة في الأغذية والنبيذ

١٥

قال بعض الحكماء : « الناس يعيشوا<sup>(١)</sup> ليأكلوا ، ونَحْنُ نَأْكُلُ  
لِنَعِيشَ ! » فتأمل معناه .  
وجمع أحدُ الملوك أطباءَهُ ، فقال لهم : « أعلموني بالدواء الذي لا داء  
معه ! » فكأهم تكلم على الأدوية والمُعاماتِ بها ، غيرَ واحدٍ منهم كان

(١) كذا في الأصل .

أكبرهم سنًا ؛ فردَّ عليهم أن : « ليس عن هذا سألكم الأمير ! ولكنَّه يأذنُ لي في الكلام ؟ » قال : « قلْ أفأنتمُ معدِنُ الحكمة والفلسفة ! » فقال « أيها الأمير ! إنَّ الدواء الذي لا داء معه أن تكونَ ، عندَ أخذِك للغذاء ، تتركُ منه بقدرِ ما تمُّ به الشبعة ، ولو لهُمَّتَيْنِ ، ولا تتملأُ ! فذاك دواء لا يحتاجُ معه إلى طيبٍ ! »

وذكرَ هذا عن الرشيد ، إنَّه قدَّم بين يديه قصعةً بطعامٍ ؛ فلما أكل قال : « هذا غذاءٌ ودواء ! فما زيدَ عليه كان داء ! » وعلى أنه لكلِّ امرئٍ من دهرِهِ ما تعودَ .

وقال النبيُّ — عليه السلام — : « أصلُ كلِّ داء البرودة ، وأصلُ كلِّ داء الحمية ! » وقيلَ : « أقلُّ طعاماً ، تَحَمَّدَ منلماً ! » وقالت الحُكماء : « إنَّ الكثرة والقلة عدوَّ الطبيعة . »

قد نرى<sup>(١)</sup> في الخمرِ ما ، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثير ، لم يجب أن يُقال له : « قلل ! » ولا من شاربٍ وأهه القليلُ ، أن يُقال له : « ازدد ! » غيرَ أنَّ العاقل يَرى ذلك بحسِّه ، ويعلم ما لم يُوافق طَبَّعَه ؛ فلا يزيد عليه شيئاً .

وسئلَ حكيمٌ عن الخمرِ ؛ فأجابها ، إلاَّ أنه قال : « إذا أخذتَ كيفَ يَنبَغِي ومع من يَنبَغِي ، فلا بأسَ بها : تفرح النفس ، وتذهب بالهموم ، وتشجِّع ، وتحمل على الفضائل . والزيُّدُ منها شرٌّ كثيرٌ ، \* كما أنَّ التقليل منها خيرٌ كثيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذي إذا أُكثِرَ عليه بالماء  
وطال مَكثُهُ ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا      وَبُقْرَاطًا لَهُ عَقْلٌ  
فَقَضَلُ مَا لَهُ شِبَهُ      وَطِبُّ مَا لَهُ مِثْلٌ  
قَلْتُ : الحُرُّ تَعْجِبُنِي !      قَال : كَثِيرهَا قَلُّ !  
قَلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي !      قَال ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :  
وَجَدْتُ مِنْ طِبَائِعِ      أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ  
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ      لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعة . ولا بأسَ  
بِعِلْمِ الشئ عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبفض الشراً أهونُ من بَعْضِهِ لمن  
ابتلي بها أن يأخذها على حقها .

وقالوا إنه مما يُؤلِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّزْجِسِ ،  
كما أن الشربَ بآنية القزدير وشمُّ البَنْفَسَجِ مما يُؤلِّد الحزنَ .

١٥ وقالوا إنَّها من أكبر أدوية السوداء في تلك الساعة ؛ وتغيبُ سَوَدَاءَ  
أشْرٍ من الأولى إن أُكثِرَ منها . والعلة في ذلك أنه لا خيرَ فيها إلا  
مارقٍ منها ، وحالَ عليها الحولُ ، وعطرت رائحته ، وهي حارةٌ يابسةٌ ،  
ثمَّ تستحيلُ إلى البَرْدِ عن شرب الماء للضرورة ، وتجدُّ الرطبة منها ،  
ككبدية اللون ، غليظة الروثي ، مؤلدةٌ للدم والنوم ؛ وهي الموافقةُ  
٢٠ لزمان الشتاء . ولتتخذ منها لكلِّ زمان ما يوافق طبيعته ، ويخالف هواه .  
ورأوا أن أخذها بعد الغداء بساعة ، لتنام الإنسان قبلها ويروى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجِمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ  
الأعضاء وتودُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملي  
الأعضاء ، واحتياجِهَا إلى إخراج الفضول ، ونشاطِهَا . ولا يكون ذلك عن  
\*تَكْلُفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَأَسْبَابًا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ (ب) ٧٣  
• ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ  
أحدهما ، تَضَعَّعَ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّ جَمِيعًا ، قَوِيَتْ الْمَنَّةُ وَتَكَامَلَتْ  
الصِّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ  
شَيْئًا ، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنِّي لِلصَّحِيحِ  
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانَى الْعَلِيلَ ،  
وَقَامَ بَيْنَ دَوَائِبِهِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ  
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصِّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِجَلِ  
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،  
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقٌ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ  
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لِشَرَبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرَبِ الْمَاءِ ،  
لِلتَّوَقَّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَطْعِ الْأَبْحَرَةِ .

وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ  
أَسْرَعُ لَهُضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ  
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَمْلَأَ شَرَابًا أَحَبُّ عَلَى مَنْ أَنْ أَمْلَأَ طَعَامًا ! فَإِنْ  
الضُّخْمَةَ ، إِنْ تَعَقَّدَتْ ، قَلَّتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الْقَلَّاسِفَةَ : « خَفَّقُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا  
 الْأَكْبَرِ ؛ فَتَأْتِيَكُمْ بِمَجَائِبِ مَا هُنَالِكَ ! »  
 وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّيُ الهموم . وأنا أقولُ إِنِّهَا تَهَيِّجُ الهموم ،  
 إِنَّمَا هُوَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ : إِنْ أَلْفَتَ سُرُورًا ، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانَ  
 عَنْهُ ؛ وَإِنْ أَلْفَتَ هُمُومًا ، ذَكَرَتْ بِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدَّ مِنْهُ ، وَفَقَّتْ إِلَى  
 طُرُقِ السُّوءِ . وَاللَّهِمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ ؛ فَذَلِكَ الَّذِي  
 لَا يُسَلِّدُهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نَعَاسٌ ؛ وَالنِّعْمُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى ؛  
 فَرُبَّمَا سَلَّتِ الْخَمْرُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ . وَلَا شَيْءٌ يُوَلِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ النَّعْمِ بِتَذْكَارِ  
 مَا خَلَفَ ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَعَلُّمًا أَكْثَرَ\* مِنْ مَطَالَعَةِ ٧٤ (١)  
 ١٠ ما مَضَى .

وَمِنَ الْجُهَّالِ مَنْ يَتَّقِدُ أَنْ الْعِشَاءَ قَرِيبَ النَّوْمِ يُوَلِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ  
 التَّعَلُّمِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ يَمْنَعُهُ ؛ فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاعِ مِنَ الْأَبْخِرَةِ  
 وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ ، كَمَا أَنَّ الْبُرْدَ فِي السَّمَاعِ مُوَلِّدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ  
 الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ النِّزَلَاتِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ ، وَتَوَلِّدُ التَّسْيَانَ ؟ وَالسَّرِيعُ  
 الْخَفِظُ قَدْ يَكُونُ فِي دِمَاغِهِ مَرَارَةٌ وَيُبُوسَةٌ ؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزَلُ ، وَإِنْ  
 ١٥ كَانَ ، فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ السَّمَاعِ . وَكَذَلِكَ الْجَاحِظُ  
 الْعَيْنَيْنِ يُعْرَضُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ . وَالغَائِرُ  
 الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصْحَحُ بَصَرًا ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ ، إِذَا قَالُوا : « هُوَ  
 الْغَائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، الْأَسِيلُ الْخَلْدَيْنِ ، الْمُشْرِيفُ الْحَاجِبَيْنِ »  
 ٢٠ كَذَلِكَ قَوْلِي ، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ  
 خَدَاهُ . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ عَلَامَةٌ



الشوؤد . ويمدح الغلام الأبله العول .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خير في  
 التهور والإكثار بما لا يحتاج . ووصف بعض الشعراء رجلاً فيما رثى  
 به ؛ فقال :

لقد وارى المقابر من شريك كثير تحلم وقليل عاب  
 صموتا في المجالس غير عني جديراً حين ينطق بالصواب

### ٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

ومما وصفناه من علم التنجيم ، احتججت يوماً ببعض المنجمين أنهم  
 على غير شيء ؛ قال : إن كنت تمنت بأننا نزع أن الكواكب فاعلة  
 ١٠ أو يعلم أحد الغيب ، فمحال ذلك ، لا يدعيه أحد ، غير أننا نقول بأنها  
 مصرفة . ألسن تقول في الشمس إن الله خلقها ضياءً ؟ فكذلك أقول  
 في النجم السعيد أو النحيس إن الله خلقه لذلك ؛ ثم لا يعلم كيفية هذه  
 السعادة وصورتها غير الحملة ؛ والله أعلم بما يتهيأ منها .

« وليس منها شيء إلا موافق للشرائع إذ النصبه كلها مخلوقة من مدبر  
 ١٥ واحد ، لا إله غيره ؛ فمتى كان في العالم دولة أو ملة ، لم تدل النجوم  
 على غيرها ، إذ الحكم من لدن الواحد\* . فأول ما نبتدئك به أنه ٧٤ )  
 ما من طالع القران ملة ومولد نبي إلا وقد شا كل ، وانفقت له من  
 السعادة في الهيئة ما خرج به من القوة إلى الفتل .

« وأخرى . أليس تقول اليهود إنهم زحليون ؟ لاشك في ذلك  
 ٢٠ ألا ترى اتخذهم السبت عيداً ؛ وهو زحل ، وأخلاقهم كلها مطابقة لما

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخُل ، والقَدَّارة ، والخَبِيث ، والمَكْر ، والخَدِيعة ؟  
 ثُمَّ الزُّومُ من بَعْدِهِم شَمْسِيُونَ ، لا امْتِرَاءَ في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنَّ يَوْمَ  
 الأَحَدِ جُعِلَ لَهُم عِيداً ، وهو يَوْمُ شَمْسِيٍّ ، وطبائِعُهُم موافِقَةٌ للشمس ،  
 وصورُهُم فيها : البَيَاضُ والحُمْرةُ والشَّقْرَةُ ، والرَّهْبَانِيَّةُ في عِبَادِهِم لِعَقْمِ  
 الشمس ؟ ثُمَّ المسلمون : أَلَيْسَ هُم زَهْرِيَّينَ ؟ والزَّهْرَةُ دَالَّةٌ على الدين ،  
 والنظافة ، والمروءة ، والضوء ، والطهر من الجنابة ، وإباحة النكاح ، والإمام ،  
 والطيب والزينة ؟ ثم أمرنا بأنَّ نأخذ الجُمُعَةَ عِيداً ، وهو يوم الزَّهْرَةَ !  
 « ثُمَّ انظُرْ إلى بروج الفلك . تقولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ العُرْسِ .  
 وأكثر ما يَسْتَعْمِلُ الناسُ النِّكاحَ في شهر رَجَب ، وهو السابع من أشهر  
 العام المُرَوَّخِ به ، الذي أوَّلُهُ المُحَرَّمُ ؛ والثامن من البروج بَيْتُ الموت  
 والموارِيثُ ، وشهرُ شَعْبَانَ الثامن من الأشهر الذي تُنْسَخُ فيه الآجال ؛  
 والتاسع من البروج بَيْتُ الدين والسَّفَر ، وشهرُ رَمَضانِ المُعْظَمِ ، تاسعُ  
 أشهر العام . وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ والعاشر بَيْتُ المُلْكِ  
 والسُّلْطَانِ . واتَّخِذَ العاشر من الأشهر عِيداً يَظْهَرُ فيه بهاء الدين وعِزُّهُ .  
 « وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ <sup>(١)</sup> . وأقسَمَ  
 ﴿ بِالخُنُسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ <sup>(٢)</sup> وهى الكواكبُ السَّيَّارة . ويزعمون  
 أَنَّ زُحَلَ هو النجم الثاقب . لأنَّه يفتق بضوئِهِ سبعَ سَمَوَاتٍ . وأنَّه أعْظَمُ  
 من الأرض ستة وتسعون مرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ من الكواكب قد وصفوا قسَمَتَهَا  
 من العظم على الأرض . غير القمرِ وعُطَارِدِ ، فإنَّها أصغَرُ من الأرض . وأنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التكويد : ١٥ - ١٦ .

- الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً . ولكل كوكب منها مدة\*  
 \*يقطع فيها الفلك . ورتبة هياها له بارئته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)
- السفلى متعلق بالعلوى . مؤثر به بإذن ربه . «  
 ومنهم من قال : لأى شىء تُنسب إلينا الزندقة ؟ ولم تُنكر الخالق ؛  
 وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يدركه علم الإنسان .  
 ٥ كواصف رجلٍ أو شجرٍ أو جبلٍ ! »
- وذكر عن حكيم أنه ربي بالمصحف عن يمينه . والأسطرلاب عن  
 شماله ؛ فسئل ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ فقال : « أتلو فى المصحف  
 كلام الله . واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئة عبادة ! »  
 ١٠ وإنه لما نص على هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : « كل ما تقول  
 يشبه يكون من مواقة أهل السنة بما احتججتُم به ؛ غير أنكم خالفتُم  
 القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول (١) ﴿ قُلْ  
 لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لسنا  
 نقطع عن الأمر أنه يكون ؛ ولا نقول إلا أنه يدل . ونأتى بحجة إلا يتم  
 شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مؤلّد سعيد ، هل تقدر على شرح تلك السعادة  
 ١٥ والكائن فيها . ومنا من يتحرى ، فيعدل ولا يتكلم على شىء . وقولنا هذا  
 كقول من رأى سحاباً ثقلاً ؛ فيقول : « هذه تدل على الماء الكثير » . هل  
 قائل ذلك ملحد ؟ ثم الله يفعل ما يشاء .
- وهذا أيضاً مما قدمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن  
 ٢٠ حجة ؛ والله يقول (٢) : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا ينجي ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لَجَلج . » .  
قال المأمون : « لم أَعْتَبِطُ بأيام السرور مُذ عَلِمْتَ التَّجِيم ، ولا استمریتُ  
الطعام مُذ عَلِمْتُ الطَّبَّ ، ولا طابَ لي النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا ! »

### ٩٠ - مسائل فلكية

- ٥ . ويزعمون أن الليل ظلُّ الأرض ، ولا ضياء غير الشمس ؛ فيأشراقها  
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع  
الظلُّ طالما ، فأظلم الليل .
- وبعضهم من قرأ أن الشمس تجرى ، لا مُسْتَقَرًّا لها ، إذ يقولون إنَّ  
الشمس لا تَسْتَقِرُّ\* بمكان ، إذ لا يصبحُ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من ٧٥ (ب)  
الذي تحلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك ، والفلكُ دَوَّارٌ .
- ١٠ . وقالوا في الكسوف إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة  
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يجد القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف  
الذي حدَّ أمره وقت انجلائه ومبْلَغ المنكسف منه ؛ وإن الشمس في  
ذاتها لا يعرضها شيء غير أن جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى  
١٥ . قابلها ؛ وكسوف القمر من مُقابلة الأرض .
- وزعموا أن ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وأنها أجرامٌ شفافةٌ  
تكتسى النور من النير الأعظم ؛ فيبدو ضوءها بغيها ، ويطمس عليها  
طلوعها . وهو قول الشاعر في ذلك :
- لَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَاكِبُ

## ٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إنَّ لا حيوان إلا بالحرارة والرطوبة ، فأين ما كان الماء والشمس تولد فيه الحيوان ، وقد يكون من غير نسل . ونرى حيواناً يكون في جوف صخرة صماء مملعة ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى (١) :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وذكر عن الحجاج أنه رأى في المنام على حالة حسنة ؛ فسئل عن ذلك ، على ما كان من جوره ؛ فقال : « رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَرْتُ يَوْمًا عَلَىٰ زَرْعٍ ؛ قَعَلْتُ : لو شاء الله ، لأنبتهُ في النار واليَمَاقِ ا » (أى في الصحارى التي لا ماء فيها) وقال تعالى (٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أكثر من معرفة الطبيعة : علاج ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فجالجوا الأبدان بما أدركته ، عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يمانى على مقدار تجربته .... (٣) ولا يوافق القراءة خطأ حسنًا ومعرفة بهذا الشأن ، قد أخطأ وتكلف . \* وقالوا إنَّ الدواء المسهل للجسم بمنزلة الصابون للثوب : (١) ٧٦

يُنْقِيهِ وَيَحْلِقُهُ ؛ فاستعماله في زمان الخريف أولى في سلطان السوداء فيه ، كما أنَّ استعمال القصد في زمان الربيع تخفيف لا يحظى من أخرج فيه الدم . وإنَّ أشبه شيء الأغذية بمزاج الإنسان : فالخبز النقي واللحم النقي والشراب

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ .

(٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوَائِجُ؛ فَمَنْ اقتصَرَ على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قويَّ البنية .  
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :  
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وَأَنَا  
أُعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلما قيل : « يُحْيِي الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ  
ذلك حتى رآه مُعَايَنَةً حَقًّا .

## ٩٢ - تقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكْمَاءُ مَا يَزْعَمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ  
بِسَمَاعِ نَفْثِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه  
لِسَانٍ وَآلَةٍ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تُهْبِئُ ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ  
يَعْرِضُ فِي دِمَاحٍ مَن يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاحِهِ أَمْرًا مَا يُخَيَّلُ لَهُ بَفْسَادِهِ  
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا ، ضَرْبًا  
مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكِّرًا فِي بِلَدَةٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ  
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،  
أَوْ كَالنَّاظِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .  
هَذَا ، لِعَمْرِي مَذْهَبٌ خَوْلَفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ <sup>(١)</sup> : ﴿ قَالَ  
عَفْرِيَّتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ <sup>(٢)</sup> : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾ ؛  
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ  
لَيْسَ عَلَى خَلْفَةِ الْإِنْسِ ، كُلٌّ عَلَى حِيلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .  
وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدِينْ ، وَلَا سَبَّحْتَ ، وَلَا اهْتَدَيْتَ لِمَا يُسِّرَتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ (١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى (٢) ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بِالسُّجُودِ النِّجْمَ \* وَالشَّجَرِ وَالنُّوَابِ (٣٦٧) الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدٌ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ، وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى (٣) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَتَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تُوصَفُ بِبِدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزَلُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

### ٩٣ - حديث عن المسرّة وعن هموم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْثَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لَسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُ حَيَاتَهُ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةَ شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَمَمَ سَاعَةً لِدَيْتِهِ ؛ فَهَدَّ عَيْنَهُ ؛ وَمَنْ أَخْرَجَهَا ، فَهَدَّ عَيْنَهُ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !

وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَدَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَتَقِيمُ الْبُرْهَانَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تُولَعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَسْنَى فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛  
 وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ مَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَانَى  
 إِلَّا بِضِدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسَلِّهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !  
 أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَعِلُ بِالكَدْرِ ؟  
 ٥ . وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزِّقٌ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٌ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُومَةَ ؛ بَلْ  
 هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةِ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِمَجْرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي  
 الْمُدَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِثْلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ  
 مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وَإِذَا قَاسَ حَالَ أَرْزَمِيَّتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَسْرُهُ عَلَى ضُرُوبِ مِنْ حَالَاتِ  
 ١٠ الصَّبُورَةِ ، لَمْ يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْسَنَ  
 لِلنَّفْسِ وَالْبَيْتِ \* بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (٧٧) (١)  
 تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوِّى ؛ فَإِنَّهُ « لَا يَدَّ بَعْدَ الشَّهِيدِ  
 مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا تَمَّا هُوَ  
 فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسَى بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِى  
 ١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى .

## ٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضرها المؤلف

من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

- وَالصَّبُورَةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،  
 أَوِ الْمُشْتَبِّ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمٌ مِنْهُ  
 ٢٠ مُكَابِدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةُ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِى ، إِنْ فَتَرَ عَنهُ شَقِيًّا ، لَا طَلَبَ



الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالبطير الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

والنفس تواقّة : متى سمعت إلى مرتبة ، تآقت إلى ما فوقها ؛ فالعاقِل يرى أن كل كدٍ وطلبٍ دون السعي في طلب ما لا بد منه من قوام العيش فخرٌ وأثرٌ ورغبةٌ وحرصٌ . ولذلك هو الإنسان عن كل شيء مسؤولٌ ، إلا عن ثلاثة : طعامٌ يسدُّ جوعه ، وثوبٌ يستر عورته ؛ وبيتٌ يكتفه من الشمس . ولو أن له الدنيا أجمع ، لم يكن له منها زائداً إلا حظ العين الذي يستوى به فيه مع غيره من الناظرين ، فلم من تعبته ، وتورط هو في حسابها وأوزارها ، وما كان إلى انقطاع ونفاد . فحقيق على اللبيب أن يزهد فيه ؛ لو آلت حاله إلى السلامة بعد ذهابه ، لا عليه ولا له ؛ فكيف ، وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحسابُ والجنةُ أو النارُ ؟ وقال المسيح — عليه السلام — : « الدنيا قنطرةٌ : فاعبروها ولا تمروها ! » على أنه لا يوجد أحدٌ يزهد في حالٍ كل الزهادة ، حتى يبلغ منه أملة أو بعضه ؛ فإن الزهادة الطبيعية إنما تكون فيما تكره النفس ، ولا بد من ميلها إلى ما فيه أدنى سُرور . والله يقول في الإنسان ، لعلمه به (١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فكان الشيء ، إذا أدرك ، انصرفت عنه النفس لبلوغ نهمتها ؛ ومتى تمتع\* عليها ، كانت به أشدَّ (ب) ٧٧ كلفاً .

ولقد بلوت من نفسى بعض ذلك ، إذ الطبعُ البشريُّ واحدٌ ، لا يكاد يختلف إلا في الأقل ؛ ولذلك أمر الإنسان أن يحب لأبناء

(١) سورة العاديات : ٨ .

جنسه ما يجبُ لنفسه ، حَظًّا على العَدْلِ والإنصاف .

وأجدني في كثرة المال ، بعدَ تملكِي عليه مع ذهابه ، أزهَدَ مِنِّي فيه قَبْلَ اكتسابِهِ ، مع سُقُوفِ الحالِ إذ ذاك على ما هي عليه الآن . وكذلك شَأني كُلُّهُ في كلِّ ما أدركتُه قَبْلُ من الأمرِ والنهي ؛ واكتسابِ الذخائر ، والتأني في المَطاعِمِ والملابسِ والمراكبِ والمباني ، وما شاكلَ من الأحوالِ الرفيعةِ التي نشأنا عليها ، حتَّى إنَّه لم يَبْقَ من ذلك ما تَمَنَّاهُ النفسُ ، وما لا تظنُّه ، إلَّا وقد بَلَّغنا منه الغاية ، وتجاوزنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصولِ عليه ينقطع ويذهب وشيكًا ، فتطول عليه الحسرةُ ، ويُعدُّ من جملة الأحلامِ ! بل ، تمادى برهةً من عشرين عامًا ؛ وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يوازِيه ؛ إذ رُبِّينَا في حِجرِهِ .

ووجدتني ، بعدَ قَدِّ هذا كُلِّهِ ، على الولدِ أَحْرَصَ مِنِّي على ما سِوَاهُ من كلِّ ما وَصَفْنَا ، لَعْدِمِهِ ذلك الوقت ؛ وقلتُ في نفسي : « الغايةُ التي إليها يَسْعَى الناسُ من أمرِ دُنْيَاهُمْ ، قد أدركناها ، وشهرتنا بها في الآفاق ؛ ولا بُدَّ من قَدِّهَا ، باكراً كان أو مؤخراً ، بحياتِهِ أو موتِهِ ! فنحسب هذه العشرين عامًا هي مائة عامٍ ، إذا تَمَّتْ ؛ سواءً ، وكان لم تَعْنِ بالأمس ! ونحنُ الآنَ جُدْرَاهُ بالنظرِ فيما تَبَتَّغِيهِ . والله أن يَقْضِي ما شاء ! » وقيلَ لِرَجُلٍ حَرَاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » فقال : حرثنا . واللهُ الزارعُ ! » وكذلك ذَكَرَ أَنَّهُ لم يَبْقَ من المُتَوَكِّلِينَ على الله غَيْرِ المزارعين ؛ فإنَّهم يَدْفنون في الأرضِ أوقواتهم ويطلبون فَضْلَ الله وَيَبْرَكْتَهُ .

## ٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرونا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكوننا من نشأ لنا من الولد .  
لم يتبعه وقته ، ولا كان في غير مكانه .

( وذكر \* الفلاسفة أن الوحي يتجزأ على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) وتمام ؛ وهو قوله تعالى (١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله (٢) - عز وجل - ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي إلهام . وكان النبي - عليه السلام - يقول في بعض أقسامه : « لا ا ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه أحكامه وتجري عليها أقداره . )

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للعاش ، يعني عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .  
وقد كان مشراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقد بذلك أنه مُهرمٌ للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من حياته ؛ فمن شاء ، فليقل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الملاحظ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يُجامع .

١٥ وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه إلى ال..... (٣) أشدُّ استنزاعاً ، وأذهب لجوهرته ، وأقطع لثروقه من أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرّات ؛ لأنّ المُجامع مُخرجٌ

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول، وهذا خُرَجَ منه الجَوْهَرُ ، وفُرِّغَتْ عروقه ، ولَبِنَتْ لحمه ،  
وأَضِغَتْ عَصَبُهُ ، وأَرَخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ،  
جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِتْمَامًا لِحِكْمَةِ  
الْبَارِي - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النَّسْلِ إِلَّا بِهَذَا  
الْقَعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّائِطِ أَوِ الْمَعْنَتِ لِمَا رَتَّبَهُ  
الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ :  
« مَا أَظُنُّ عِيَا عَلِيٍّ إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله على إن رزقني بكر أولادى ابنة ، لم يزل قبيلاً  
كله يتبرك بها ، ويكره أن يكون بكره ابناً ذكراً . وقد رأينا في سيف  
الدوله أينا - رحمه الله - أن لم تتم له فرحته بذلك ؛ على أن هذا\* ليس ٧٨ (ب)  
على العموم ؛ وإيما ذكروناه للتفاؤل ، إذ قال نبينا - عليه السلام - :  
« تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَنَحْنُ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا شَهْرَ عِنْدَ أَهَالِنَا  
وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثم رزقنا بعد هذا ابنتين ؛ فلم نبشّر بالاثنتين ، كنى لا يجتمع  
علينا حزن ذلك مع ما نحن في سبيله ، لطفاً من الوهاب وإنعاماً وإحساناً .  
فعدادُ رِغْمِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى  
الْفَخْرِ وَالخِيَلَاءِ ، مِنْ أَوْجِبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ -  
عَلَيْهِ السَّلَامُ - : « أَنَا سَيِّدُ وَالدِّ آدَمَ ، وَلَا فَخْرُ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ  
العَرَبِ ، وَلَا فَخْرُ ! »

## ٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهْتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو لَعْمَرَى بِمَنْزِلَةِ الابْنِ الذي يُبْقِي ذِكْرَ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوِيءٍ [ فِي دَوْلَةٍ ، ] زَعَمَ الْحَامِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .  
ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُحِبِّينَ <sup>(١)</sup> لِلَّهِ فِينَا ، الْوَادِينَ <sup>(٢)</sup> الْخَيْرِ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ الْبَغَاةُ إِلَّا طَعْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنصَافِ وَخَوَى الْأَلْيَابِ :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِدَادُنَا ، وَإِنَّا كَمْ خَاطَبْنَا ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمِيَّ بِكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحْيِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛ وَلَا شَتَانَ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّفُكُمْ إِلَى نَفَثَاتِ الْخَافِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَفَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَرَضَ جَهْلًا أَوْ حَقْدًا :

« اخْسَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ <sup>(٣)</sup> : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(٢) أصل : « الوادون » .

(١) أصل : « المحبون » .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

الجاهلین) . وهل تنعم ، أيها الطاعين لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء  
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كله ؟ إذ قالت \* العَلَمَاءُ إِنَّه من عاش (٧٩) (١)  
 ذا فضلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمُرِ ،  
 مع أنه كان في طاعةٍ لم تُوصَفِ مقدماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا ظنْيَانٍ ،  
 ولا سَفْكَنا دَمًا ، ولا غَصَبنا مَالًا . وكانت مَدَّتْنَا فيه نحو من عشرين  
 عاماً خَيْراً من سِنِينَ ، إذ لَيْلَةُ القَدَرِ خَيْرٌ من ألفِ شهرٍ . وتَمَامُ اللدِّ  
 على قديم الدهر عادةٌ لا تُسْتَعْرَبُ لنا خاصّةً . ولا بُدُّ من الفراقِ ! فَلَلهُ الحمدُ  
 إذ لم نَفْقدها بفقْدِ عقولنا ولا أدياننا ، ولا تَمَّتْ بنفادِ أعمارنا : فيَوْمٌ من عُمرِ  
 الإنسانِ يذكرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عمَلِهِ ؛ ومَيِّتَةٌ على بلاءٍ وتذكاري  
 خَيْرٌ من مَيِّتَةٍ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه

من أخطاء حياته الخاصة .

ثمَّ أَضْرَبْتُ عن وَصْفِ كلِّ جَمِيلٍ قَعْلنَاهُ ، وَحَزَمٍ اسْتَشْعَرْنَاهُ ،  
 وَخِدْمَةٍ لِلدُّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَتَبَعْتُ مَا لا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلا تَقْصَانِ  
 فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الشُّغْلِ كِي تَعْقِبَ نَشَاطًا ،  
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكَ اللِّذَاتِ يُعْقِبُ  
 الْبَرْدَةَ ، وَيؤثِّرُ فِي الْحِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةً . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرَّءِ  
 عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدَرَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ لِلنَّفُوسِ .

٢٠ فَهَجَّنَا بِلَفْظِكَ ، وَأَخْرَجَهَا مِنْ حَيْرِ الْمَزَلِ إِلَى الْجِدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سُبَيْة : إِنْ رَأَى حَسَنَةً ، كَتَمَهَا ؛ وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً ، أَدَاعَهَا . فَطَفَّفَتْ  
وَأَرْبَبَتْ إِنْ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعَتْ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ  
الْعَذَارِ ، وَلَا أَخْطَرْتُ إِلَى رَاحَةِ تَوْجِبِ الْغَفْلَةَ ، كَالَّذِي صَنَعَ مِنْ كَانَ قَبْلَنَا  
مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرْمِ !

• وَلَمْ يَبْقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِذَا كَانَ صَاحِبُ غَرْنَاطَةَ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ  
الْمَالِ ، مُجِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيَانَ ! » [ وَإِذَا ] لَمْ تُحْسِنِ الرُّوْيَةَ ،  
وَلَا ظَنَّنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتَ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ  
أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَجْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ  
عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عَدُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّي أَوْ أُعْطِيَ  
١٠ فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ قَهْلُ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلٌ ، أَوْ رَفُضَ \* جُنْدًا ، وَدَخَلَتْ  
دَاخِلَةٌ مِنَ التَّقْتِيرِ أَوْ اللَّعْنِ ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا  
بِغَيْرِ حَقِّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ  
مِنَ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [ مَادِحٌ ]  
١٥ بِكَسْوَةٍ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذَا الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ .  
وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيَانَ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يُدُّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ التَّخْمَرِ ،  
الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَالِإِعْقَارُ وَالرِّيَابُ ؟ لَيْسَ هَذَا تَجْلِسَ حُكْمٌ :  
فِيْتَخَيَّرَ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا وُضِعَ لِتَدْبِيرِ رَأْيِي ، فَيُسَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ،  
وَلَا مَيْدَانُ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْفُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ :  
٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالِ فِيهِ غَيْرِ شَاكِلَتَيْهِ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ بِهِمْ  
فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ النولة مشهورون ؛ مِمَّنْ له حكمة ودرية :  
والخديمُ لا يكون نديماً : كيفَ تَصُولُ اليَوْمَ على من اطلعَ على عَوْرَاتِكَ  
البارحة ، إذ الشكر عورةٌ ؟ أم كيفَ تأمرُ بِخدمَةِ الجُنْدِيَّةِ والشدةِ عليه  
في الخروجِ مَنْ تَعَاطَى معكَ الكأسَ ، وكثُرَ معكَ المزاحُ والعَرَبْدَةُ ؟ ثمَّ  
٥ تطلبه لخدمَتِكَ ، فتجدهُ عثولاً عما يصلحك مشغولاً .

وبغيرِ هذا كله ، فإنَّ الدُّوَلَ الكبارَ لم يزلْ فيها الغلمانُ وأبناء  
الصنائعِ صناراً وكباراً ، عبيداً وأحراراً ، وهمُ بين يدي الرئيسِ جمالٍ ،  
وعلى خدمَتِهِ أعوانٌ ؛ ويتصرفُ الصغيرُ السنَّ فيما لا ينبغي للمُسنِّ أن  
يتولاهُ . ولكلِّ دَرَجَةٍ ورُتَبَةٍ . وهل الملكُ والملكُ إِلَّا للتزيينِ والتجملِ  
به ، وانتخابِ الحسانِ منهم تليقُ بهم الكسوةُ السنيةُ والمراكبُ الفارِهةُ ؟

وأخوكَ من واثاكَ ، إذ يتعبدُ بمالكَ من شئتَ يتعبدُ [ خدمَتِكَ من ]  
حرِّ أو مملوكٍ . وإنَّ ابنَ الإنسانِ ، إذا لم يصلحْ له . . . . . إنَّ يقلُّ  
هدراً ، أىَّ عملٍ وليناهُ على بللةٍ ، أو صرفنا إليه حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا  
ما وصفناه ، لا أدري غيرهُ \* وإلَّا . . . . . فتكونُ مُجرِحاً ، وإلَّا شريكاً ٨٠ (١)  
١٥ عاضداً ، أو تكونُ قاذفاً مستوجِباً (١) !

جعلنا الله وإياك عن الشرِّ مُعرضين ، وبطاعته عاملين ! إنه أكرمُ  
الأكرمِينَ ! لا رَبَّ غَيْرَهُ ، ولا إِلَهَ حَقِّ حاشاهُ !

(١) وقع خرم ومحو كثير في آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه .



كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على  
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

## الملحق الأول

مُتَخَبَاتٍ عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ » (١)

لِابْنِ عِزَّارِ الْمُرَّاكُشِيِّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُلْقَيْنِ بْنِ زَيْرِي

( ١ )

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حبوس على قول المرادى .  
والأكثر على أن وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطان في « نظم  
الجمان » .

### ذكر بيعة حفيد باديس بن حبوس

هو عبد الله بن بُلْقَيْنِ المالك بتدبير اليهودي المتقدم ذكره . وتسمى  
١٠ بالمظفر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على  
مبايعته ووزراه جدّه ووجوه صنهاجة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف  
بسمّاجة ؛ فاستقلّ بحاله ورياسته . وكان لباديس ولدٌ خلف من البنين ،  
وكان قد أعطاه في حياته مدينة جيان ؛ فكان ينهمك في شرب من الخمر ،  
ويحدث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سماها لُبُونَة ؛ فمن أحدث  
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

( ١ ) عن مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس ( رقم ١٨٥٥ ) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرق الناسُ عنه وكرهوه ، وانفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .  
فقام بأمره سِماجةٌ خير قيام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من  
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطة ؛ فبرز عليها وبنى  
٥ بقربها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملاًه بالرماة والرجالة ، وترك الخيل  
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطة وجيآها . فكان ذلك .  
ثم لم يزل سِماجة يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد  
بجاله ؛ فنفى عن نفسه سِماجة ؛ فلحق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛  
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقي عبد الله بن بُلقين بفرناطة . وسيأتي  
١٠ خبره في دولة المرابطين إن شاء الله تعالى .

## ( ٢ )

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مقاتل بن عطية  
الزَنَاطي ، وكان فارسَ الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان  
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مؤمل ، مؤلى باديس بن حبوس ، في قصبَة لَوْشَة ، على  
حفيد مولاة بدعوة لَمْتُونَة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....  
فأول من شهر الخلفاء على يوسف بن تاشفين صاحب إغَرَنَاطة عبد الله  
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الرماة  
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيدَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب السَّهَام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تكن العُدَّة ؛ ونقل المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمَنَكَب لكونها في غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصوناً ، توهم عليه القيام منها ، ومن مآمنِه يوْتَى الخذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، ومُحَف جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛ فوجه بها إلى الإذْفُونَش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه أن البلد بلدُه ، وأنه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونَشُ ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مآته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ، ولا يتركه لضيمِّ ولا هضيمية ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبدل جدَّه في نصره ؛ وراجعه بمثل ذلك من قوله . فقويت قسُّ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صاحبُ غَرْنَاطَةَ سَقِيهٌ      وأعلمُ الناسُ بالأُمُورِ  
صانعُ إذْفُونَشُ والنصارِيُّ      فأنظرْ إلى رأيه الدبيرِ  
وشاد بنيانه خِلافًا      لطاعة الله والأميرِ  
يبني على نفسه سفاهًا      كأنه دودة الحريرِ  
دَعُوهُ يبني فسوفَ يدري      إذا أتت قدرة القديرِ

وأتصلت أنباؤه بأمر المسلمين على حقيقتها ؛ فاشتدَّ غضبه ؛ واستزاد

جزعه .

٢٠ وكان أبو جعفر القُلَيْبِيُّ من أهل إغْرِنَاطَةَ فريد عصره في الخير والعلم والتلاوة ، والمُشار إليه . . . . .

## الملحق الثاني

متنخبات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »  
للسان الدين ابن الخطيب السلماني

( ١ )

ترجمة عبد الله بن بلقين<sup>(١)</sup>

٥ عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكنسن بن زيري بن  
مناد الصنهاجي أمير غرناطة .

أوليته : قد مرّ ذلك في اسم جدّه ما فيه كفاية<sup>(٢)</sup> .

حاله : لقبه المظفر بالله ، الناصر لدين الله . ولي بعد جدّه الحاجب

المظفر بالله في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سماجة الصنهاجي تسع سنين .

١٠ ﴿ قال النافسي : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعراً جيّداً الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بقرناطة ربعة مصحف

يخطّه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابن الصيرفي ؛ فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمد السيف ،

( ١ ) مخطوطة الاسكوريال ( رقم ١٦٧٣ ) ، ص ٢١٤ .

( ٢ ) راجع « مركز الإحاطة » ( ط القاهرة ) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصنهاجي .

قلقا ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أرب له في النساء ، هيابة ،  
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن  
تاشفين نللع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويم قرطبة . وتواترت الأنباء  
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقد ، حسباً تقدم<sup>(١)</sup> في  
اسم مؤتمل مؤلى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة  
منها ، ولم تمتد يده إلى شيء بوجه ؛ فسر الناس واستبشروا ، وأمنت  
البادية ، وتسايل أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في  
المال ، وألحق السوق والحاكة ، واستكثر من الليف ، وألح بالكتب  
على إذفونش بما يطعمه .

وتحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .  
وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس  
صنائه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ،  
وركبت أمه ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على  
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره  
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة<sup>(٢)</sup> من خارج الحضرة .  
واضطربت المحلات ، وأمر مؤتملاً بثقاف القصر ، فتولى ذلك .  
وخرج الجلم من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعره عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من  
« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشانح » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤملاً إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأغلاق والدخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضة ، وأطباق البلّور المحكم ، والجرجانيات ، والعراقيات ، والتياب الرفيعة ، والأمناط ، والسكرال ، والستائر ، وأوطئة الديباج ، مما كان في ادخار باديس واكتسابه . وأقبلت دوابّ الظهر من المنكب بأحمال السبيك والمسيوك . واختلفت أمّ عبد الله لاستخراج ما أودع بيطن الأرض ، حتى لم يبق إلا الخردى والنقل والسقط ، وزرع ذلك الأمير على قواده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤملاً في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثر استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتقدّم أوضاعه وأفنيته .  
وتقلّ عبدُ الله إلى مرّاكش ، وسنه يوم خُلع خمسٍ وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقرّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلّ اعتقالها ، ورُقّةَ عنهما ؛ وأجروا المرتب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فضيّت مآربه ، وأسفّت رغباته ، وخفّ على الدولة ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في المحول ؛ فعاش له ابنان وبنّت جمع لهم للال ، فلما توفّي ترك لهم مالا جماً .  
مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

## ( ٢ )

## ترجمة مقاتل بن عطية (١)

مُقاتِل بن عطية البرزالي ، يكنى أبا حرب . قال فيه أبو القاسم الغافقي : من أهل غرناطة ، ويُلقب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بإثره لحرّة كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . وولاهُ الأمير عبدالله بن بلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقتها . وكان عبدالله يحرزه . وعندما تحقّق حركة اللتوتيين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال : وحضر مُقاتل مع عبدالله بن بلقين أمير غرناطة وقبعة النيبيل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنتُ قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحلت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعه مهتكةً بالطعن ، وبه جرحٌ في وجهه يشب دماً تحت منقّره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حمالته عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٢) ، ص ١٨٨ .



وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارِسُ : خُذِ  
 الترس ! « قلتُ : « لا حاجة لي به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فتركته ووايتُ  
 مسرعاً ؛ فهز فرسه ووضع سنانَ رمحِه بين كتفَيَّ وقال : « خُذِ الترس ،  
 وإلاَّ أخرجتُه بين كتفَيْكَ في صدرك ! » فرأيتُ الموتَ الذي قَرَّرْتُ منه ،  
 ورجعت إلى الترس ؛ فأخذته ، وأنا أدعو عليه ، وأسرعتُ عدوًّا . فقال  
 لي : « على ما كنتَ فليكن عدوك ! » فاستعدتُ وقلتُ : « ما بعثه الله  
 إلاَّ لهلاكِي ! » وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به ؛ فوقع في نفسه أنه  
 يسرع الجَرْمِي فيسلم وأقتل ، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه ، عطف  
 عليه كالعقاب وطعنه ووطره ، وتخلص الرمح منه ، ثمَّ حمل على آخر : فطعنه  
 ومال على الثالث ، فانهزم منه ، فرجع إلى ، وقد هبتُ من فعله ، ورشاش  
 دم الجرح يتطاير من قِنَاعِ المِغْفَر لشدَّةِ نفسه ، وقال لي : « يا فاعل ! يا صانع !  
 أتلقى الرمح ، ومعك مُقاتِلُ الرُّيْه ؟ »

( ٣ )

ترجمة مؤمِّل<sup>(١)</sup>

مُؤمِّل ، مولى باديس بن حَبُوس .  
 حاله ومِحْنَتُهُ : ﴿ قال ابن الصَّيْرَمِيُّ ﴾ وقد ذكر عبد الله بن بُلقين  
 حفيد باديس ، واستشارته في أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى  
 خَلْعِهِ : وكان في الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدِّه اسمه مؤمِّل ، وله  
 سنٌّ ، وعنده دهان وفطنة ورأى ونظر .

( ١ ) مخطوطة الاسكوريال ( رقم ١٦٧٣ ) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَةَ من كتبه ، وموئَل من عبيد جدّه ، وجعفر من فِثْيَانِه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له موئَل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرَبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافسته ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظراًؤه من أهل السنِّ والحنكة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأعمار ؛ فاستشاط غيظاً على موئَل ومن نحا نحوه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كَوْشَة ، وبها من أبناء عبيد باديس قائدُها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر موئَل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق موئَل ومن كان معه شرّاً سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابِّ هجن ، وكشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجل من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة . وتلطف جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلهم الآن ، أطفأت غضبك وأذهبت مالك ؛ فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ا » فتفقهم . وأطمعوا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلِّ اعتقالهم ؛ فلم تسعه مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدّم موئَلاً على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ،  
واقنتى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها  
السقاية بباب الفخارين ، والخور المروقة بخور مؤمل . أدركتها ،  
وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصيرفي ﴾ : وفي ربيع الأول من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ،  
توفي بغرناطة مؤمل ، مؤلى باديس بن حبوس ، عبد أمير المسلمين وجابى  
مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتب ؛ رزقه الله عند  
أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولا أشرف على  
النية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على  
دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثم أبرأ جميع عماله وكُتَّابه ، وأنفذ  
رجالاً من صنائه إلى أمير المسلمين بجملةٍ من مال نفسه ، يُريه أن ذلك  
جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته ، وأن بيت المال أولى به ؛ ورغب  
في ستر أهله وولده . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى  
تقديم صنيعته .

ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتجته ، وشقاء من خلفه بسببه ،  
وعدّد مالاً وذخيرةً .

## فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،  
١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،  
٢١٠

ياديس بن المنصور ( أمير إفريقية ) ٢٤

ياديس بن واري ١٤٦

ياطر ( بطره ) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

بزلف ( والى السوس ) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٥٧

بليار الصهاجي ٨٧

بلقين بن ياديس سيف اللولة ( والد عبد الله

المؤلف ) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ،

١٩٩

بلقين بن حبيوس ٣٣ ، ٣٥

بلقين بن زاوي بن زيري ٢٤

- ث -

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تميم بن بلقين بن ياديس المزم ( أخو عبد الله

المؤلف ) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

- ج -

الجاحظ ١٩٨

- ا -

أبو إبراهيم اليهودي ( ابن نفرالة ) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ ،

ابن الأحسن السجلماي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبو الأحوص بن صادق ( صاحب المرية )

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،

الإذفونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، وانظر « الفونش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصبحي ٩٧

ابن أصحى الكاتب ٦٣ ، ٦٥

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفونش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

- ب -

ياديس بن حبيوس الملقب ( جد عبد الله ) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ،

١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٤٤  
الروى أو النصراني = ألفونش السادس  
الريه ( لقب مقاتل بن عطية البرزالي ) ٢١١ ،  
٢١٢  
ابن الريوله ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوى بن زيرى ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،  
٢٥ ، ٢٤  
زاوى الصنهاجى ٨٧  
زهير ( صاحب المرية ) ٣٤ ، ٣٥  
ابن الزيتونى القروى ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١  
ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥  
ابن السقاء ٤٥  
سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩  
ابن سلمون ١١٧  
سماجة الصنهاجى ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،  
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،  
١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨  
السمسارى ٢٠٧  
ابن سهل ( القاضى ) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦  
السيد لذريق ١٧٥  
سير ( الأمير المرابطى ) ١١٠ ، ١٦٠ ،  
١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤  
سيف الدولة = بلقين بن باديس وللد عبد الله  
ابن سبيى ١٣٢

- ش -

شغلاند ٧٣

- ص -

الصحرورى ( أبو بكر م يوسف بن تاشفين )  
١٧١

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣  
جعفر الحصى ١٥١ ، ٢١٣  
ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حييون بن ماكسن ( أمير قرناطة ) ١٧ ،  
١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،  
٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧  
الحجاج ١٩٢  
ابن الحديلى ٧٧  
ابن الحسن النباهى ( قاضى مالقة ) ٦٤  
الحكم المستنصر باقه ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨  
ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داوود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذى النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،  
٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الراضى ( ابن المعتمد بن عباد ) ١٠٢ ، ١٠٨ ،  
١١٢ ، ١٧١  
أبو الربيع بن الماطوفى ٤٨ ، ١٣٠  
أبو الربيع النصرانى ٦٦ ، ٦٨  
الرشيد ( هارون ) ١٨٤  
الرشيد ( ابن المعتمد بن عباد ) ٨١  
ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،  
١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

-ق-

القادر ( حفيد ابن ذى الثون ) ٧٧ ، ٨٠ ،  
١٥٣ ، ١٧٣ .  
ولد القاضى ( صاحب باغته ) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦  
قرور ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،  
١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،  
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،  
١٧١ ، ١٧٣  
ابن القطان ٢٠٥  
ابن القليجى أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،  
١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،  
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

ليبى النصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،  
١٥١  
لثة الخادم ١٥٨  
ابن أبى لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧  
ماكسن بن باديس بن حبوس ٤٠ ، ٤٨ ،  
٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،  
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،  
٢٠٥ ، ٢٠٦  
الماسون بن المعتد ١٧٠  
المتوكل بن الأفلح ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،  
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،  
١٧٤ ، ١٧٦  
مجاهد ( صاحب دانية ) ٤٤ ، ٤٥

ابن صباح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب  
المرية -  
أبو الصمصام ١٧١  
ابن الصيرفى ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ع-

عباد ( المعتضد بن عباد ) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،  
٥٩  
عباد بن المعتد ٧١  
العباس بن المتوكل بن الأفلح ١٧٤  
أبو العباس الحكيم ١٣٢  
أبو العباس ( كاتب حبوس ) ٢٧ ، ٢٨ ،  
٣٠  
ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١  
ولد عباس ( كاتب زهير ) ٢٤ ، ٣٥  
عباد بن القروى ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،  
٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩  
عبد الملك ( القاضى ) ١٠٢  
أم العلى ( بنت عم ماكسن ) ٦٧ ، ٦٨  
على بن أبى طالب ١٨٣  
على بن القروى ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،  
٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢  
ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،  
٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،  
٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقى ( أبو القاسم ) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٢٢  
الفضل بن المتوكل بن الأفلح ١٧٤

٤٥ ، ٤٤  
 المنصور بن المتوكل بن الأظفان ١٧٢ ،  
 ١٧٤ ، ١٧٣  
 المؤتمن بن هود ٧٨ ، ٧٩  
 موسى ٨  
 موفق (صاحب المدينة) ٣٧  
 مؤهل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،  
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨  
 ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢  
 ٢١٤ ، ٢١٣  
 ابن ميمون (أمين هود الياسنة) ١٣٠ ، ١٣١  
 ١٣٢

- ن -

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،  
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،  
 ٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٣  
 نيمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

- ه -

هشام المؤيد ١٥

- و -

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨  
 والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،  
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

- ي -

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،  
 يدوير بن حباصة بن ماكس ٢٧ ، ٢٨ ،  
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤  
 ابن يعيش ٦٤  
 ابن يكون ١٤٥  
 يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨  
 مخلوف بن ملول ٥٨  
 المرادى ٢٠٥  
 المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥  
 ابن مرتين ٧١  
 ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢  
 المستعين بن هود ٧٨  
 مسكن بن حبوس المغربي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،  
 ٦٢ ، ٦١  
 المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس -  
 المعصم بن صالح (صاحب المرية) ٤٥ ،  
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،  
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،  
 ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤  
 ١٦٧ ، ١٦٥  
 المعتضد = حباد .

المعتد بن حباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،  
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،  
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،  
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،  
 ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،  
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٣٩  
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،  
 ٤٣

المعز = تميم بن بلقين بن باديس -  
 معز النولة بن المعصم بن صالح ١٦٧  
 مقاتل بن عطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،  
 مقاتل بن يحيى ٤٧  
 المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،  
 ابن ملحان ٧١  
 منذر بن هود ٧٩  
 المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،  
 المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

۲۱۹

۱۷۶ < ۱۷۴ < ۱۷۲ - ۱۴۳ < ۱۳۸

۲۱۳ < ۲۱۲ < ۲۱۰ < ۲۰۹ < ۲۰۶

۲۱۴

۱۴۷ < ۱۴۶ < ۱۴۰ < ۱۳۸ یوسف بن صباح

۱۰۸ < ۱۰۷ < ۱۰۶ < ۱۰۵ < ۱۰۴

۱۱۴ < ۱۱۳ < ۱۱۲ < ۱۱۱ < ۱۱۰

۱۲۰ < ۱۱۹ < ۱۱۸ < ۱۱۷ < ۱۱۵

۱۲۹ < ۱۲۸ < ۱۲۷ < ۱۲۲ < ۱۲۱



## فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفرنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	١٥٠ ، ٩٣ ، ٦٤
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤ ،	بنو ناقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو اللواتكي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لتوفة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرابطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصراني ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥ ،	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢ ،
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناتة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مقيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

## فهرس الأعلام الجغرافية

- ١٦٠٠ ١٥٢٠ ١٠٨٠ ١٠٤٠  
 جطرون (Jotrón) ٩٤٠ ٩٢٠  
 جليقية (Galice) ٧٢٠  
 جيان (Jaén) ١٩٠ ٥٣٠ ٥٥٠ ٦٠٠  
 ٦١٠ ٦٣٠ ٧٦٠ ٩٤٠ ٢٠٥٠  
 حارث ٩٤٠  
 الحمراء (Alhambra) بنرناطة ٥٤٠ ١٣٠٠  
 الحمة (Alhama) ٩١٠  
 حور مؤل (بنرناطة) ٢١٤٠  
 دانية (Denia) ٤٥٠ ٧٧٠ ٧٨٠ ٧٩٠  
 الرملة (La Rambla) بنرناطة ٣٢٠  
 رنده (Ronda) ١٧١٠  
 ريه ٩١٠  
 رينة ٩٢٠ ٩٤٠  
 الزاوية (La Zubia) ٢٢٠  
 الزلاقة (Sagrajas) ١٠٤٠ ١٠٥٠ ١٠٦٠  
 سبته (Ceuta) ١٠٢٠ ١٠٣٠ ١٢٩٠  
 ١٤٥٠ ١٤٦٠ ١٦٠٠  
 سرقسطة (Saragossa) ٧٨٠ ٨٠٠ ٨١٠ ١٢٢٠  
 السطح (عمل) ٢٢٠ ٣٢٠  
 الموس ١٦٣٠  
 شاط (Jete) ٩٠٠  
 شربة ١١٣٠  
 شرق الأندلس ٦٠٠ ٨٠٠ ١٢٢٠  
 شقورة (Segura) ٨٠٠ ٨١٠  
 شلير (Sierra Nevada) ٢٢٠  
 شنت ألقج ٧٢٠  
 شنت مرية (Santa Maria) ٨٠٠  
 شنيل (Genil) ٢٠٠  
 شيلس ٧١٠ ٧٢٠  
 صالحه (Zafia) ٩١٠
- ٩٥٠ ٩١٠ (Archidona) أرجلونة  
 ٧٥٠ (Estepe) إسطة  
 ١٠٣٠ ١٠٢٠ ٧٥٠ (Seville) إشبيلية  
 ١٧٥٠ ١٧٠٠ ١٦٨٠ ١٢٨٠ ١٠٥٠  
 ٩١٠ أشتير  
 ١٩٠ حصن آشر (Iznajar)  
 إغرناطة = فرناطة  
 ١٧١٠ آغمت  
 ١٨٠ ١٩٠ ٢٠٠ (Elvira) البيرة  
 ٢١٠ ٢٢٠  
 ٩٥٠ (Antequera) أنقيرة  
 ٩٢٠ أبرش  
 ٢١٣٠ باب الفخارين (بنرناطة)  
 ٩٢٠ باب فتتالة (بالمقة)  
 ٦٩٠ ٦٦٠ ٦٤٠ ٤٤٠ (Priego) باغه  
 ٧١٠ ٥٧٠ (Baza) بسطة  
 ١٠٥٠ ١٠٤٠ ٤٤٠ (Badajoz) بطليوس  
 ١٧٣٠ ١٧٢٠ ١١٥٠ ١١٤٠ ١١٣٠  
 ١٧٤٠  
 ١٥٣٠ ٧٨٠ ٧٧٠ (Valence) بلنسية  
 ١٧٥٠ ١٧٣٠  
 ٧٢٠ ٧١٠ ٧٠٠ (Velillos) بليلس  
 ١٤٨٠ ٧٤٠  
 ٩٦٠ ٦٣٠ ٦٢٠ (Bacza) بياسة  
 ١٦٨٠ (Dellys) تدلس  
 ٧٩٠ تلسير  
 ١١٣٠ ٢٢٠ (نظر)  
 ١٠٤٠ ٩٨٠ ٩٧٠ ٩٦٠ جريشة  
 ١٦٨٠ (Alger) الجزائر  
 ١٠٧٠ ١٠١٠ جزيرة الأندلس  
 ١٠٣٠ ١٠٢٠ (Algeciras) الجزيرة الخضراء

قوجر ٣٢  
 القيروان ٢٥ ، ٢٤  
 لرقة (Lorca) ٤٤  
 لوشة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤  
 ١٥١ ، ٢٠٦ ، ٢١٣  
 لبيط (Alodo) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨  
 ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢  
 ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣  
 مارتش (Martos) ٧٦  
 مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧  
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣  
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧  
 ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٨  
 المدينة ٢١  
 مراكش ٢١٠ (وانظر مراكش)  
 مرسية (Murcie) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١  
 ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥  
 ١٤٦  
 مروكش ١٢٥ ، ١٧١  
 المرية (Almeria) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤  
 ٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠  
 ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧  
 ١٦٨ ، ٢٠٦  
 مرية بلش (Velex Malaga) ٩١  
 المشيخة ٢٠٩  
 المطمر ٧٦  
 مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١  
 ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١  
 منت ماس ٩٢  
 المتورى ٨٨ ، ٨٩  
 المنكب (Almuficcars) ٤٤ ، ٥٣  
 ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٢١  
 ١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٠  
 ميشش (Mijas) ٩٤

الصحراء (Sahara) ١٥٨  
 صحرة حبيب ٩٢  
 صحرة دوس ٩١  
 طربش ٨٩  
 طليطلة (Tolède) ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٣  
 ٨٠ ، ١٠١  
 العلوة (Maroc) ١٦ ، ١٨ ، ١١٨  
 ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥  
 الغربية ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨  
 غرناطة (Grenade) ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤  
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٧  
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣  
 ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥  
 ٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٠  
 ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧  
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
 ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨  
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩  
 ٢١٣ ، ٢١٤  
 فصح غرناطة ٢٢ ، ٢٤ ، ٧٠ ، ١٥٢  
 فنيانة (Fifiana) ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ٨٩  
 الفوقت (Alfiente) ٣٤  
 قاشتره ٧٦  
 قامرة ٩٤  
 قبرة ٥٣  
 قبرة (Cabra) ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٦  
 قرطبة (Cordoue) ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١  
 ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٧  
 ١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩  
 قرطمة (Cartama) ٩٤  
 قرمولة (Carmona) ١٧٠  
 القصر (حصن) ٩١  
 قلعة أسطليز (Alcala la Real) ٧٠ ، ٧٥  
 قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

٢٢٣

١١٣ ء ٨٧ ء ٨٦ ء ٨٥ ء ٦٤ ء ٥٩

١٢٣ ء ١١٤

ء ١٣١ ء ١٣٠ (Lucena) الیساعة

١٤٨ ء ١٤٥

٢١١ ء ١٢٩ (Nivar) النیبل

نیمشر ٩٦

الهند ء ١١٨

ء ٤١ ء ٣٩ ء ٣٨ (Guadix) وادی آش

ء ٥٨ ء ٥٧ ء ٥٦ ء ٥٥ ء ٥٣ ء ٤٤

## فهرس الفصول

صفحة	
١	مقدمة الناشر . . . . .
١	الفصل الأول : فظرات عامة للمؤلف . . . . .
١	١ - القواحد التي يتعين للمؤلف اتباعها . . . . .
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به . . . . .
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الرحي . . . . .
١٠	٤ - ضرورة التعليم والتجربة . . . . .
١١	٥ - التكوين السيامي للمؤلف . . . . .
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي . . . . .
١٤	٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ . مثل المنصور . . . . .
	الفصل الثاني : الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن
١٦	زيري وحبوس بن ماكسن . . . . .
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قديم بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف . . . . .
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها . . . . .
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري . اختطاط غرناطة . . . . .
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته . . . . .
٢٤	١٢ - رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً . . . . .
٢٥	١٣ - إمارة حبوس بن ماكسن . . . . .
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حياصة . موت حبوس . . . . .
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن حبوس . ( ١ ) من أوليتها إلى موت ابن نقرالة . . . . .
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن حبوس وتماظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم . . . . .
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدير بن حياصة ضد باديس . . . . .
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية . . . . .
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف . . . . .
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نقرالة اليهودي ومؤامراته . . . . .

صفحة

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً . . . . . ٢٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نقرالة من المكان الأرفع . . . . . ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة . . . . . ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صالح أصحاب المرية . . . . . ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته اليهودي . . . . . ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكسن بن باديس . . . . . ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . ( ٢ ) من موت ابن نقرالة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودي ابن نقرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله . . . . . ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش من أيدي ابن صالح . . . . . ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد . . . . . ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها . . . . . ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان . . . . . ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على يباة . . . . . ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية وقتله . . . . . ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة . . . . . ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ١ ) مشاكل
- الأتدلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله . . . . . ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع بن عمار . . . . . ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صالح صاحب المرية . . . . . ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه . . . . . ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونش السادس على طليطلة . . . . . ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على دائية . بعض أخبار بني هود . . . . . ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمصرية إلى أن أعرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك وبهلكه الشنيع . . . . . ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية . . . . . ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته . . . . . ٨٢
- الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٢ ) مشاكل
- غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطيين . . . . . ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير سهاجة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله في الأمر . . . . . ٨٤

## صفحة

- ٨٨ . . . . . ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله .  
 ٩٠ . . . . . ٤٤ - توجيه حسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه .  
 ٩٥ . . . . . ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تاقنوت ونهايتهما .

## الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٣ ) قدوم

- ١٠١ . . . . . المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط .  
 ١٠١ . . . . . ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس .  
 ١٠٢ . . . . . ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء .  
 ١٠٤ . . . . . ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد .  
 ١٠٤ . . . . . ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس .  
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين  
 ١٠٦ . . . . . المتحالفين .  
 ١٠٨ . . . . . ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيط .  
 ١٠٩ . . . . . ٥٢ - محاصرة لبيط . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين .  
 ١١٠ . . . . . ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رزيق .  
 ١١٢ . . . . . ٥٤ - رفع الحصار عن لبيط . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم .

## الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٤ ) سياسة

- ١١٤ . . . . . عبد الله بعد حودته من لبيط . إجراءات دفاعية وسياسية .  
 ١١٤ . . . . . ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسلك قرور .  
 ١١٦ . . . . . ٥٦ - بعض المؤامرات وتخالذ القليبي .  
 ١١٩ . . . . . ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون .  
 ١٢٢ . . . . . ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكبل ألفونش السادس .  
 ١٢٤ . . . . . ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه .  
 ١٢٧ . . . . . ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مسلكه .

## الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٥ ) الحوادث

- ١٣٠ . . . . . الأخيرة قبل النزاع وفذر الكارثة .  
 ١٣٠ . . . . . ٦١ - ثورة يهود مدينة اليسانة .  
 ١٣٣ . . . . . ٦٢ - قضية زناتة .  
 ١٣٦ . . . . . ٦٣ - انقلاب مؤيد وثورته في لوثة .

## صفحة

- ٦٤ - وصف التائر نعمان وسيرته ضد عبد الله . . . . . ١٣٩  
 ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله . . . . . ١٣٩  
 ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله . . . . . ١٤١  
 ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف . . . . . ١٤٣  
 ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرمية وغضب المعتد . . . . . ١٤٤  
 ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبته من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها . . . . . ١٤٥

## الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٦ ) استسلامه

- السلطان المرابطي . مجته . إخراجهم من الأندلس ونفيه . . . . . ١٤٧  
 ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبده مقاتلته إياه . . . . . ١٤٧  
 ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة . . . . . ١٤٩  
 ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة . . . . . ١٥٠  
 ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم . . . . . ١٥١  
 ٧٤ - تسام الأمير عبد الله ونهب أمواله . . . . . ١٥٤  
 ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى . . . . . ١٦٠  
 ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأختي عبد الله . نفيه . . . . . ١٦٢

## الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة . . . . . ١٦٤  
 ٧٨ - حركات المرابطين على المرية . . . . . ١٦٧  
 ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتد . . . . . ١٦٨  
 ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد . . . . . ١٦٩  
 ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس . . . . . ١٧١  
 ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس وبهلكه . . . . . ١٧٢  
 ٨٣ - نشاط المرابطين ضد التصاري . استيلاء « السيد » لنريق على بلنسية . . . . . ١٧٥  
 ٨٤ - تأملات في تقلب الأقدار . . . . . ١٧٦

## الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي

- ٨٥ - المؤلف والشعر . . . . . ١٧٨  
 ٨٦ - اضطراب المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره . . . . . ١٧٩  
 ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم . . . . . ١٨١



١٨٣	٨٨ -	أراء طيبة في الأغذية والتبيل
١٨٨	٨٩ -	رجح الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ -	مسائل فلكية
١٩٢	٩١ -	تحديد العلوم الطبيعية والطلب
١٩٣	٩٢ -	نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ -	حديث عن المسرة وعن هوم الهوى والشباب
١٩٥	٩٤ -	تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا
١٩٨	٩٥ -	يتحدث المؤلف عن أولاده
٢٠٠	٩٦ -	توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠١	٩٧ -	يلفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة

الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عثاري المراكشي عن دولة الأمير عبد الله

٢٠٥

الملحق الثاني : منتخبات عن « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » لسان الدين ابن الخطيب :

٢٠٨

( ١ ) ترجمة عبد الله بن بلقين

٢١١

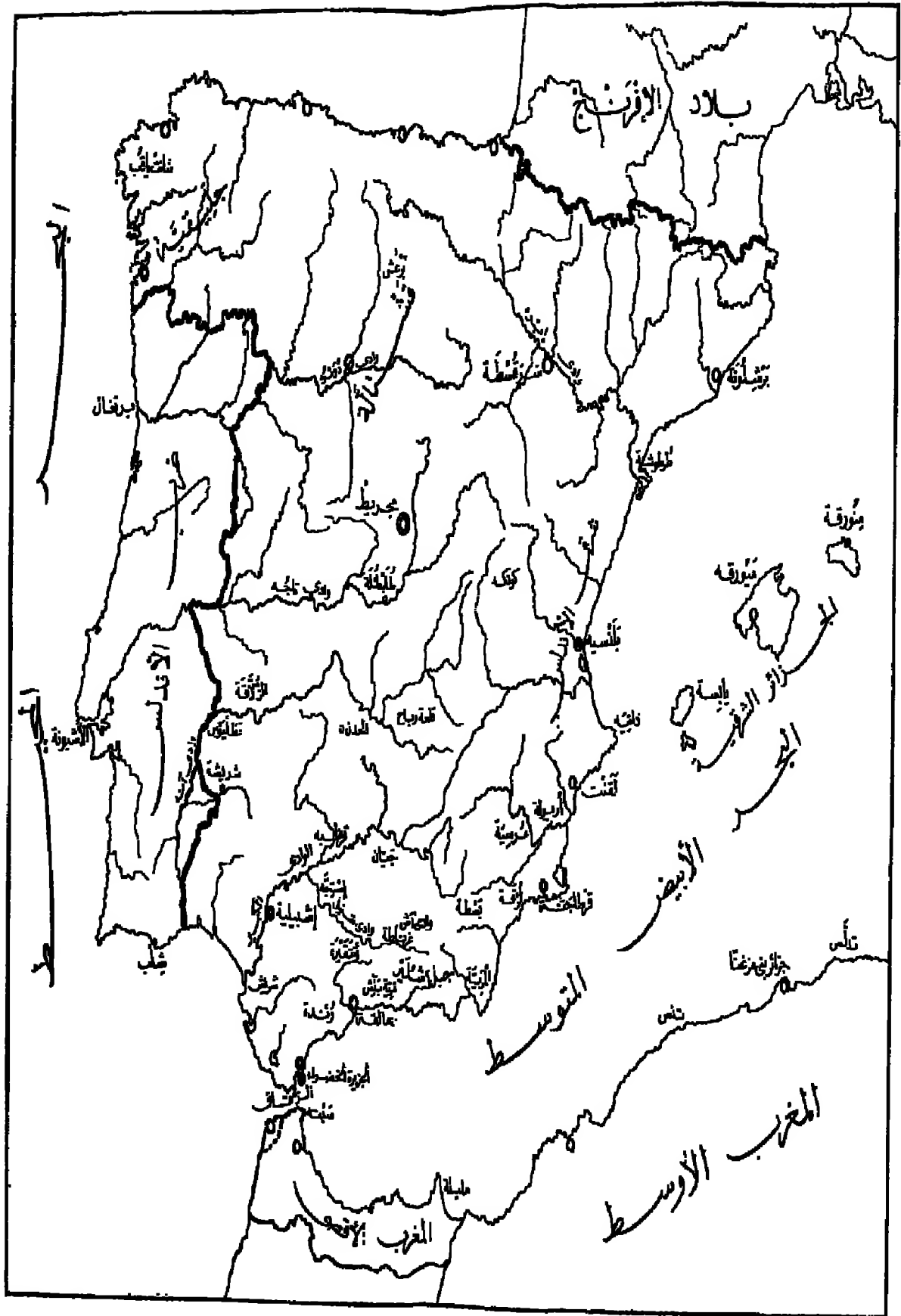
( ٢ ) ترجمة مقاتل بن عطية

٢١٢

( ٣ ) ترجمة مؤيد

٢١٥

فهارس الكتاب



خريطة جزيرة الأناطلس في عهد ملوك الغرناقيين



en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

\* \* \*

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabsûî* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Ihâta* de Ibn al-Khaṭṭib sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamfîr al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-manṣūriyya*, que l'émir 'Abd Allāh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitāb A'māl al-a'lām* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwān*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allāh ibn Buluggīn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmāt; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmāt me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmāt et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbād en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl<sup>m</sup>*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allāh: en effet, d'un passage du *Kitāb al-Marqaba al-'ulyā*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubāḥī, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyān 'an al-ḥādītha al-kā'ina bi-dawlat Banī Zīrī fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

\*\*\*

Qui était cet émir 'Abd Allāh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allāh ibn Buluggīn ibn Bādīs ibn Ḥabūs ibn Zīrī fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

## AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-ṭawṭīf*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XIe siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIIIe siècle [XIVe siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdī Ibn Tūmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allāh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de





# LES « MÉMOIRES » DE 'ABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après Punicum de Fès

*par*

**E. LEVI - PROVENÇAL**

*Professeur à la Sorbonne,*

*Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques*

*de l'Université de Paris*

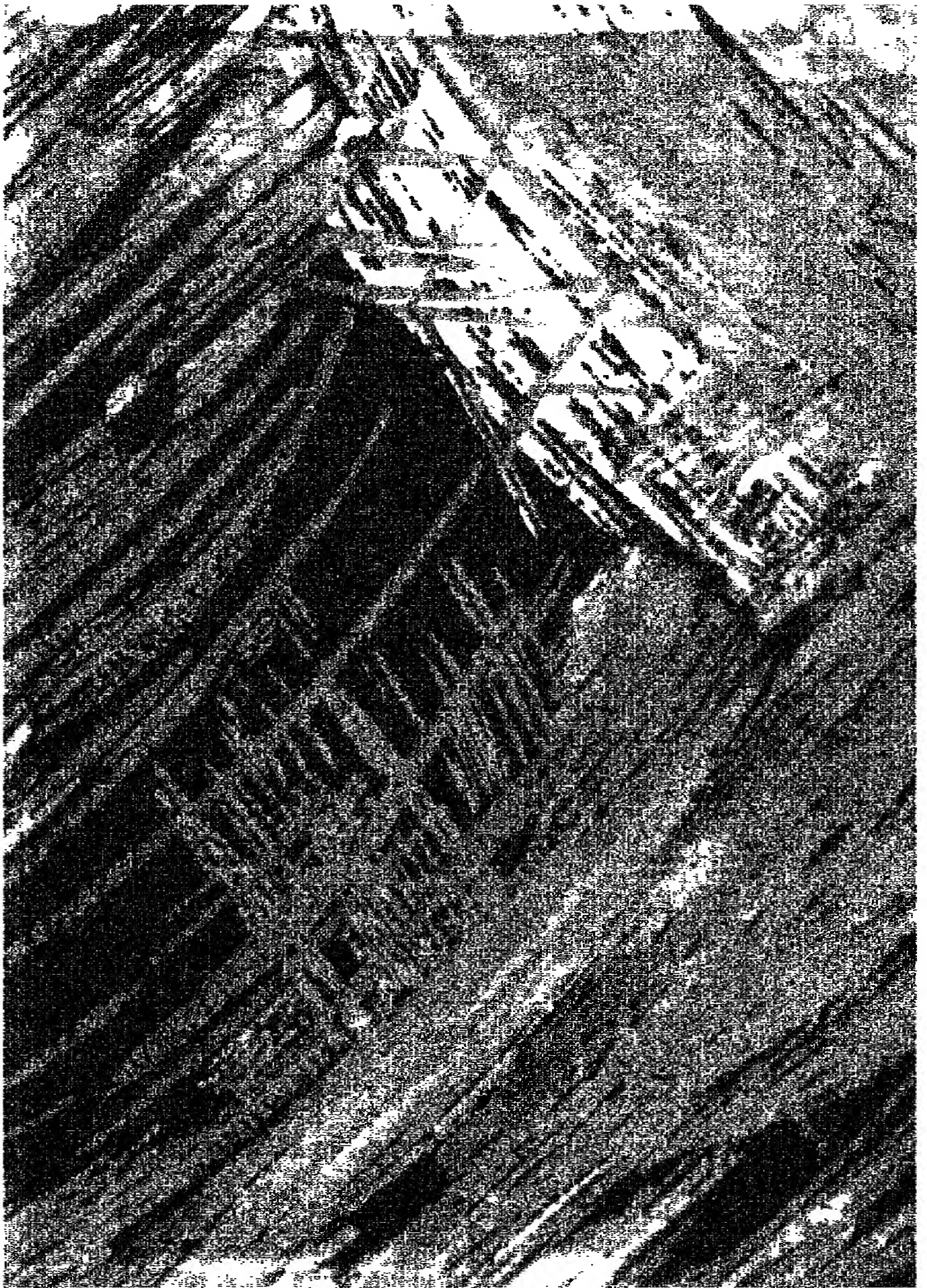
LE CAIRE

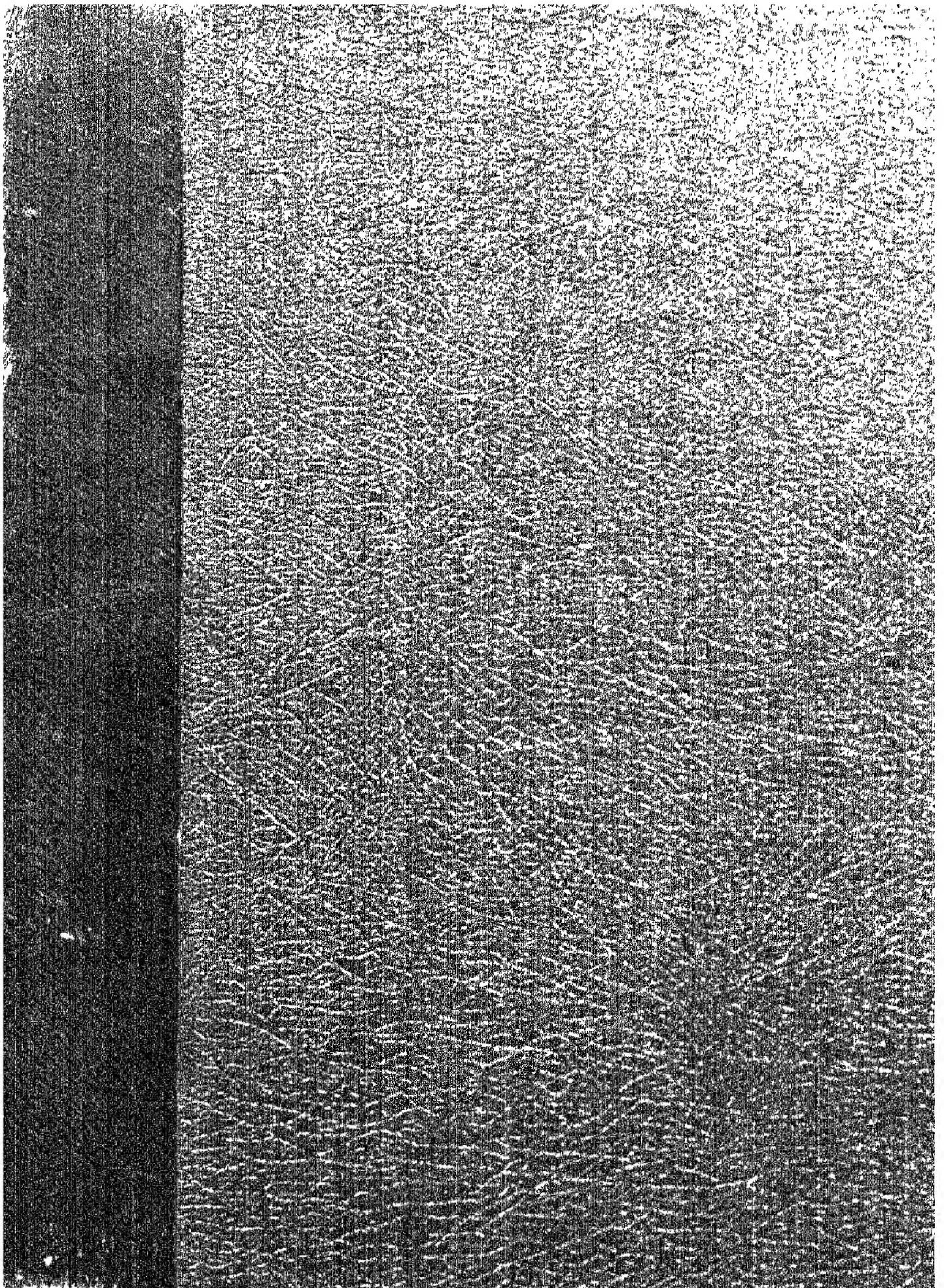
ÉDITIONS AL-MAAREF

1955









To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)